

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



Presented by

Mrs. Emma Gotthell in memory of her husband

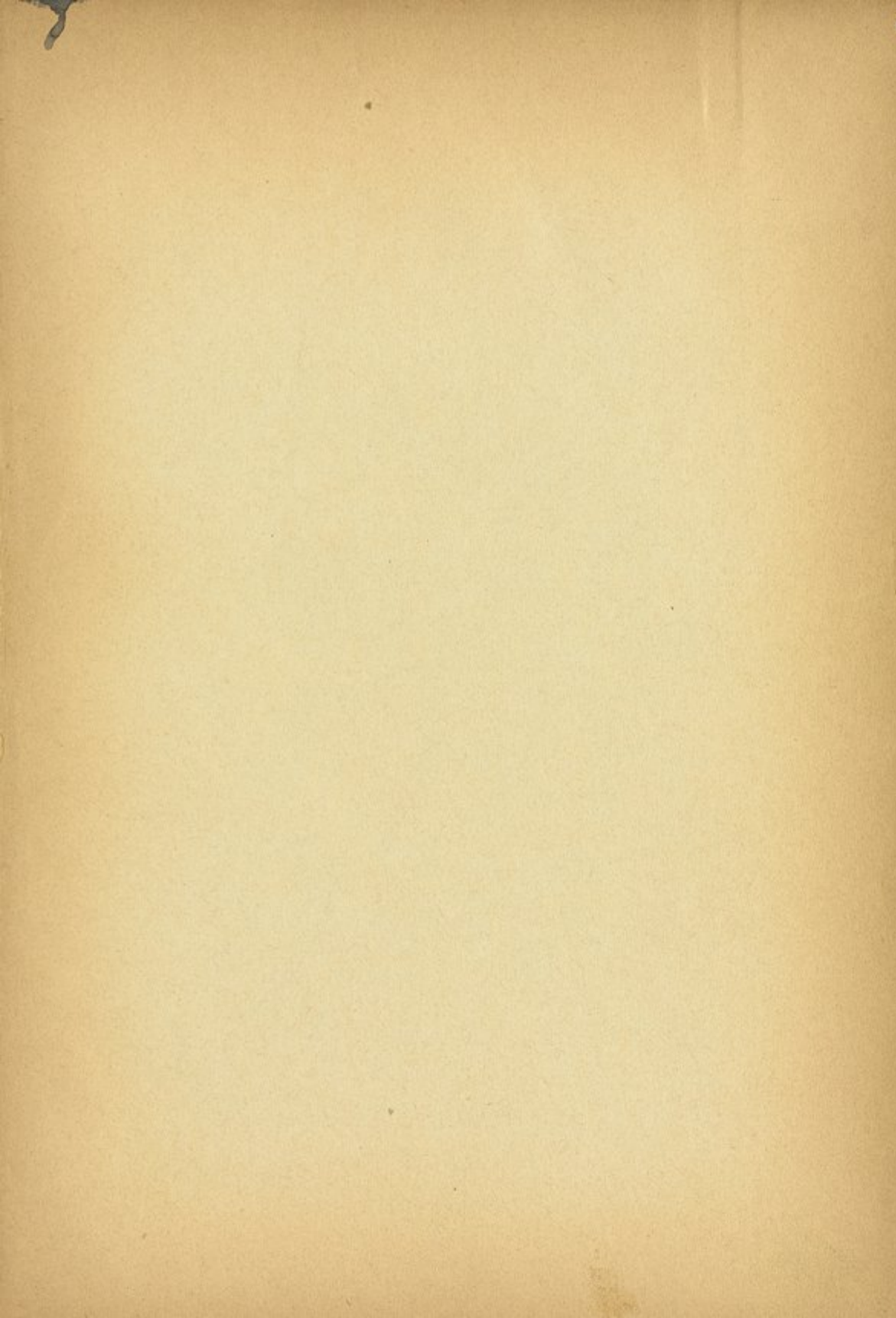
RICHARD JAMES HORATIO GOTTHEIL
1862 — 1936

A.B., 1881, Columbia, Ph.D., 1886, Leipzig,
Litt.D., 1929, D.H.L., 1933

Professor of Semitic Languages and Rabbinical Literature,
Columbia, 1887-1936



no 73



كِتَابٌ

أدب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أفضى القضاة
﴿ ابى الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ﴾
(رحمه الله تعالى)

(قررت نظارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب)
« بالمدارس الاميرية »

(طبع بنفقة امين هندية)

(الطبعة الثانية)

﴿ مطبعة هندية بدارالخطبة بتوسط التوفي بمصر ﴾

سنة ١٣١٥ هجرية

1. Götter

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

(لابي الحسن البصري)

— فهرست كتاب ادب الدنيا والدين —

(لابي الحسن البصري)

	صحيفة
خطبة الكتاب	٣
(باب فضل العلم وذم الهوى)	٤
فصل وأما الهوى فهو عن الخير صاد الخ	١٢
(باب ادب العلم)	١٦
فصل واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي الى أواخرها	٢٦
فصل وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم	٢٩
فصل فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق الخ	٤٢
(باب أدب الدين)	٥١
(باب أدب الدنيا)	٧٩
فصل وأما ما يصلح به حال الانسان فيها	٩١
فصل وأما المواخاة بالمودة الخ	١٠١
فصل واما البر الخ	١١٧
(باب ادب النفس)	١٤٩
وهو الخامس من الكتاب — وفيه ستة فصول	
الفصل الاول في مجانبة الكبر والاعجاب	١٥٣
الفصل الثاني في حسن الخلق	١٥٧
الفصل الثالث في الحياء	١٦٠
الفصل الرابع في الحلم والغضب	١٦٣
الفصل الخامس في الصدق والكذب	١٧٠
الفصل السادس في الحسد والمنافسة	١٧٦
فصل وأما آداب المواضعة والاصلاح — وفيه ثمانية فصول	١٨٠

الفصل الاول في الكلام والصمت	١٨٠
الفصل الثاني في الصبر والجزع	١٨٨
الفصل الثالث في المشورة	١٩٨
الفصل الرابع في كتمان السر	٢٠٣
الفصل الخامس في المزاح والضحك	٢٠٥
الفصل السادس في الطيرة والقال	٢٠٨
الفصل السابع في المروءة	٢١٠
الفصل الثامن في آداب منثورة	٢٣٢

كِتَابٌ

ادب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أفضى القضاة
﴿ ابى الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ﴾
(رحمه الله تعالى)

(قررت نظارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب)

« بالمدارس الاميرية »

(طبع بنفقة امين هنديه)

(الطبعة الثانية)

﴿ بمطبعة هنديه بدرب الجيننه بنيط النوبي بمصر ﴾

سنة ١٣١٥ هجرية

Gothic

893.7M44

P3



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قال القاضي ابو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري رحمه الله تعالى)

الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والانبياء وعلى آله واصحابه
الاتيقاء (اما بعد) فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب
منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته واعظم الامور خطرا وقدرا
واعمها نفعاً ورفداً ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والاولى لان باستقامة
الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تم السعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما
وتفصيل ما اجمل من احوالهما على اعدل الامرين من ايجاز وبسط اجمع فيه بين تحقيق
الفقهاء وترقيق الادباء فلا ينبو عن فهم ولا يدرك في وهم مستشهدا من كتاب الله جل اسمه
بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاويه ثم متبعاً ذلك بامثال الحكماء
وآداب البلغاء واقوال الشعراء لان القلوب تروح الى الفنون المختلفة وتسام من الفن الواحد
وقد قال على بن ابي طالب رضى الله عنه ان القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرائف
الحكمة فكان هذا الاسلوب يحب التثقل في المطلوب من مكان الى مكان وكان المؤمن
رحمه الله تعالى ينتقل كثيرا في داره من مكان الى مكان وينشد قول ابي العاتية رحمه الله
لا يصلح النفس اذا كانت مدبرة * الا التثقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة ابواب (الباب الاول) في فضل العقل وذم الهوى
(الباب الثاني) في ادب العلم (الباب الثالث) في ادب الدين (الباب الرابع) في ادب الدنيا
(الباب الخامس) في ادب النفس وانما استمد من الله تعالى حسن معونته واستودعه حفاظ
موهبتة بحوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

❦ باب فضل العقل وذم الهوى ❦

اعلم ان لكل فضيلة اسا ولكل ادب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين اصلا وللدنيا عمادا فوجب الدين بكامله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه والى به بين خلقه مع اختلاف همهم ومآربهم وتباين اغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسامين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز في العقل فواجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى او يرده عن ردى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء عمل دعامة ودعامة عمل المرء عقله فيقدر عقله تكون عبادته لربه اما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصري رحمه الله ما استودع الله احدا عقلا الا استنقذه به يوما ما . وقال بعض الحكماء العقل افضل مرجو والجهل انكى عدو . وقال بعض الادياء صديق كل امرء عقله وعدوه جهله . وقال بعض البلاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان

يزين الفتى في الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله * وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس انه * على العقل يجري علمه ونجاره
وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شيء يقاربه
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت اخلاقه ومآربه

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسامين
غيري ومكتسب

فالغري هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه
الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم في الانسان سمي عاقلا وخرج به الى
حد الكمال كما قال صالح ابن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت اموره * وتمت امانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حيا اي من كان عاقلا واختلف الناس فيه
وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات

ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف فاسد من وجهين احدهما ان الجواهر متائلة فلا يصح ان يوجد بعضها ما لا يوجد سائرهما ولو اوجب سائرهما ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرًا لجاز ان يكون عقل، بغير عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرًا . وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان اقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل ان يكون متلذذا او ألما او مشتبها . وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محمول لما تضمنه من الاجمال ويتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان احدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المراتب المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو ادرك بحواسه هذه الاشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه في حال تمييز عينيه من ان يدرك بهما ويعلم لا يخرج من ان يكون كامل العقل من حيث علم من حاله انه لو ادرك لعلم واما ما كان مبتدأ في النفوس فكالمعلم بان الشيء لا يخلو من وجود او عدم وان الموجود لا يخلو من حدوث او قدم وان من المحال اجتماع الضدين وان الواحد اقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز ان ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شواته اذا قبح كما يمنع العقل الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل وكل من نفي ان يكون العقل جوهرًا اثبت محله في القلب لان القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلّت هذه الآية على امرين احدهما ان العقل علم والثاني ان محله القلب . وفي قوله تعالى يعقلون بها تأويلان احدهما

يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي
واما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة
الفكرة وليس لهذا حد لانه نحو ان استعمل وينقص ان اهمل ونماؤه يكون باحد وجهين
اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولاصادة من شهوة كالذي يحصل لذوي
الاسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حمدت العرب آراء
الشيخ حتى قال بعضهم المشايخ اشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم
ولا يسقط لهم وهم ان رأوك في قبيح صدوك وان ابصروك على جميل امدوك وقيل عليكم
بآراء الشيخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت
لاسماعهم آثار الغير . وقيل في منشور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله
وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا ادبته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب
الايام عظة . وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل . وقال بعض الادياء
كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لأولى الابواب ما جربوا . وقال بعض الشعراء
وقال آخر ألم تر ان العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب
اذا طال عمر المرء في غير آفة * افادت له الايام في كرها عقلا
واما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس في زمان غير
مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذي يكون
في الاحداث من وفور العقل وجودة الرأي حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن
الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما اراد ان يدفعهما
عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله اذعانا للحق فصار الى ابى جهل لخدانة سنه
وحدة ذهنه فابى ان يحكم بينهما فرجما الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لييد
ياهرم ابن الاكرمين منصبا * انك قد اوتيت حكما معجبا
وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم يناله طول القدم ولا استولت
عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر
رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنين
ولو ان السنين تقاسمته * حوى الآباء انصبه البينا
وحكى الاصمعي رحمه الله قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني فامتحنى بفصاحة
وملاحة أيسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانت أحق قال لا والله قال فقلت ولم

قال اخاف ان يحني عليّ حمي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو اكبر منه سناً واكثر تجربة . واحسن من هذا الذكاء والفضة ما حكي ابن قتيبة ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبدالله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر رضى الله عنه مالك لم لاتهرب مع اصحابك فقال يا امير المؤمنين لم اكن على ريبة فاخافك ولم يكن الطريق ضيقاً فابوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم واثبت له الحجمة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى ان سليمان بن عبد الملك امر الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل واعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف ابي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبأ السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق
 أعجب الناس ان اضحكت سيدهم * خليفة الله يستسقى به المطر
 لم ينب سيفي من رعب ولا دهش * عن الاسير ولكن اخر القدر
 ولن يقدم نفساً قبل ميتها * جمع اليدى ولا الصمصامة الذكّر
 ثم غمد سيفه وهو يقول

ما ان يعاب سيد اذا صبا * ولا يعاب صارم اذا نبا * ولا يعاب شاعر اذا كبا
 ثم جلس وهو يقول كأني بآبن المراغة قد هجاني فقال
 بسيف ابي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
 ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فانشأ يقول
 بسيف ابي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
 ثم قال يا امير المؤمنين كأني بآبن القين وقد اجابني فقال
 ولا تقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم
 فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه
 فقال الفرزدق

كذلك سيوف الهند تنبو ظلماتها * وتقطع احياناً مناط التهام
 ولن تقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم
 وهل ضربة الرومي جاعلة لكم * ابا عن كليب او أخا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكي ان المهدي أتى بأسرى من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شيب بن شيبه فقال له اضرب عنق هذا العلي فقال يا امير المؤمنين قد علمت ما ابتلي به الفرزدق فعير به قوم الى اليوم فقال انما اردت تشريفك وقد اعفيتك وكان ابو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومي وهو مقيد * فكيف ولو لاقيته وهو مطلق

دعاك امير المؤمنين لقتله * فكاد شيب عند ذلك يفرق

فخ شييا عن قراع كتيبة * وأدن شييا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القرينين ولكن من اتفاق الخطارين ومثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخطر عجز عن جواب وان اعضل كما قيل لعلي رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم . وقيل لعبد الله بن عباس اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال اين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اسكات تضمننا دليلي اذعان وحجتي قهر . ومن غير هذا الفن وان كان مسكنا ما حكي عن ابليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال البت تقول انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدرلك السلامة تسلم فقال له يا ملعون ان لله ان يختبر عباده وليس للعبد ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من انبياء الله تعالى الذين امدهم بوحيه وايدهم بنصره وانما يستغرب ممن ينجأ الى خاطره ويعوّل على بديته . وروى قم بن العباس رضي الله عنهما قال قيل لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما اسكت . فاما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ما يميّه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما يميّه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق في الرجل الفاضل الاستحقاق روى انس بن مالك رضي الله عنه قال أتيت علي بن ابي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ببحير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من ادبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله تثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسلأنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحق العابد يصيب بجهله اعظم من نجور الفاجر

وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم . واحتلّف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة ام لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ماوردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير الامور اوساطها . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالي وبه يلحق التالى . وقال الشاعر

لا تذهبن في الامور فرطا * لاتسأن ان سألت شططا *
 وكن من الناس جميعا وسطا
 قالوا لان زيادة العقل تقضي بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد امر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا امير المؤمنين اعن موجدة او خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن احمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكي عن عمر ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد . وقال بعض الحكماء كفاك من عقلك مادلك على سبيل رشدك . وقال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير يطغى . وقال آخرون وهو اصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لانقص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال افضل الناس اعقل الناس . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان مألوف . وقد قيل في تأويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته اى بحسب عقله . وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حقه في اغلب خصال الخير عليه . وقيل في منشور الحكم كل شيء اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا . وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله في ارشاد ومن رأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء ومن هواه في اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وانشدني ابن لثكك لابي

من لم يكن اكثره عقله * اهلكه اكثر ما فيه

فاما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا . وقد ذكر المغيرة بن شعبه عمر بن الخطاب فقال كان والله افضل من ان يخدع واعقل من ان يخدع . وقال عمر لست بالخب ولا يخدعني الخب . واختلف الناس فبين صرف فضل عقله الى الشر كزياد واشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا ام لا فقال بعضهم اسميه عاقلا لوجود العقل فيه . وقال آخرون لاسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات العقل فاما الشرير فلا اسميه عاقلا وانما اسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله امره ونهيه حتى قال اصحاب الشافعي رضى الله عنه فيمن اوصى بثلك ماله لاعقل الناس انه يكون مصروفا في الزهاد لانهم اتقادوا للعقل ولم يفتروا بالامل . وروى لقمان بن ابي عامر عن ابي الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر ازدد عقلا تزد من ربك قريبا قلت باني انت وامى ومن لي بالعقل قال اجنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزد في الدنيا عقلا وتزد من ربك قريبا وبه عزا وانشدني بعض اهل الادب هذه الابيات وذكر انها لعلي بن ابي طالب رضى الله عنه

ان المكارم اخلاق مطهرة * فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا اصدقها * ولست ارشد الا حين اعصيا
والعين تعلم من عيني محدثها * من كان من حزيها او من اعاديها
عينك قد دلتا عيني منك على * اشياء لولاها ما كنت تبديها

واعلم ان العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالانوك الذي لا يجد له فضيلة والاحق الذي قلما يخلو من رذيلة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحق كالفخار لا يرقع ولا يشعب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحق ابغض خلق الله اليه اذ حرمه اعز الاشياء عليه . وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل اقم من الحاجة الى المال . وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل . وقال انوشروان لبرزجره اي الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فميت صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف . وقال سابور بن ازدشير العقل نوعان احدهما مطبوع والآخر مسوع

ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال
 رأيت العقل نوعين * فسموع ومطبوع
 ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
 كما لاتنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحق بما فيه من الرذائل فقال
 العاقل اذا والى بذل في المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله
 ويعتصم معاديه بعدله ان احسن الى احد ترك المطالبة بالشكر وان اساء اليه مسيء سبب له
 اسباب العذر او منحه الصفح والعتو والاحق ضال مضل ان اونس تكبر وان اوحش
 تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته منه ومعاتبته عنه ومحاورته تعر
 ومواليته تضر ومقاربتة عمى ومقارنته شقا . وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل
 حبسته مع جاهل والاحق يسيء الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن
 اليه فيظن انه قد اساء فيطالبه بالوتر فساوى الاحق لا تنقضى وعبوبه لا تتناهى ولا يقف
 النظر منها الى غاية الا لوحث ما وراها مما هو ادنى منها واردى وأمر وادهى فما اكثر العبر
 لمن نظر وانفعا لمن اعتبر . وقال الاحنف بن قيس من كل شيء يحفظ الاحق الا من نفسه
 وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما اقبلت على الجاهل بالاتفاق وادبرت عن العاقل بالاستحقاق
 فان اتت منها سهمة مع جهل او فاتت منها بغية مع عقل فلا يملكك ذلك على الرغبة
 في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس
 من امكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلته وادواته وبعده فدولة الجاهل كالغريب الذي
 يحن الى الثقلة ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها
 بغير عقل ومنزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته
 ويرده الى قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحة حاجيا وولي معاديا .
 واعلم انه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا
 في الغابرين وحديثا في الآخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عطاء
 عن جابر قال كان في بني اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفتة مع حمارى فهم
 به نبي من انبياء الله فاوحى الله اليه انما ائيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا
 من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله لو اعطيت
 عشرة آلاف درهم ما نكحت امة فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله اترونه لو زادوه فعل وعزله

وولى الربيع العامري وكان من النوكي سائر اليامة فاقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بان الله حق لقاءه * وان الربيع العامري رقيق

أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعارّ الجهل غاية ولا لمضارّ الحق نهاية قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة اعيت من يداويها

﴿ فصل ﴾ واما الهوى فهو عن الخير صاّد وللعقل مضادّ لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما الهوى اله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ الهه هواه وقال عكرمة في قوله تعالى ولكنكم قنتم انفسكم يعني بالشهوات وتربصتم يعني بالتوبة وارتبتم يعني في امر الله وغرركم الاماني يعني بالتسويق حتى جاء امر الله يعني الموت وغرركم بالله الغرور يعني الشيطان . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شرغاية ان هذا الحق ثقيل مرير وان الباطل خفيف وبني وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا . وقال على ابن ابي طالب رضى الله عنه اخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة . وقال الشعبي انما سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه . وقال امرأبى الهوى هوان ولكن غلط باسمه فاخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل في مشور الحكم من اطاع هواه اعطى عدوّه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدوّ متبوع . وقال بعض البلغاء افضل الناس من عصى هواه وافضل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

اذا انت لم تعص الهوى قارك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى * فقد نكلته عند ذاك ثواكله

وقد اشتمت الاعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الراى كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيقا مجاهدا يلاحظ
عثره غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوي ومدخل
مكره خفي ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ احكام الهوى عليه اعنى باحد
الوجهين قوة سلطانه وبالأخرة خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى
بكثرة دواعيه حتى يستولى عليه مغالبة الشهوات فيكبل العقل عن دفعها ويضعف عن
منعها مع وضوح قبجها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث اكثر وعلى الشباب
اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم
كما قال محمد بن بشير

كل يرى ان الشباب له * في كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء الهوى
عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء

يا عاقلا اردى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الامور

تجعل العقل اسير الهوى * وانما العقل عليه امير

وحسب ذلك ان يستعين بالعقل على النفس النفور فيشعرها ما في عواقب الهوى من شدة
الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . اخبر ان الطريق الى الجنة احتمال المكاره
والطريق الى النار اتباع الشهوات . قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه اياكم وتحكيم
الشهوات على انفسكم فان عاجلها ذميم واجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب
فسوفها بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرغبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت .
وقد قال ابن السماك كن هواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر الى ما تسوء عاقبته فوطن
نفسك على مجانبته فان ترك النفس ومتهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء
كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت * والزمتم نفسي صبرها فاستمرت

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان اطمعت تاقت والاتسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد اشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى ان يصير
بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى في ثواب الخالق وثناء الخلق .
قال الله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى .

وقال الحسن البصري افضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء اعز العز الامتاع من ملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من اخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه . وقال بعض الادباء من امارت شهوته فقد احيى مروءته . وقالوا بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من اشجع الناس واحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأي المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

واما الوجه الثاني فهو ان يخفى الهوى مكره حتى تموت افعاله على العقل فيتصور القبح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه احديثين اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفى عنها القبح لحسن ظنها وتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يُعَيِّي ويصم اي يعي عن الرشد ويصم عن الموعدة . وقال علي رضي الله عنه الهوى عمى . قال الشاعر * حسن في كل عين من تود * وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن ابي طالب رضي الله عنه

ولست براء عيب ذي الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليله * ولكن عين السخط تبدى المساويا

واما السبب الثاني فهو اشتغال الفكر في تمييز ما اشبهه فيطلب الراحة في اتباع ما استسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امر به واحمد حاله اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم ان يتورط بخدع الهوى وريبة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر . ولذلك قال عامر ابن الظرب الهوى يقطان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب الهوى امنع والرأي انفع وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقال الشاعر اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت * ولم بينها تاقت الى كل باطل وساق الى الائم والعمار بالذي * دعت اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول ان يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعي العقل . وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه في صواب ما احبت

وتحسين ما اشتبه ليتضح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق اقل محملا واصعب مركبا فان اشكل عايه امران اجتنب احبهما اليه وترك اسهلها عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهوى أثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك امران فدع احبهما اليك وخذ أقبلهما عليك وعلّة هذا القول هو ان الثقل يبطن النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهت . وقد قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من تفكر ابصر والمحبوب اسهل شيء تسرع النفس اليه وتعمل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه وبقوت استدراكه لتقصير فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت . وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا . وقال الشاعر

ليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر المرء مالا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى تسلم واعرض عن الدنيا تنعم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولا تفتنك دنياك بحسن العواري فدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترجع ويبقى عليك ما تركته من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعني امرأة بالطواف وانا انشد

اهوى هوى الدين واللذات تعجيني * فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالتا هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو ان الهوى محتص بالآراء والاعتقادات والشهوة محتصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي اخص والهوى أصل هو اعم . ونحن نسأل الله تعالى ان يكفيننا دواعي الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روى ان الله تعالى اوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني . وقال محمد بن كنانة

ما من روى ادبا فلم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى باديب

حتى يكون بما تعلم عاملا * من صالح فيكون غير معيب

ولقبا تغنى اصابة قائل * افعاله افعال غير مصيب

وقال آخر

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء الذي السقام وذى الضنى * كما يصح به وانت سقيم
 ابدأ بنفسك فانها عن غيرها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
 فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى * بالقول منك وقبل التعليم
 لانه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم
 حكى ابو فروة ان طارقا صاحب شرطة خالد القسرى مرّ بابن شبرمة وطارق في موكب
 فقال ابن شبرمة

أراها وان كانت تحب كانها * سحابة صيف عن قريب تقشع
 اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه ابو بكر أنذكر
 قولك يوم كذا اذا مر بك طارق فى موكب فقال يابى انهم يجدون مثل ابيك ولا يجدوا بك
 مثلهم ان اباك اكل من حلوائهم فخط فى احوالهم اما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل
 بالتفريع وقوبل بالتوبخ من أخص ذويه ولعله من أبرّ بنيه فكيف بنا ونحن اطلق منه
 عنانا واقلق منه جانا اذا رمقتنا عين المتبعين وتناولتنا السن المتعنين هل نجد غير
 توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

—•••••— ❖ باب ادب العلم ❖

اعلم ان العلم اشرف ما رغب فيه الراغب وافضل ما طلب وجدّ فيه الطالب وانفع ما كسبه
 واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر على صاحبه وفضله ينمي على طالبه . قال الله تعالى قل هل
 يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فمنع المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم
 من فضيلة العلم . وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امر
 او يفهم منه زجرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الى ابراهيم عليه السلام
 اني علم احب كل علم . وروى ابو امامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين
 احدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم
 رجلا . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه الناس ابناء ما يحسنون . وقال مصعب بن الزبير
 تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن
 مروان لبنيه يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عثتم

وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والادب مال لا خوف عليه . وقال بعض الادباء العلم افضل خلف والعمل به أكمل شرف . وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقوّمك ويسدّدك صغيرا ويقدمك ويسودّدك كبيرا ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك وميلك ويصحح همتك واملك . وقال علي رضي الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلي مثل النبي * لا ولا ذو الذكاء مثل النبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المر * قضاء من الامام علي

وليس يجهد فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا يبلغ في فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واستزدلوا اهله وتوهوا ان ماتميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه والطرف المشتهاه اولى ان يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز في منشور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم واهله انصرفوا الزاهدين وانحرفوا عنه وغنم انحرف الماعدين لان من جهل شيئا عاده . وانشدني ابن لشكك لأبي بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم واهلها * كذلك يعادي العلم من هو جاهله

ومن كان يهوى ان يرى متصدرا * ويكره لا ادري أصيبت مقاتله

وقيل ليزر جهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قيل فما بالنار ترى العلماء على ابواب الاغنياء ولا تكاد ترى الاغنياء على ابواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لغز الكمال . فانشدت لبعض اهل هذا العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله * فاجسامهم قبل القبور قبور

وان امرأ لم يحيي بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقته فقال فاقني الى كلامكم اشد من فاقني الى طعامكم اني طالب هدى لاسائل ندى فاذن له العالم وافاده عن كل مسائل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم اوضح لبساخير من مال اغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بحسه حقه ووضعه في غير منزلته التي وصفه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا . وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لتبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالتحقیصه ولكننا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء المتعمق في العلم كالساج في البحر ليس يرى ارضا ولا يعرف طولها ولا عرضها . وقيل لحمد الراوية أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فحن كما قال الشاعر . اذا قطعنا علما بدا علم * وانشد الرشيد عن المهدي بيتين وقال اظنهما له

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي * فالناس ما بين مغموم ومخصوص

لا شيء في هذه الدنيا يحيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

وإذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهمها والعناية باولها وافضلها وأولى العلوم وافضلها علم الدين لان الناس بمعرفة يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح اداء عبادة جهل فاعلمها صفات ادائها ولم يعلم شروط اجزائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العبادة والعبادة مع خلو فاعلمها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد اوجب الله تعالى فرضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة . قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . وروى عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين احدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما احب الى من صاحبه اما هؤلاء فيسألون الله تعالى ويذكرونه فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم واما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الخير عادة والشر لجابة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خيار أمتي علمائها وخيار علمائها فقهاؤها . وروى معاذ ابن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل

هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين واتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال على بخلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله . وروى حميد عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلوا وعلّموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا . وروى سليمان ابن يسارعن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشئ افضل من فقهه في الدين وفقهه واحدا شد على الشيطان من الف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى انها احق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استبقالا لما تضمنه الدين من التكليف واستردالا لما جاء به الشرع من التبعّد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في اصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فحين سلمت فطته وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس هملاً اوسدى يعتمدون على آرائهم المختلفة ويتقادون لاهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقهون عليه ثم العقل موجب له او مانع ولو تصوّر هذا المختل التصور ان الدين ضرورة في العقل وان العقل في الدين اصل لقصر عن التفسير واذعن للحق ولكن اهمل نفسه فضل واضل وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبأ مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه عمله ولعمري ان صيانة النفس اصل الفضائل لان من اهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبج تبذله فلم يف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح اثم من الجميل والرذيلة اشر من الفضيلة لان الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوي فلا يصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لا سيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوباً فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لتج اترها واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل في مشور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تفرق ويفرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من اشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل زل زلته عالم كثير فهذا وجه واما لان الجهال بذمه اغرى وعلى تقيصه اخرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما بيانوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولو ما كما ان العالم يرى الجهل تخلفا وذما . وانشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه

فهذا زاهد في قرب هذا * وهذا فيه ازهد منه فيه

اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم نخذ منه فان المرء عدو ما جهل وانا اكره ان تكون عدو شئ من العلم وانشد

تفنن وخذ من كل علم فائما * يفوق امرؤ في كل فن له علم

فانت عدو للذي انت جاهل * به ولعلم انت تتقنه سلم

واذا سان ذو العلم نفسه حق صياتها ولازم فعل ما يلزمها من تمييز الموالي وتنقيص المعادي وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز الزاهة فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله . وروى ابو الدرداء ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما واتما ورثوا العلم . وروى ابو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان يحل اهل الشريعة ومن الصنعة ان ترب حسن الصنعة فينبى لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل ان ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهال باستيقاظ المعاناة ويرغب في العلم رغبة محقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ امر وعلو منزله فان من نفذ امره فهو الى العلم احوج ومن علت منزلته فهو بالعلم احق . وروى انس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله . وقال بعض علماء السلف اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم . وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدّهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله فاما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لحص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباؤه لنبوته وقد كان اكثر انبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجردون بلغة ولا يقدرّون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلا . قال البحري

فقر كفقير الانبياء وغربة * وصباية ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة في المال منه الله الكافر وحرمه المؤمن . قال الشاعر

كم كافر بالله امواله * تزداد اضعاقا على كفره
ومؤمن ليس له درهم * يزداد ايمانا على فقره
يا لائم الدهر وافعله * مشتغلا يزري على دهره
الدهر مأمور له أمر * ينصرف الدهر على أمره

وقد بين علي بن ابي طالب رضى الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال العلم يجرسك وأنت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقى خزان العلم اعيانهم مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة . وسئل بعض العلماء أيما افضل المال أم العلم فقال الجواب عن هذا ايما افضل المال أم العقل . وقال صالح ابن عبد القدوس

لاخير فيمن كان خير نثائه * في الناس قولهم غني واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره ان يتعلم في كبره فرضي بالجهل ان يكون موسوما به وآثره على العلم ان يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوي الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيئا متعلما أولى من ان يكون شيئا جاهلا . حكي ان بعض الحكماء رأى شيئا كبيرا يجب النظر في العلم ويستحي فقال له يا هذا أتستحي ان تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله . وذكر ان ابراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال ياعم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال لم لا تعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلي طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بي طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة لان الصغير أعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه ايام الاهمال . وقد قيل في مشور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محذور فاما الكبير فالجهل به أقم وتقصه عليه أفصح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت ايامه في الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير افضل منه لان الرجاء له اكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل افضل منه . وانشدت لبعض اهل الادب

إذا لم يكن مر السنين مترجماً * عن الفضل في الانسان سميته طفلاً
وما تنفع الايام حين يَعُدُّها * ولم يستفد فيهن علماً ولا فضلاً
أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً * الى كل ذي جهل كأن به جهلاً
وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان
اعذر من غيره مع انه قلما يكون ذلك الا عند ذي شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغي ان
يصرف الى العلم حظاً من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من اوقات
استراحة وايام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغاً الى غيره فهو
من عيب الدنيا واسراء الحرص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء فترة
فمن كانت فترة الى العلم فقد نجا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء
صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علماً يدلکم على الهدى
ويردکم عن الردى . وقال بعض العلماء من احب العلم احاطت به فضائله . وقال بعض
الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم
ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار
ذوى النقص وخيفة اهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والحشية قبل الابتلاء . عجز .
وقد قال الشاعر

لاتكون للامور هيوماً * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابي هريرة رضى الله عنه اريد ان اتعلم العلم وأخاف ان أضيعه فقال كفى بترك
العلم اضاعه وليس وان تفاضلت الازهان وتفاوتت الفطن ينبغي لمن قل منها حظه ان يياس
من نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص
فان الماء مع لينة يؤثر في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى في نفس راغب شهي وطالب
خلى لاسيما وطالب العلم معان . قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع اجنحتها
لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منعوا السفاهة من طلب العلم ان يصور في نفسه حرفة اهله
وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة
تظير منها وان رأى كتاباً اعرض عنه وان رأى متحلياً بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالماً مقبلاً
وجاهلاً مدبراً ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم
ما يصحني من محبرة وكتاب لثلا اكون عندهم مستقلاً وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلاً
والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجهر الجهل في القلب كالنز في الارض

يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروي عن ابي الاشعث عن ابي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالقوهم في اعمالهم . ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حيت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد ان العلم شين وان تركه زين وان للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه على بن ابي طالب رضى الله عنه اغد عالما او متعلما او مستما او مجبا ولا تكن الخامس فهلك . وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن ابي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاصلاح مطمع . وقد قيل لبزرجمهر مالكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى ان يبصروا ولا الصم ان يسموا وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا الثفور وتعاند اهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا الثفور وتعتقد ان العاقل محارف وان الاحق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون خيرا اهلا او لفضيلة موضعا . وقد قال بعض البلغاء اخبت الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا انهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا ان العلم والعقل هما السبب في قلة حظهم ورزقهم وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى وادبارا اكثر الجهال لان في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايما الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق محتصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو قتش احوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لو وجدت الاقبال في اكثرهم ولو اختبرت امور الجهال والحمقى مع كثرتهم لو وجدت الحرمان في اكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما ان حرمان العاقل العالم غريب واقباله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب الاشياء فقال سبح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالخط والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته . وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فظلمه ابو تمام فقال

ينال الفتي من عيشه وهو جاهل * ويكدي الفتي من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجي * هلكن اذن من جهلهم البهائم

وقال كعب بن زهير بن ابي سلمى

لو كنت اعجب من شيء لاعجبنى * سعى الفتي وهو مخبوء له القدر

يسى الفتي لامور ليس يدركها * والنفس واحدة والهـم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاعت معهما الحال والجهل
والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لان السعادة ليست بكثرة
المال فكم من مكثر شقى ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه
ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه . وقد قيل في مشور الحكم كم من ذليل اعزاه علمه
ومن عزيز اذله جهله . وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة . وقال بعض الحكماء
كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فجحا . وقال بعض العلماء لبيه يا بني تعلموا العلم فان لم تتلوا به
من الدنيا حظا فلان يذم الزمان لكم احب الى من ان يذم الزمان بكم . وقال بعض الادباء
من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا . وانشد بعض اهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي أئنه * ويضحى كئيب البال عندي حزينه

يلوم على أن رحت للعلم طالبا * اجمع من عند الرواة فنونه

فاعرف ابكار الكلام وعونه * واحفظ مما أستفيد عيونه

ويزعم ان العلم لا يكسب الفنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه

فيالأمي دعنى أعالى بقيمتي * فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وأنا أستعبد بالله من خدع الجهل المذلة وبوادى الحمق المضلة واسأله السعادة بعقل رادع
يستقيم به من زلوعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
إذا استرذل الله عبداً حضر عليه العلم فينبغي لمن زهد في العلم ان يكون فيه راغباً ولمن رغب
فيه ان يكون له طالبا ولمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثرت منه ان يكون به عاملا
ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر

فلا تعذراني في الاساءة انه * شرار الرجال من يسيء فيعذر

ولا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة وبمنيتها باقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا
ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجتنا * وحاجة من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجته * وتبقى له حاجة ما بقي

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة .
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ
مقعده من النار . وروى أبوهريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم
قبل أن يرفع ورفعه ذهاب أهله فإن احدكم لا يدري متى يحتاج اليه او متى يحتاج الى ما عنده
وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فإن المماري به مهجور لا ينتفع والمرأي به محقور لا يرتفع .
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم
لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه وليس المماري به هو المناظر فيه طالبا
للسواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يجادل الا منافق أو مرتاب وقال الاوزاعي اذا اراد الله
بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد الرياشي لمصعب بن عبد الله
أجادل كل معترض ظنين * وأجعل دينه غرضا لديني
وأترك ما علمت لرأي غيري * وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والحصومة وهي لبس * يصرف في الشمال وفي اليمن
فاما ما علمت فقد كفاني * وأما ما جهلت فجنبتوني

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعك حذر المرء من حسن المناظرة فإن المماري
هو الذي لا يريد أن يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب باعنا
والباعث على المطلوب شيان رغبة أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راها أما الرغبة
ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى
لتاركي أوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا الى كنه العلم وحقيقة الزهد
لان الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين في الزهد . وقد قالت الحكماء أصل
العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد
تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فإوحي مفترقين ما أضر افتراقهما وأقبح انفرداهما .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من ازداد في العلم رشدا فلم يزد في الدنيا زهدا
لم يزد من الله الا بعدا . وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتي منه لا ينفعه .
وقال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه

﴿ فصل ﴾ واعلم ان للعلوم اوائل تؤدي الى اواخرها ومداخل تفضي الى حقائقها فليبتدئ طالب العلم باوائلها ليتهي الى اواخرها وبمداخلها لتفضي الى حقائقها ولا يطلب الاخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير أس لا يبنى والتمر من غير غرس لا يجنى ولذلك اسباب فاسدة ودواع واهية فمنها ان يكون في النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه اذ القاضى وما يتعلق به من الدعوى والبيئات او يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوماً بجهل ما يعانى فاذا ادرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم يرباق منه الا غامضا طلبه عناء وعويضا استخراجه فناء لقصور همته على ما ادرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم ان ماترك أهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا باوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوائل تركا لئلا يواكلوا الاواخر فاذا ليس يعرى من لرم وان كان تارك الكل اليوم ومنها ان يحب الاشتهار بالعلم اما لتكسب او لتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى عام ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوقاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهباً مخصوصاً ولقد رأيت من هذه الطبقة عدداً قد تحققوا بالعلم بتحقيق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين اذا اخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت افهامهم حتى انهم ليخطون في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا نمقوا في المجالس كلاما مرصوفاً ولفقوا على المخالف حججاً مألوفة وقد جهلوا من المذاهب ما يعلم المبتدئ ويتداوله الناشئ فهم دائماً في لفظ مضل أو غلط مذل ورأيت قوماً منهم يرون الاشتغال بالمذاهب تكلفاً والاستكثار منه تخلفاً وحاجتي بعضهم عليه فقال لان علم حافظ المذاهب مستور والعلم المناظر عليه مشهور فقلت فكيف يكون علم حافظ المذاهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب فقال لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سأل فعرف فقلت ليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت افليس اذا سئل المناظر فاخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يكرم المرء او يهان فامسك عن جوابي لانه ان انكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضى وان يتقاد الى الحق اولى من ان يستفزه الباطل

وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف وبعيد من لا يعرف العلم ان يعرفه .
وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم
ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعلم في الصغر ثم يشتغل به في الكبر فيستحي ان
يبتدي بما يبتدي الصغير ويستكف ان يساويه الحدث الفرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها
ويهم بجواشيها واكنافها ليتقدم على الصغير المبتدي ويساوي الكبير المنتهي وهذا من
رضي بخداع نفسه وقع بمداهنة حسه لان معقوله ان احس ومعقول كل ذي حس
يشهد بفساد هذا التصور وينطق باحتلال هذا التخيل لانه شيء لا يقوم في وهم ولجهل
ما يبتدي به المتعلم اقع من جهل ما يبتدي اليه العالم . وقد قال الشاعر
ترق الى صغير الامر حتى * يريك الصغير الى الكبير
تعرّف بالتفكر في صغير * كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى واشباهه كان المتعلم في الصغر احمد . روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن ابي الدرداء
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر والذي يتعلم
في كبره كالذي يكتب على الماء . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالاراضي
الخالية ما التي فيها من شيء قبلته وانما كان كذلك لان الصغير افرغ قلبا واقل شغلا وايسر
تبذلا وأكثر تواضعا . وقد قيل في منشور الحكم المتواضع من طلاب العلم اكثرهم علما كما
ان المكان المنخفض اكثر البقاع ماء فاما ان يكون الصغير اضبط من الكبير اذا عرى من هذه
الموانع واوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا . حكي ان الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول
التعليم في الصغر كالنقش على الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلا ولكنه اشغل قلبا
ولعمري لقد فحص الاحنف عن المعنى ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ما ذكرنا
من الاستحياء . وقد قيل في منشور الحكم من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن احمد يرتع
الجهل بين الحياء والكبر في العلم ومنها وفور شهواته وتقسف افكاره . وقال الشاعر

سرف الهوى عن ذي الهوى عزيز * ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء ان القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم
المذهلة . وقد قيل في منشور الحكم اهم قيد الحواس . وقال بعض البلغاء من بلغ أشده
لاقي من العيش أشده ومنها كثرة اشتغاله وترادف حالاته حتى انها تستوعب زمانه
وتستنفد ايامه فاذا كان ذا رئاسة اهته وان كان ذا معيشة قطعت له ولذلك قيل تفقهوا

قبل أن تسودوا . وقال يزرجهر الشغل مجهده والفراغ مفسده فينبغي لطالب العلم ان لا يني في طلبه وينتهر الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضمن بما منح ويبتدى من العلم باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب مالا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك مالا يسعه جهله فان لكل علم فصولا مذهله وشذورا مشغله ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو اهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما العلم اكثر من ان يحصى نخذوا من كل شيء احسنه . وقال المأمون ما لم يكن العلم بارعا فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال . وقال بعض الحكماء بترك مالا يعينك تدرك ما يفنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب عليه اشعارا لنفسه ان ذلك من فضول علمه واعذارا لها في ترك الاشتغال به فان ذلك مطية التوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان كالتقصير اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التي يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقط عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعاني شوارد تفضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد الانس رست وقال بعض العلماء من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم . وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه * ولم يستفد علما نسي ما تعلمنا

فكم جامع للكتب في كل مذهب * يزيد مع الايام في جمعه عمى
وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها فان بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصل الى تلافي ما شذ وصلاح ما فسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة اقسام اما ان يكون لعلته في الكلام المترجم عنها واما ان يكون لعلته في المعنى المستودع فيها واما ان يكون لعلته في السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها لعلته في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة احوال احدها ان يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من احد وجهين اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه الحال الثاني ان يكون لزيادة اللفظ على المعنى قصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين

أما من هذر المتكلم واكثره واما لسوء ظنه بفهم سامعه والحال الثالث ان يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها واما تقصير اللفظ وزيادة فمن الاسباب الخاصة دون العامة لانك لست تجد ذلك عاما في كل الكلام وانما تجده في بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى الكلام المستوفى وعن الزائد الى الكافي ارحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطرك وان اقتصرت على استخراج ما لضرورة دعيتك اليه عند اعواز غيره او لحماية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر الزيادة ولهذا سهل عليك استخراج المعنى منه لان ماله من الكلام محمول لا يجوز ان يكون المختل منه اكثر من الصحيح وفي الاكثر على الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراج ما سهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو اصعب الامور حالا وابعدها استخراجا لان ما لم يفهمه مكلّمك فانت من فهمه ابعد الا ان يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تنبهه باشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له واما المواضعة فضربان عامة وخاصة اما العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه القابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام القابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا واما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في الشعر كانت لغزا فاما الرمزية فلست تجده في علم معنوي ولا كلام لغوي وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع الهمة عنه واما لما يدعى اربابه انه علم معوز وان ادراكه بدعي معجز كالصنعة التي وضعها اربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا باوصافه واخفوا معانيه ليوهمو الشعبه والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر

مِنَعَتْ شَيْئًا فَكَثُرَ الْوَلُوعُ بِهِ * أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا

ثم ليكونوا برآء من عهدته ما قالوه اذا جربوا ولو كان ما تضمن هذين النوعين واشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفي الى العلم الجلي فان اغراض الناس مع اختلاف اهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد . وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الالفاظ ليكون احلى في القلوب موقعا واجل في النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفي الصحف مخبدا كالذي حكى عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة انه قال احفظ ميزانك من البذى واوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من البذى حفظ اللسان من الحنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الصحيح لما سار عنه ولا استحسنت منه وعلّة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يتحجب هان واسترذل وهذا انما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل فاما العلوم المنتشرة التي تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعي اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستعلى ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما في التشاغل باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز واما للغز فهو تحرى اهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا في تباين قرائنهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحفها فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد علما كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم ولا يكسبهم حمدا ولا يجدي عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر

رجل مات وخلف رجلا * ابن ام ابن ابي اخت ابيه |

معه أم بني اولاده * و ابا اخت بني عم اخيه

اخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكديت الفكر في استخراجهما فعملت انه اراد ميتا خلف ابا وزوجة وعمما ما الذي افادك من العلم ونفى عنك من الجهل الست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدّم وما أخطر لكنك في الجهل به قبل استخراجهما كما كنت في الجهل الاول وقد كدّدت نفسك واتعبت خاطرك ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشداك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه . ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القرية وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون اتفاق خاطرك فيه مذخورا وكدّ فكرك فيه مشكورا . وقد روى سعيد بن ابي هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ

ونحن نستعيز بالله من ان نعبن بفضل نعمته علينا ونجهل نفع احسانه الينا . وقد قيل في منشور الحكم من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء من امضى يومه في غير حق قضاء او فرض اداه او مجد الله او حمد حظه او خير اسسه او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا * واسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل مافي الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء والكشف الى الاغماض . واما القسم الثاني وهو ان يكون السبب المانع من فهم السامع لعله في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة اقسام اما ان يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان جليّ وخفيّ فاما الجليّ فهو يسبق الى فهم متصوره من اول وهلة وليس هو من اقسام ما يشكل على من تصوّره واما الخفيّ فيحتاج في ادراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلي عما اخفي وينكشف عما اغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراسة تأثيراً واما ما كان مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه في تصوّره وفهمه مستديعا لنتيجته والثاني ان يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتبعها من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعض المعنى اشكل له وبعضه لا يغني عن كله واما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا باوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذى فهذا يوضح تعليل مافي المعاني من الاسباب المانعة من فهمها واما القسم الثالث وهو ان يكون السبب المانع لعله في المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته والثاني من طارئ عليه فاما ما كان من ذاته فيتبوع نوعين احدهما ما كان مانعا من تصوّر المعنى والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد تصوّره وفهمه فاما ما كان مانعا من تصوّر المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجة وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلي به الا الصبر والاقبال لانه على القليل اقدر وبالصبر احرى ان ينال ويظفر . وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لحاجتك وليس يقدر على الصبر من هذا حاله الا ان يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته وجسده احتمال التعب لبعدهمته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة اعقبه ذلك الحاح الآملين ونشاط المدركين

فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون الا بترك ما تشتهون . وقيل في منشور الحكم اتعب قدمك فان تعب قدمك . وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكلف . وانشد بعض اهل الادب لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه
لا تعجزن ولا تدخلن مخبرة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وأما المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلى به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الا من يري العلم مغنا والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرفة الجهل فان نيل العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبموجب الراحة يكون التعب وقد قيل طلب الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء أكل الراحة ما كانت عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استتقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون الا كمن أطلق ماصاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتاع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها احد ثلاثة اشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل في التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأى في عزيمته وليس يعلم ان الضجور خائب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الرأى مصاب والعرب تقول في امثالها حرف في قلبك خير من الف في كتبك وقالوا لاخير في علم لا يعبر معك الوادى ولا يعمر بك النادي وانشدت عن الربيع للشافعي
رضى الله عنه

علمي معي حيثما يمتت ينفعني * قلبي وعاء له لا بطن صندوق

ان كنت في البيت كان العلم فيه معي * او كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المذاني قبا بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنها يروى بغير روية ويحبر عن غير خبرة فهو كذكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال همه السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يروى من لا يروى ويروى من لا يروى . وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل يا أبا سعيد عن قال ما تصنع بمن أما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته

وربما اعتمد على حفظه وتصوّره وأغفل تقييد العلم في كتبه ثقة بما استقر في ذهنه وهذا خطأ منه لان الشك يعترض والنسيان طارق . وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قيدوا العلم بالكتاب . وروى ان رجلا شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك اي اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت . وقال الخليل بن احمد اجعل ما في الكتب رأس المال وما في القلب النفقة . وقال مهوود لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين لإبخل مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تند عن عقل الاذهان فأجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة واما الطوارئ فنوعان أحدهما شبهة تعترض المعنى فتقطع عن نفس تصوّره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغي أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصوّر المعنى وادراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء لا يتخلى قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فيعود سقيما . وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما * دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فانما * دعيت اخا عقل لتبحث بالعقل

والثاني افكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصوّر المعنى وهذا سبب قل ما يعرى منه احد لا سيما فحين انبسطت آماله واتسعت امانيه وقد يقل فحين لم يكن له في غير العلم ارب ولا فيما سواه همه فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصوّر لان القلب مع الاكراه اشد نفورا وابعده قبولا وقد جاء الاثر بان القلب اذا اكراه عمى ولكن يعمل في دفع ما طرأ عليه من هم مذهل او فكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال الشاعر

وليس يمغني في المودة شافع * اذا لم يكن بين الضلوع شفيح

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المسانعة من فهم المعاني . وها هنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل في جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره لان من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج في فهمه الى تأمل الحط به والممانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالحط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الحط حافظا له ومعبرا عنه . وقد روى عن ابن عباس رضی الله عنهما في قوله تعالى او اثاره من علم

قال يعني الخط . وروى عن مجاهد في قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء يعني الخط ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً يعني الخط والعرب تقول الخط أحد اللسانين وحسنه أحد الفصاحين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منشورها . وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الدائم . وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بألة جسمانية . وقال حكيم العرب الخط أصل في الروح وان ظهر بحواس الجسد . واحتلف في أول من كتب الخط فذكر كعب الأخبار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة في طين ثم طبعه فلما غرقت الأرض في أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتبهم وبقي الكتاب العربي الى ان خص الله تعالى به اسماعيل فاصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة ان أول من كتب ادريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعدده من أجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فداء اهل بدر اربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادي على انه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه واثره . وقد قال الله تعالى لئن لم يكن الله عليه وسلم اقربا وربك الاكرم الذي علم بالقلم فوصف نفسه بالكرم وعد ذلك من نعم العظام ومن آياته الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال سبحانه وتعالى ن والقلم وما يسطرون فاقسم بالقلم وما يخط بالقلم واحتلف في أول من كتب بالعربية . فذكر كعب الأخبار ان أول من كتب به آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل على نبينا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضي الله عنه ان أول من كتب بها ووضعها اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عروة بن الزبير رضي الله عنه ان أول من كتب بها قوم من الاوائل اسماؤهم ابجد وهوز وحطى ولكن وسعفس وقرشت وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة في المعارف ان أول من كتب بالعربي مرامر ابن مرة من اهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت . وحكى المدائني ان أول من كتب بها مرامر ابن مرة واسلم ابن سدرة وعامر بن حدره فرامر وضع الصور واسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذا الحال وجب على من اراد حفظ العلم ان يعاين بالمرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعه لها والثاني ضبط ما اشتمت منها بالنقطة والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحظة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعه وليس بشرط في صحته . وقد قال علي بن عبيدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس المسبدي زداة الخط زمانة الادب . وقال عبد الحميد البیان في اللسان

والخط في البنان . وانشدني بعض اهل العلم لاحد شعراء البصرة
اعذر اخاك على ندالة خطه * واغفر ندالته لجودة ضبطه
فاذا ابان عن المعاني لم يكن * تحسينه الا زيادة شرطه
واعلم بان الخط ليس يراد من * تركيبه الا تبين سمته
ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد على الكلام المفهوم
من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط احد الفصاحين وكما
انه لا يعذر من اراد التقدم في الكلام ان يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وافهم كذلك
لا يعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصورة وان فهم وافهم
وربما تقدم بالخط من كان الخط من اجل فضائله واشرف خصائله حتى صار علما مشهورا
وسيدا مذكورا غير ان العلماء اطرحوا صرف المهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم
ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجدد خطوط العلماء في الاغلب رديئة لا يخط الا من اسعده
القضاء . وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء ان يكون رديء الخط لان الزمان الذي
يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هي السعادة وانما السعادة ان لا يكون
له صارف على العلم وعادة ذي الخط الحسن ان يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه
صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط
اسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب
المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنته قد تكون من ثمانية اوجه (الوجه الاول) اسقاطه الفاظا
من اثناء الكلام يصير الباقي بها مبتورا لا يعرف استخراجها ولا يفهم معناها وهذا يكون اما من
سهو الكاتب او من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرئاضا بذلك النوع
فيستدل بجواشي الكلام وما سلم منه على ما سقط او فسد لاسيا اذا قل لان الكلمة تستدعي
ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع
فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيا اذا كان كثيرا لانه يحتاج في فهم المعاني الى الفكرة
والروية فيما قد استخراجها بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن
ادراكه وضل فكره من استنباطه (والوجه الثاني) زيادة الفاظ في اثناء الكلام يشكل بها معرفة
الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا ان
يقصد الكاتب تمية كلامه فيدخل في اثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضع
فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرئاض وغيره

(والوجه الثالث) اسقاط حروف من أثناء الكلمة يمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول في الوجه الاول (والوجه الرابع) زيادة حروف في أثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل فلا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضع يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني (والوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينبت عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجها وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط او مشقا تسبق به اليد كثيرا فصعب استخراجها الا على المرتاض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر الكتابة المشق كما ان شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف الا بالمواضع (والوجه السادس) تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم ولا يوقف عليه الا بالمواضع الا لمن قد زاد فيه الذكاء فقد رعى استخراج المعنى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن اغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعانة وشدة التأمل وربما اضجر قارئه واوهى معانيه . ولذلك قيل ان الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) اغفال النقط والاشكال التي تتميز بها الحروف المشبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا لان من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل استقبح الكتاب ذلك في المكاتب ورأوه من تقصير الكاتب او سوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقبحهم له في مكاتبه الرؤساء اكثر . حتى قدامة بن جعفر ان بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فاخذها العامل وقرأها فظن ان عبيد الله اراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في اثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان واره خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولى وصحح ما ذكرت نخفى على الكاتب ذلك واطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله ورد اليه ليسأل عن مراده به فشدد عبيد الله الكلمة الثانية

وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال الكتاب في استقبحهم اعجام المكاتبات بالقط والاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه فيها بل استحسنوه لاسيما في كتب الادب التي يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام اكثر وهي فيما سواه من المعلوم ايسر وقد قال الثوري الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة . وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجابه وشكله يؤمن من اشكاله . وقال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصولة وكما استعجم الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستعجبا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتبون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولفضل ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا ما نبه عليه من سواد المداد اثرا جيلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا : حكى ان عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران وأنشد

اتما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان او خطأ والله ولي التوفيق فينبغي لطالب العلم ان يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضى الى تقصير ووفورا يؤل الى سرف وقيادها عسر ولها احوال ثلاث فحال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف فهي ان تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافية فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها ترد عن السرف والتبذر وهذه احمد الاحوال لان ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق به ان يستكمل . وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد واما حال الغلو والاسراف فهي ان تختص النفس بقوى الطاعة وتقدم قوى الشفقة فيعشها اختصاص الطاعة على افراغ الجهد وبفضها افراغ الجهد الى عجز الكلال فيؤديها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والريح خسرانا . وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ منه قوتا عصمه وان اسرف فيه ابشمه وربما كان فيه مَنِيَّتُهُ كأخذ الادوية التي فيها شفاء

ومجاوزة القصد فيها السم المميت واما حال التقصير والاجحاف فهي ان تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون . وقد قال بعض الحكماء العجز مع الوانى والقوت مع التوانى وقد يكون للنفس مع الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداها اغلب من الاخرى فان كانت الطاعة اغلب كانت الى الوفور اميل وان كان الاشفاق اغلب كانت الى التقصير اقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه اشفاقها راض نفسه لثبت على احمد حالاتها وقد اشار الى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق في قوله

لكل امرء نفسان نفس كريمة * وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى * اذا قل من احرارهن شفيعها

وان اهمل سياستها فاغفل رياضتها ورام ان يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استنشاطت

نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنكف عن معصية . وقال سابق البربري

اذا زجرت لجوجا زده علقا * ولجت النفس منه في تماردها

فعد عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك

راحه ثم عاودها بعد الاستراحة فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع . وقد روى عن النبي

صلى الله عليه وسلم انه قال ان القلب يموت ويحيى ولو بعد حين . وقال ابن مسعود للقلوب

شهوة واقبال وفترة وادبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها . وقال الشاعر

وما سمى الانسان الا لانه * ولا القلب الا انه يتقلب

فاما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق

ويمد به من المعونة فتسعة شروط (الاول) العقل الذي يدرك به حقائق الامور (والثاني)

الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره

وفهم ما علمه (والرابع) الشهوة التي بدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل (والخامس) الاكتفاء

بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار

(والسابع) عدم القواطع المذهلة من هموم وامراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة

ليتمهي بالاستكثار الى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأن في تعليه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو اسعد طالب وانجح متعلم . وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتماها في الخامسة معلم ناصح

﴿ فصل ﴾ وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم ان للتعلم تلقاً وتذلاً فان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التماق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباطهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثر . وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليس من اخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذلت طالباً فعزيزت مطلوباً . وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل ابداً . وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم يعرف له فضل علمه ويشكر له جميل فعله . فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من قرع عالماً فقد قرع ربه وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل اهل العلم الا اهل الفضل . وقال بعض الشعراء ان المعلم والطيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يكرا

فاصبر لذنابك ان اهنت طيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلماً

ولا يمتعه علو منزلته ان كانت له وان كان العالم خاملاً فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم

لا بالقدرة والمال . وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر بن دريد

لا تحقرن عالماً وان خلقت * انوابه في عيون راقمه
وانظر اليه بعين ذي ادب * مهذب الرأى في طرائقه
فالمسك ينبت تراه تمهنا * بفر عطاره وساحقه
حتى تراه في عارضى ملك * وموضع التاج من مقارقه

وليكن مقتديا بهم في اخلاقهم متشبيها بهم في جميع افعالهم ليصير لها آفاً وعليها ناشئاً ولما خالفها مجانباً . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خيار شبانكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبانكم . وروى ابن عمر رضى الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم . وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر بن دريد

العالم العاقل ابن نفسه * اغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدباً * فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره * مثل الذي تكرمه لنفسه

وليجذر المتعلم البسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته . قيل لبعض الحكماء من اذل الناس فقال عالم يجري عليه حكم جاهل وكنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا علماضاع بين الجهال . ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان في ذلك كَفْرًا لنعمة واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازدراء به وبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابي البطحاء

اعلمه الرماية كل يوم * فلما اشتد ساءده رماني

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم ان يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين وعند من قدموه مستزدين . وقال صالح بن عبد القدوس

وان عناء ان تعلم جاهلا * فيحسب جهلا أنه منك اعلم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متى ينتهي عن سيء من أتى به * اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

يا فاخرا للسفاه بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف

آباء اجسادنا هم سبب * لان جعلنا عرائض التلف

من علم الناس كان خير أب * ذاك ابوالروح لأبوانظف

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعو ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضى بهم الامر الى التسليم له فيما اخذ منه فلا يبعد ان تبطل تلك المقالة ان انفردت او يخرج اهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن ابائهم ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حافل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال ان هذه دلالة فاسدة وجه فسادها ان شيخي لم يذكرها ومالم يذكره الشيخ لاخير فيه فامسك عنه المستدل تعجبا ولان شيخي كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم قبل المستدل على وقال لي والله لقد احميني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة

ما بين مستهزء ومتعجب ومستعبد بالله من جهل مغرب فههل رأيت كذلك عالما او غل في الجهل وادل على قلة العقل واذا كان المتعلم معتدلا رأى فمين يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فمين يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الجهتين وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح في النفس تقليدا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر في العلم ثلاثة القائل والمستمع والأخذ . وقال عليه الصلاة والسلام هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال فامر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم انها كم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال . وقال عليه الصلاة والسلام اياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للاول وانما امر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال في موضعه ازال الشكوك ونفى الشبهة . وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما يم نلت هذا العلم قال بلسان سؤال وقلب عقول . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم . وانشد المبرد عن ابي سليمان الغنوي

فسل الفقيه تكن فقيها مثله * لاخير في علم بغير تدبر

واذا تعسرت الامور فارحها * وعليك بالامر الذي لم يعسر

ولياخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع اهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان يستوي النفعان فيكون الاخذ عن اشهر ذكره وارتفع قدره أولى لان الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر . وقد قال الشاعر اذا أنت لم يشركك علمك لم تجد * لعامك مخلوقا من الناس يقبله وان صانك العلم الذي قد حملته * اتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تحسبه فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالاصعب بلاء والانتقال من المحبور الى غيره خطر . وقد قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه عقي الاخرق مضره والمتعسف لا تدوم له مسره . وقال بعض الحكماء القصد اسهل من التعسف والكف اودع من التكلف وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك

محبوبا ولا يظفر بطائل . وقد قالت العرب في امثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء
ويزهد فيها القرباء وانشدني بعض شيوخنا لمسح بن حاتم

لا ترى علما يحل بقوم * فيجلوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين في انسان
فاذا حلنا مكانا سميحا * فهما في النفوس معشوقتان
هذه مكة المنية بيت الله يسمى لحجها الثقلان
ويرى ازهد البرية في الحج لها اهلها لقرب المكان

﴿ فصل ﴾ فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التي بهم أليق ولهم أزم
فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلماء
أقبح لان الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو أنهم
نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أخرى
لان العجب نقص ينافي الفضل لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ان العجب لياكل
الحسنات كما تأكل النار الحطب فلا يفي ما دركوه من فضيلة العلم بمالحقهم من نقص العجب .
وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم
خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برأيه .
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن
تعلمون ولتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبايرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم .
وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه به وعلة اعجابهم
انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء فانه
ليس متناه في العلم الا وسيجد من هو اعلم منه اذ العلم أكثر من ان يحيط به بشر . قال الله تعالى
ترفع درجات من نشاء يعنى في العلم وفوق كل ذى علم عليم . قال اهل التأويل فوق كل ذى
علم من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم
قال كل الناس . وقال الشعبي مارأيت مثلى وما اشاء ان ألقى رجلا اعلم منى الا لقيته لم يذكر
الشعبي هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن ان يحاط به
فينبغي لمن علم ان ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما درك منه . وقد قيل
في منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك
من العلماء وانشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به * في دينه ثم في دنياه اقبالا
 فلينظرن الى من فوَّقه أدبا * ولينظرن الى من دونه مالا
 وقلا تجد بالعلم معجبا بما ادرك مفتخرا الا من كان فيه مقلا ومقصرا لانه قد يجهل قدره
 ويحسب انه نال بالدخول فيه أكثره فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من
 بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به . وقد قال الشعبي العلم ثلاثة
 اشبار فمن نال منه شبرا شخ بافقه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه
 وعلم انه لم يناله واما الشبر الثالث فهيات لا يناله أحد ابدا وما اندرك به من حالى اتى صنف
 في اليبوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه
 خاطري حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت اتى اشد الناس اضطلاعا بعلمه
 حضرني وانا في مجلسى اعرابيان فسألاني عن بيع عقدها في البادية على شروط تضمنت اربع
 مسائل لم اعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكرا وبحالى وحالهما معتبرا فقالا ما عندك
 فيما سألتك جواب وانت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا واهالك وانصرفا ثم اتيا من
 تقدمه في العلم كثير من اصحابي فسألاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما وانصرفا عنه راضين
 بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبجالهما وحالى معتبرا واني لعلى ما كنت عليه من
 المسائل الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس وانخفض لها
 جناح العجب توفيقا منه ورشدا او يتته وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع
 التكلف لما لا يحسن فقد يمانى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن أوضح ذلك بيانا
 استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من قننة القول كما نعوذ بك من
 قننة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك
 من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شر العي والحصر ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل
 ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه
 غير محدود فاخلق به ان يضل ويضل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من سئل
 فأتى بغير علم فقد ضل وأضل . وقال بعض الحكماء من العلم ان لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام
 من يعلم فحسبك جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم ولقد احسن زيادة بن زيد حيث يقول
 اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده * أطال فاملى أو تناهى فاقصرا
 ويخبرني عن غائب المرء فعله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا
 فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يفتح به

أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . وروى ان رجلا قال يارسول الله اى البقاع خير واى البقاع شر فقال لا أدري حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه وما أبردها على القلب اذا سئل أحدكم فيما لا يعلم ان يقول الله اعلم وان العالم من عرف ان ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما اذا ترك العالم قول لا ادري أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم الاعلى بانى لست اعلم . وقال بعض البلغاء من قال لا ادري علم فدرى ومن اتحل ما لا يدري أهمل فهوى ولا ينبغي للرجل وان صار فى طبقة العلماء الافاضل ان يستكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عني فلو ركبتم الفلك ما وجدتموهن الا لا يرجون احد الاربه ولا يخافن الاذنبه ولا يستكف العالم ان يتعلم لما ليس عنده واذا سئل احدكم عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما لو كان احدكم يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولما قال هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا وقيل للخليل بن احمد بن احمد بيم ادركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته وقال بزرجهر من العلم ان لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم اخل بكثير افيده على ان العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون ابن عبد الله عن بن مسعود رضى الله عنه انه قال منهومان لا يشعبان طالب علم وطالب دنيا اما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضاء ثم قرأ انا يخشى الله من عباده العلماء واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقصه فيه لينتهي عنها ولا يقع من العلم بما ادرك لان القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والاكثر منه فان قليله اشبه شيء بقليل الخير وكثيره اشبه شيء بكثيره وان يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها امنية . وقال بعض البلغاء من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي ان يجهد من نفسه مبلغ علمها ولا يتجاوز بها قدر حقها ولان يكون بها مقصرا فيدعن بالانقياد أولى من ان يكون بها مجاوزا فيكف عن الازياد لان من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقد قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله متى يعرف الانسان ربه

قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد احوال الناس فيما علموه أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة لا يخلو الانسان منها فقال الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه ورجل يدري ولا يدري انه يدري فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فارشده ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فافوضه وأنشد أبو القاسم الآمدي

اذا كنت لا تدري ولم تك بالذي * يسائل من يدري فكيف اذا تدري
جهلت ولم تعلم بانك جاهل * فمن لى بان تدري بانك لا تدري
اذا كنت من كل الامور مميا * فكن هكذا راضيا بك الذي يدري
ومن أعجب الاشياء أنك لا تدري * وانك لا تدري بانك لا تدري

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تاتمر بما أمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . فقد قال قتادة في قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعني انه عامل بما علم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ويل لجماع القول ويل للمصرين يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به . وروى عبدالله بن وهب عن سفيان أن الحضرة علي بنينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام يا ابن عميران تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره . وقال علي ابن أبي طالب أنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف اذا وقفت بين يدي الله أن يقول قد علمت فاذا علمت اذ علمت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله . وقيل في منشور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء ثمرة العلم ان يعمل به وثمره العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض العلماء العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقام والا ارتحل . وقال بعض العلماء خير العلم مانع وخير القول ماردع . وقال بعض الادباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلقاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد . وقال حاتم الطائي ولم يحمدوا من عالم غير عامل * خلافا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقا للمجد عوجا فظيعة * وأفطع عجز عندهم عجز حازم
لانه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله أزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما ان مرتبة العلم قبل مرتبة العمل .

ويقال للعالم اتشد حتى تشفع للناس ومن آداب العلماء ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من افادة ما يعلون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد ونمى وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولا انقض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وسناقصها ارذالا . وقد قال الله تعالى واذا أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائرهم ثم قرأ ان الذين يكتمون ما انزلنا من الينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه ألقى الله يوم القيامة بلجام من نار . وروي عن علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه انه قال ما اخذ الله العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد على اهل العلم ان يعلموا . وقال بعض الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى ان يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء كان الاستفادة نافلة للتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل في منشور الحكم من كتم علما فكأنه جاهل . وقال خالد بن صفوان اني لا فرح بافادتي المتعلم أكثر من فرحي باستفادتي من العلم . ثم له بالتعليم نفعان احدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سواء قيل وما اجرها قال مائة مغيرة ومائة درجة في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل لتعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيهها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز في منشور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يحمدها ان لا يجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فايك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا علمت ما جهلت وحفظت ما علمت فاعلم ان المتعلمين ضربان مستدعي وطالب فاما المستدعي الى العلم فهو من استدعاء العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت تبيحتها درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته مستكثر واما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون عليه مقبلا

وقد قال أبو العتاهية رحمه الله

اسمع الى الاحكام **تحمّلها** الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بانها * **حجج** تكون عليك منك
ثم لينتخب ان يقول مالا يفعل وان يأمر بما لا يأتمر به وان يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول
الشاعر هذا

اعمل بقولي وان قصرت في عملي * **ينفعك** قولي ولا يضرك تقصيري
عذرا له في تقصير يضره وان لم يضر غيره فان اضرار النفس يغيرها ويحسن لها مساويها
فان من قال مالا يفعل فقد مكر ومن امر بما لا يأتمر فقد خدع ومن اسر غير ما يظهر فقد نافق .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المكر والحديمة وصاحبهما في النار على ان
امره بما لا يأتمر مطرح وانكاره مالا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سبباً لأغراء
المأمور بترك ما امره به عنادا وارتكاب ما نهى عنه كيادا . وحكى ان امرأيا اتى ابن ابي ذئب
فسأله عن مسألة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت وقد بانث فولى
الاعرابي وهو يقول

اتيت ابن ذئب ابنتي الفقه عنده * فطلق حبي البت تبث انامله
اطلق في فتوى ابن ذئب حليلتي * وعند ابن ذئب اهله وحلائله
فظن بجمله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الأمر
والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا . وقال احمد بن يوسف
وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض في الظلم
او كطبيب قد شفه سقم * وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ * ثوبك طهر او لا فلا تلم
(وقال آخر)

عود لسانك قلة اللفظ * واحفظ كلامك ايماء حفظ
اياك ان تعظ الرجال وقد * اصبغت محتاجا الى الوعظ

واما الانقطاع عن العلم الى العمل والانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكي
عن الزهري فيه ما يعني عن تكلف غيره وهو انه قال العلم افضل من العمل لمن جهل والعمل
افضل من العلم لمن علم واما فضل ما بين العلم والعبادة اذ لم **يخجل** بواجب ولم يقصر في فرض .
فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال **يبعث** العالم والعباد فيقال للعباد ادخل الجنة

وعلى تعليمه متوفرا لا يخفى عليه مكنونا ولا يطوى عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة
 فينبغي ان لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة
 لحرمانه فان الشهوة باعته والصبر مؤثر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
 لا تمنعوا العلم اهلہ فظلموا ولا تضعوه في غير اهلہ فأنتموا . وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم
 احدا فان العلم يمنع لجانبه فاما ان لم يكن الداعي دينيا نظرفيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى
 طلب العلم حب النباهة وطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الاول في تعليم من قبل
 لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني حال وان لم يكن مبتدئا به في اول حال . وقد حكى عن سفيان
 الثوري انه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فابي ان يكون الا لله . وقال عبدالله بن المبارك طلبنا
 العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كما من
 ومكر باطن يريد ان يستعملهما في شبه دينيه وحيل فقهيه لا نجد اهل السلامة منها مخلصا
 ولا عنها مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اهلك امتي رجلا ن عالم فاجر وجاهل متعبد
 وقيل يا رسول الله اي الناس شر قال العلماء اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا راي من هذه حاله ان
 يمنع عن طلبته ويصرفه عن بغيته فلا يعينه على امضاء مكره واعمال شره . فقد روى
 انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال واضع العلم في غير اهلہ كملد الخنازير اللؤلؤ
 والجوهر والذهب . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنازير
 فالعلم افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنازير . وحكى ان تلميذا سأل علما عن بعض
 العلوم فلم يفده ف قيل له لم منعه فقال لكل تربة غرس ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء
 لكل ثوب لابس ولكل علم قابس . وقال بعض الادباء اربث لروضة توسطها خنازير وابك
 لعلم حواه شرير وينبغي ان يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر
 استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه او يضعف عنه ببلادته فانه ارواح للعالم والمجح للتعلم .
 وقد روى ثابت عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون
 الناس بالتوسم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا انا لم اعلم ما لم ار فلا علمت ما رايت
 وقال عبدالله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . وقال ابن الرومي

المسي يرى باول رأى * آخر الامر من وراء المغيب

لوذمي له فؤاد ذكي * ماله في ذكائه من ضريب

لا يروى ولا يقبل طرفا * واكف الرجال في قلب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خيرا لم يضع له عناء

ولم يحب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واية في عناء مكذ وتعب غير مجد لانه لا يعدم ان يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفى بالقليل فيضجر الذكى منه ويعجز البليد عنه ومن يردّد اصحابه بين محبز وضجر ملوه وملهم . وقد حكى عبدالله بن وهب ان سفيان بن عبدالله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم ان القائل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثهم ياموسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ماتحشو في وعائك . وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا يقل ولا يمل . وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الأذان اذا قوى فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطي ما يستحقه بسطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي ان يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما احب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى مله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المتقطعين اليه ولا صبر المنفردين به . وقد حكى الاصمعي رحمه الله قال قال لي الرشيد يا عبد الملك انت اعلم منا ونحن اعقل منك لاتعلمنا في ملا ولا تسرع الى تكبرنا في خلا واركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب حد الاستحقاق فلا تزد الا ان يستدعى ذلك منك وانظر الى ما هو اللطف في التأديب وانصف في التعليم وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتأخير التعلم خجلة تقصير يجمل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ او زلة في قول او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زله واصلاح خلله . وحكى ان عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاءك قال الفين قال لحتت قال لما ترك امير المؤمنين الاعراب كرهت ان اعرب كلامي عليه ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام العلماء في ذلك رغبة او رهبة فضلوا واضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتزال هذه الامة تحت يد الله وفي كنفه مالم يمار قراؤها امراءها ولم يرك صلواتها فخارها ولم يمار اختيارها اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلب عليهم جبارتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقير وملاً قلوبهم رعباً . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور

عن كد المطالب فان شبهة المكسب اثم وكد الطلب ذل والاجر اجدر به من الاثم والعز
اليق به من الذل . وانشدني بعض اهل الادب لعلي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى

يقولون لي فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل احجما
ارى الناس من دانا هم هان عندهم * ومن اكرمه عزة النفس اكرما
ولم اقض حق العلم ان كان كفا * بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني * ولا كل من لاقيت ارضاه منما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى * ولكن نفس الحر تحمل الظما
انهمها عن بعض ما لا يشينها * مخافة اقوال العدا فيم اولما
ولم ابتدل في خدمة العلم مهيجتي * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أشقى به غرسا واجنيه ذلة * اذا فاتباغ الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه في النفوس اعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا * محييا بالاطماع حتى تجهما

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة
فما يجد بدا منه . وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوه ومن تسلى بالكتب لم
تفتنه سلوه ومن آسنه قراءة القرآن لم توحشه مزارقة الاخوان . وقال بعض العلماء لاسمير
كالعلم ولا ظهير كالحلم . ومن آدابهم ان يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه
بارشاد من ارشدوا من غير ان يعتادوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا . قال الله تعالى
ولا تشتروا باياتي ثنا قليلا . قال ابو العالية لا تأخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم
في الكتاب الاول يابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
اجر المعلم كأجر الصائم القائم وحسب من هذا اجره ان يلتمس عليه اجرا . ومن آدابهم
نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعوتهم فان ذلك
اعظم لاجرهم واثني لذكورهم وانشر لعلومهم وارسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي كرم الله وجهه يا علي لأن يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت
عليه الشمس . ومن آدابهم ان لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا
فان ذلك ادعى اليهم واعطف عليهم واحث على الرغبة فيما لديهم . وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف . وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال وقرروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه . ومن آدابهم ان لا يمتنعوا طالبا

ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض
الى انقراض العلم بانقراضهم . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الا انبئكم
بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم يقبض الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم
من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه الا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم
ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولى التوفيق

—o—o—o—o—o—o—o— باب ادب الدين

اعلم ان الله سبحانه وتعالى انما كلف الخلق متعبداته والزهم مفترضاته وبعث اليهم رسلا
وشرع لهم دينه لغير حاجة دعتهم الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم
تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عددا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به اعظم لان نفع
ما يوسى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة
وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان اعظم نعمة واكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل
متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع
منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك
توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون فبلغهم رسالته والزهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما
احله وحرمه واباحه وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب
لمن اطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة
تبعث على الطاعة والرغبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا عن معصية
ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرغبة وكان ما تحلل كتابه من قصص الانبياء السالفة
واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك
من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله
صلى الله عليه وسلم بيان ما كان محملا ونفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون
له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى وانزلنا اليك
الذكريتين للناس ما نزل اليهم واعلمهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء استنباط ما نبه على معانيه
واشار الى اصوله بالاجتهاد فيه الى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم

قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال الله تعالى وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم فصار الكتاب اصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء ايضا وكشفا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القرآن اصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده ان اقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد اعدّه لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي . قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال وما جعل عليكم في الدين من حرج . وجعل ما كلفهم به ثلاثة اقسام قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف ابث على قبوله واعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما امرهم باعتقاده قسما اثباتا وقسما نفيًا فاما الاثبات فاثبات توحيد صلاته واثبات بعثه رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به واما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقباح اجمع وهذان التسمان اول ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلاثة اقسام قسما على ابدانهم كالصلاة والصيام وقسما في اموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على اموالهم وابدانهم كالسج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم اداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما امرهم بالكف عنه ثلاثة اقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث والسموم وشرب الخمر المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لاثلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضي الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ انسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به فهل يجد العاقل في رؤيته مساعفا أن يقصر فيما امر به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة في ارتكاب ما نهى عنه وهو تفضل منه عليه وهل يكون من انعم عليه بنعمة فاهلها مع شدة فاقتة اليها الا مذموما في العقل مع ما جاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل له من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرة ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن لطيف حكمته ان جعل لكل عبادة حالتين حالة كمال وحالة جواز رفقا منه بخلقه لما سبق في علمه أن فيهم العجل المبادر والبطيء المتناقل ومن لا صبر له على اداء الاكمل ليكون ما اخل به من هيئات عبادته غير قادح في فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا

وحسن نظره الينا وكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقد قدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال أشع وبما يتعلق بالابدان أسخج وذلك الصلاة والصيام فقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهاال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهاال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام احدكم الى صلاته فانما يناجي ربه فلينظر بم يناجيه وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه كان كلما دخل عليه وقت صلاة اصفر لونه مرة واحمر أخرى فقيل له في ذلك فقال أتني الامانة التي عرضت على السموات والارض والحيال فأبين ان يحملها وأشفقن منها وحملتها أنا فلا أدري أوسى فيها ام أحسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر بحجاء الفاظه ومعانيه ثم علقها باوقات راتبه وازمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له والابتهاال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها حال الكمال أو التقصير فيها حال الجواز . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هانت عليه صلاته كانت على الله تعالى عز وجل أهون . وأنشدت لبعض الفصحاء في ذلك

أقبل على صلواتك الخمس * كم مصبح وعساء لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحو ذنوب صبيحة الامس
فليعملن بوجهك الفض البلي * فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان في إيجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم وسد جوعاتهم لما عاينوه من شدة المجاعة في صومهم وقد قيل ليوסף على نبينا وعليه السلام أتجوع وأنت على خزان الأرض فقال أخاف ان اشبع فانسى الجائع ثم لما في الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ما هي عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه الهين من دونه فقال ما المسح بن مريم الا رسول قد دخلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام فجعل احتياجهما

الى الطعام نقصا فيهما عن ان يكونا الهين وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى نقص
الانسان بالطعام والشراب فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل
يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقه وتنتسه العرقه
وتقتله الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا
فيا أوجه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة او متغافلة ونفع
النفوس به ولم تكن منتفعه ولا نافعة ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض الحج لان
في الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابة منها الى الحج فكان
في ايجابها مواساة للفقراء ومعوثة لذوي الحاجات تكفهم من البغضاء وتمنعهم من التقاطع
وتبعهم على التواصل لان الامل ووصول والراجي هائب واذا زال الامل وانقطع الرجاء
واشدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين ارباب الاموال والفقراء
ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والاغنياء حتى تقضى الى التغالب على الاموال والتغريب
بالنفوس هذا مع مافي اداء الزكاة من تمرين النفس على الساحة المحموده وبجانبه الشح المذموم
لان الساحة تبعث على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما يبعث على اداء الحقوق فأجدر به
حمدا وما صد عنها فأخلق به ذمما . وقد روى ابوهريرة رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال شر ما اعطى العبد شح هالع وجبن خالغ . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته واخفى عن
فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها اعظم مما استوجبه بابدائها . ثم فرض
الحج فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا في مال فيجعل فرضه بعد استقرار
فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استثناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل
ما جمع بين النوعين فكان في ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز
والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع
اهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج الا وحدث توبة من
ذنب واقلاعا من معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المبرورة ان يكون
صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة
مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه انباء عن صحة توبته وصحة التوبة
تقتضى قبول حجه ثم نبه بما يعاني فيه من مشاق السفر المؤدي اليه على موضع النعمة برفاهة
الاقامة وانسة الاوطان ليخنوا على من سلب هذه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بمشاهدة
حرمة الذي انشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التي

أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعفاء حتى طبق الأرض شرقاً وغرباً بالأممجة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر أهلك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك واحلتك على بصيرتك بعد ان كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفوفا هل تحسن نهوضا بشكره اذ فعلت ما أمرك وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليكم نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ماسلف بنعمة توجب الشكر في المؤتلف . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما نعم الله اكثر من ان تشكر الا ما اعان عليه وذنوب ابن آدم اكثر من ان تغفر الا ما عفى عنه . وأنشدت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره

فكيف شكري بره * وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما امرك او فرطت فيما كلفك ونفعه اعود عليك لو فعلته هل تكون لسوانح نعمة الا كفورا وببداية العقول الاميز جورا وقد قال الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها . قال مجاهد اي يعرفون ما عدهد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آباؤهم واكتسبوها بافعالهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله يا ابن آدم ما انصفتني احبب اليك بالنعم وتمقت الى بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الى صاعد كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح . وقال بعض صلحاء السلف قد اصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصىه مع كثرة ما نعصيه فلا ندري ايها نشكر اجميل ما ينشر أم قبيح ما يستر فحق على من عرف موضع النعمة أن يقبلها ممتلا لما كلف منها وقبولها يكون بادائها ثم يشكر الله تعالى على ما انعم من اسدائها فان بنى من الحاجة الى نعمه اكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن ادينا حق النعمة في التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت نعمتان ومن لزمته نعمتان فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا في اداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه ففرت نعمتان ومن فرت عنه نعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذولب صحح ولا عقل سليم . وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوا يحز به . وروى الاعمش عن سليم قال قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه

يارسول الله ما أشد هذه الآفة من يعمل سواً يميز به فقال ياأبا بكر ان المصيبة في الدنيا جزاء
 واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة
 في الدنيا والثاني عذاب القبر . وقال عبد الرحمن بن يزيد احد العذابين مصائبهم في الدنيا
 في اموالهم واولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وان نال اهل المعاصي لذة من
 عيش او ادركوا امنية من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجاً وبقمة . وروى
 ابن طيبة عن عقبه بن مسلم بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى
 يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم اياه فامتد ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به
 فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم ميالون . فاه المحرمات
 التي يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلاً او شرعاً بالنهي عنها فتنقسم قسمين منها ما تكون
 النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة
 الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجريء
 والثاني وعيد آجل يزدجر به التقي ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة
 عنها كأكل الحباث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقصر الله في الزجر عنها
 بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مستعدة في الزجر عنها ومصروفة عن ركوب المحذور
 منها ثم أكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
 ليكون الامر بالمعروف تأكيداً لاوامره والنهي عن المنكر تأييداً لزواجره لان النفوس
 الاشارة قد اهتت بالصوبة عن اتباع الاوامر واذهلتها الشهوة عن تذكر الزواجر وكان انكار
 المجانسين أزجر لها وتوبخ المخاطبين أبلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما اقر قوم
 المنكر بين اظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر . واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من
 أحد الامرين أحدهما أن يكونا أحادا متفرقين وأفرادا متبديدين لم يتجزبوا فيه
 ولم يتظافروا عليه وهم رعية مقهورون وأشداذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس
 ان امرهم بالمعروف ونهيم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من
 فاعليه او سمعه من قائله وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكره هل وجب عليهم
 بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل
 ان يمتنع من القبح وجب ايضا بالعقل ان يمتنع غيره منه لان ذلك أدعي الى مجانبته وأبلغ
 في مفارقه . وقد روي عبد الله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ان قوما ركبوا سفينة فاقسموا فأخذ كل واحد منهم موصفا فقر رجل منهم موضعه بفأس

فقالوا ما تصنع فقال هو مكاني أصنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهدكوا .
 وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لو اوجب النهي عن المنكر ومنع
 غيره من القبح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاوز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على الكفر
 وترك التكبير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي ورود الشرع بذلك
 دليل على أن العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره
 وجب انكاره بالعقل على القولين معا وأما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه
 واقاراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار
 التي لا يوازئها نفع وأما الشرع فقد روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه قال أنكر المنكر بيديك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك
 وذلك أضعف الايمان . فان أراد الاقدام على الانكار مع حقوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار
 النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه التكبير اذا خشي بغالب الظن
 تلفا أو ضررا ولم يخش منه التكبير أيضا وان كان في اظهار التكبير اعزاز دين الله تعالى واظهار
 كلمة الحق حسن منه التكبير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض
 قد يحصل له بالتكبير وان انتصر او قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم ان من
 أفضل الاعمال كلمة حق عند سلطان جائر فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل
 أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجأ في الاكثار
 منه قبح في العقل انكاره والحال الثانية ان يكون فعل المنكر من جماعة قد تظافروا عليه
 وعصبة قد تحزبت ودعت اليه وقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى
 فقالت طائفة من اصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان أن يكون
 كافا ممسكا وملازما لبيته وأدعاً غير منكر ولا مستفز وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور
 المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه
 ويكونوا أعوانه وقالت طائفة أخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا أن يجتمعوا على امام
 عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على
 شروطه في وجود اعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد
 قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبح في العقل أن يتعرض له . فهذا ما أكد الله تعالى به
 أوامره وأيد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال
 الأمرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات

واجتناب المعاصي من أربعة أحوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي وهذا أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين . روى محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت وكما تدين تدان . وقد قيل كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا زرع يومك حصاد غدك . ومنهم من يتمتع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي أخب أحوال المكلفين فهذا يستحق عذاب اللاهي عن فعل ما امر به من طاعته وعذاب المجترى على ما قدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتج من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتج من المعاصي مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد افئنته بالحملی * دهرا من البارد والحار

وكان اولی بك ان تحتمی * من المعاصی حذر النار

وقال ابن صباوة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى اهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لا غنى بكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضی الله عنه رضی الله عنك فقال كيف يرضى عنى ولم أرضه . ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجترى لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أقبلوا عن المعاصي قبل ان يأخذكم الله هتا بتا الهت الكسر والبت القطع ولذلك قال بعض العلماء أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تترك الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتج من الاطعمة لمضراتها كيف لا يحتج من الذنوب لمعراتها . وقال بعض الصالحين أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ما أعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه . وقال بعض الاولياء يدل بالطاعة العاصي وينسى عظيم المعاصي . وقال رجل لابن عباس رضی الله عنه ايما احب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضی الله عنه لأعدل بالسلامة شيئا . وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم اهلككم النوم فقال بل اهلكتكم اليقظة . وقيل لابي هريرة رضی الله عنه ما التقوى فقال أجرت في أرض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت اتوقى قال فتوق الخطايا . وقال عبدالله

ابن المبارك

أيضن لي فتي ترك المعاصي * وأرهنه الكفالة بالخلاص
 أطاع الله قوم واستراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصي
 ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب اللاهي
 عن دينه المنذر بقلة يقينه . وروى أبو ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت صحف موسى (على نبينا وعليه السلام) كلها عبرا
 عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم يتعب وعجبت لمن رأى الدنيا
 وتقلبها باهلها ثم يطمئن إليها وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب
 غدا ثم لا يعمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم
 ضعف فكفوا عن المعاصي وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك وهو أسهل
 وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم ينج الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر
 لانه ترك والتزك لا يعجز المذنب عنه وانما اباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز
 المذنب عنه . وقال بكر بن عبد الله رحم الله امرأ كان قويا فاعمل قوته في طاعة الله تعالى
 أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الاعلى بن عبد الله الشامي رحمه
 الله تعالى

العمر ينقص والذنوب تزيد * وتقال عثرات الفتى فيعود
 هل يستطيع جمحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود
 والمرء يسأل عن سنه فيشبهه * تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم أن لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين احدهما تكسب الوزر والاخرى توهن
 الاجر فاما المكسبة للوزر فاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب به
 يفضي الى حالتين مذمومتين احدهما أن المعجب بعمله ممتن به والممتن على الله تعالى جاحد
 لنعمه . قال ابن عباس رضي الله عنهما أوحى الله تعالى الى نبي من انبيائه اما زهدك في الدنيا
 فقد استجلبت به الراحة وأما انقطاعك الي فهو عز لك فهذان لك وبقيت أنا والثانية أن
 المعجب بعمله مدل به والمدل بعمله مجترى والمجترى على الله عاص . وقال مورق العجلي خير
 من العجب بالطاعة أن لا يأتي بطاعة . وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك
 مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه . واما الموهنة للاجر فالثقة
 بما أسلف والركون الى ما قدم لان الثقة تؤل الى أمرين شينين أحدهما يحدث الاتكا على

ما مضى وتقصيرا فيما يُستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤد شكرا والثاني أن
الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه اوامره
وسهلت عليه زواجره . وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله
تعالى . وقال مورق العجلي لان آيت نائماً واصح نادماً أحب اليّ من أن آيت قائماً واصح
ناعماً . وقال الحكماء ما بينك وبين ان لا يكون فيك خيراً الا ان ترى ان فيك خيراً . وقيل لرابعة
العدوية رحمها الله هل عملت عملاً قط ترين انه يقبل منك قالت ان كان شيء فخوفي ان يرد عليّ
عملي . وقال ابن السماك رحمة الله عليه انا لله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقي
ما اقل منه الحذر . وحكى ان بعض الزهاد وقف على جمع فنأدى باعلى صوته يامعشر الاغنياء
لكم اقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويامعشر الفقراء لكم اقول اقلوا من
الذنوب فان حسناتكم قليلة . فينبغي احسن الله اليك بالتوفيق ان لا تضع صحة جسمك
وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك
والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعداً ولا مافات مستدركا وللفراغ زينغ او ندم
ولللخولة ميل او اسف . وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غلّة . وقال
بزرجمهر ان يكن الشغل مجهداً فالفراغ مفسدة . وقال بعض الحكماء اياكم والحلوات فانها
تفسد العقول وتعقد المحلول . وقال بعض البلغاء لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع
مالك في غير صنعة فالعمر اقصر من ان ينفد في غير المنافع والمال اقل من ان يصرف في غير
الصنائع والعامل اجل من ان يفنى ايامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق امواله فيما
لا يحصل له ثوابه واجره وابلغ من ذلك قول عيسى بن مريم علي نبينا وعليه السلام البر ثلاثة
المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير ذكر فقد افا ومن كان نظره في غير اعتبار
فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها واعلم ان للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث
احوال احداها ان يستوفى فيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية ان يقصر فيها
والثالثة ان يزيد عليها فاما الحال الاولى فهي ان يأتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها
ولا زيادة تطوع على راتبها فهي اوسط الاحوال واعد لها لانه لم يكن منه تقصير فيدم
ولا تكثير فيعجز . وقد روى سعيد بن ابي سعيد رضي الله عنه عن ابي هريرة رضي الله عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال سدّوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالعدوة والروحة
وشئ من الدلجة . وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال أحدها أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عامل كان يعمل عملاً فيقطعه عنه مرض إلا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله . والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغتراراً بالمساحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذخراً والرجاء عدة فهو كمن قطع سفراً بغير زاد ظناً بأنه سيجده في المفاوز الجذبة فيفرض به الظن إلى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى إليه . وحكى أن إسرائيل بن محمد القاضي قال لقيني مجنون كان في الخرابات فقال يا إسرائيل خف الله خوفاً يشغلك عن الرجاء فإن الرجاء يشغلك عن الخوف وفر إلى الله ولا تفر منه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله الأتبي فقال تلك حلية الآمنين . وحكى أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للذنين فقال سليمان أين رحمة الله قال قريب من الحسينين . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه إليّ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أما بعد فإن الإنسان ليس به درك ما لم يكن ليفوته ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحاً ولا لما فاتك منها ترحاً ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل فكان قد والسلام . وقال محمود الوراق رحمه الله

أخاف على المحسن المتقي * وأرجو لذي الهفوات المسي

فذلك خوفاً على محسن * فكيف على الظالم المعتدي

على أن ذا الزيف قد يستفيق * ويستأنف الزيف قلب أتقي

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أحل به من بعد فيبدأ بالسيئة في التقصير قبل الحسن في الاستيفاء اغتراراً بالأمل في أمهاله ورجاء لتلافي ما سلف من تقصيره وإخلاله فلا ينتهي به الأمل إلى غايه ولا يفيض به إلى نهايه لأن الأمل هو في ثاني حال كهو في أول حال . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من يؤمل أن يعيش غداً فإنه يؤمل أن يعيش أبداً ولعمري إن هذا صحيح لأن لكل يوم غداً فإذا يفيض به الأمل إلى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء إلى الإهمال من غير تلاف فيصير الأمل خيبة والرجاء آيساً . وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين وفسادها بالجل والأمل . وقال الحسن البصري رحمه الله ما أطال عبد الأمل

الأساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة أنك حاجة ببغداد قال ما احب أن ابسط
أملي الى ان تذهب الى بغداد ونحبي . وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على امله والعامل يعتمد
على عمله . وقال بعض البلغاء الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه . وقال محمد
ابن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيتة قائماً ويديه رقعة فقال يا محمد
أقرأت ما فيها فقلت هي في يد أمير المؤمنين فرمى بها الي فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الأمل
تعجل بالذنب لما تشتهي * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذبقتة * ما ذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من أحكم شعر قرأته . وقال ابو حازم الاعرج
نحن لانريد ان نموت حتى نتوب ونحن لانتوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء زائد الامهال
رائد الامهال . والحال الرابعة أن يكون نقصيره فيه استتقالا للاستيفاء وزهدا في التمام
واقصارا على ما سخط وقلة اكترات بما بقي فهذا على ثلاثة اضرب احدها أن يكون ما اخل
به وقصر فيه غير قاذح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها
وعمل مفترضاتها وأخل بمسئولاتها وهياتها فهذا مسيء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا
ولا يستوجب عتابا لان أداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاقه بالمسنون يمنع من اكمال
الثواب . وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان . وقال الشاعر

ويصون توبته ويتسرك غير ذلك لا يصونه
واحق ما صان الفتي * ورعا أمانته ودينه

والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدر ترك ما بقي فيما مضى
كمن اكمل عبادات واخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه
من العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل به من مفروض عبادته وهو قاذح فيما عمل منها
كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا لجمعها فلا يحتسب له ما عمل
لاخلاله بما بقي فهذا أسوأ احوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف
ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في
تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة
ثم لعله لا يظن لشانه ولا يشعر بخسران وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن للسير من ماله

ان وهى واحتل . وأنشدنى بعض اهل العلم
 أبى أن من الرجال بهيمة * في صورة الرجل السميع المبصر
 فطن بكل مصيبة في ماله * واذا يصاب بدينه لم يشعر
 وأما الحال الثالثة وهو ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة اقسام احدها ان تكون الزيادة
 رياء للناظرين وتصنعاً للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخضع به العقول الواهية
 فيتبرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو ضد هم . وقد ضرب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم للمرائى بعلمه مثلاً فقال المتشع بما لا يملك كلابس ثوب زور يريد بالمتشع بما
 لا يملك المترين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوب زور هو الذي يلبس ثياب الصلحاء فهو بريائه
 محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس
 فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً
 قال جميع اهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه احداً اي لا يرائى بمعمله احداً فجعل الرياء
 شركاً لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصوداً به غير الله تعالى . وقال الحسن البصري
 رحمه الله تعالى في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء
 ولا تخافت بها حياء وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل
 والاحسان وابتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى أن العدل استواء السريرة
 والعلانية في العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته احسن من علانيته والفحشاء
 والمنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله
 والاحسان الصبر على امره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وابتاء ذي القربى صلة الارحام
 وينهى عن الفحشاء يعنى الزنا والمنكر القبائح والبغى الكبر والظلم وليس يخرج الرياء
 بالاعمال من هذا التأويل ايضا لانه من جملة القبائح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قال أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية . وروى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه قال اشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى ان فيه خيراً ولا خير فيه . وقال علي
 ابن ابي طالب كرم الله وجهه لا تعمل شيئاً من الخير رياء ولا تتركه حياء . وقال بعض العلماء
 كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد فضى الرياء
 بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى ان طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المروزي منذ كم
 صرت الى العراق يا أبا عبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وانا منذ ثلاثين سنة صائم
 فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فاجبت عن مسألتين . وحكى الاصمعي رحمه الله

أن اعرابيا صلى فاطال الى جانبه قوم فقالوا ما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك صائم

صلى فاعجبني وصام فرايتي * نوح القلوص عن المصلي الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع فجه ما أدله على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس مع ظهور ريبائه على الاستهزاء بنفسه كالذي حكى ان زاهدا نظر الى رجل في وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وانت واقف ههنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التي يدفع بها تهجين المذمة ولقد استحسن الناس من الاشعث ابن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض اهل المسجد خفت صلاتك جدا فقال انه لم يخالفها رياء فتخلص من تقيصهم بنى الرياء عن نفسه ورفع التصنع في صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ومر ابو امامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال له أنت أنت لو كان هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لانه أتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء اغلب صفاته واشهر سماته مع انه آثم فيما عمل أثم من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال عبدالله بن المبارك افضل الزهد اخفاء الزهد وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراة فكان ذلك ابلغ في فضله كالذي حكى عن عمر بن الخطاب رضی الله عنه انه احس على المنبر بريح خرجت منه فقال ايها الناس اني قدمت بين ان اخافكم في الله تعالى وبين ان اخاف الله فيكم فكان ان اخاف الله فيكم احب الى الا واني قد فسوت وها أنا نازل أعيد الوضوء فكان ذلك منه زجرا لنفسه لتكف عن نزاعها الى مثله . وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي عظمي فقال لا ارضى نفسي لك واعظا لاني اجلس بين الغني والفقير فاميل على الفقير وأوسع للغني ولان طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لاغيره . وحكى أن قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللتنا فكيف الطريق فقال ههنا وأوما بيده الى السماء . والقسم الثاني ان يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تفره مجالسة الاخيار الافاضل وتحذره مكثرة الاتقياء الامائل . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخال . فاذا كثرتهم المجالس وطاولهم الموائس احب أن يقتدى بهم في افعالهم ويتأسى بهم في اعمالهم ولا يرضى لنفسه ان يقصر عنهم ولا أن يكون في الخير دونهم فتبعته المنافسة على مساواتهم وربما دعتهم الى الزيادة عليهم والمكثرة لهم فيصيروا سببا لسعادته وبعثا على استزادته والعرب تقول لولا الوثام هلك الانام اي لولا ان الناس يربى بعضهم بعضا فيقتدي بهم في الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار

صحة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الاشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تأثيرا في اكتساب الاخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وانشدني بعض اهل الادب لأبي بكر الخوارزمي

لا تصحب الكسلان في حالته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجر يوضع في الرماد فيخمد

والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة في الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعي الرغبة الوافيه الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين واعلى منازل العابدين وقد قيل الناس في الخير أربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردى ومن تركه حرمانا فهو شقي ثم لما يفعله من الزيادة حالتان احدهما ان يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهي افضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها انقرض اخيار السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ايها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ما دام عليه والعرب تقول القصد والدوام وانت السابق الجواد ولان من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا في طاعته . وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا اعصى الله فيه فهو يوم عيد انظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما بلغه في حب الطاعة واحته على بذل الاستطاعة . وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة واناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته والحالة الثانية ان يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر اشبه لان الاستكثار من الزيادة اما ان يمنع من اداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وبمنع فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة البت ولقليل العمل في طويل الزمان افضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قصير الزمان

لان المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا
 أو ساهيا والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار . وقد روى
 أبو صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة
 وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه . فجعل للاسلام شرة
 وهي الايغال في الاكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من
 أن تكون هذه الزيادة تقصيراً أو اخلالاً ولا خير في واحد منهما واعلم جعل الله العلم حاكماً لك
 وعليك والحق قائداً لك واليك ان الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات
 محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرَضَ نفسك على قطعها لتسلم من تبعاتها
 وعلى فراقها لتأمن فجعاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض مع ان العمر وان طال
 قصير والفراغ وان تم يسير وانشدت لعلي بن محمد رحمه الله تعالى

اذا كملت للمرء ستون حجة * فلم يحظَّ من ستين الابدسها
 ألم تر أن النصف بالليل حاصل * وتذهب أوقات المقليل بخمسة
 فتأخذ أوقات الهموم بحصة * وأوقات أوجاع تميم بمسها
 فحاصل ما يتي له سدس عمره * اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب
 فالحالة الاولى أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها
 فتمنعك حظك منها وتوقّ الركون اليها ولا تكن آمناً لها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط منها بشغل لا يفرغ عنه وامل لا يبلغ
 منتهاه وحرص لا يدرك مداه . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس
 مزرعة واهلها له حراث . وقال علي بن ابي طالب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها
 فاعرض عما اعجيك منها لقلّة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها
 وكن أحذر ما تكون لها واث أنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمان منها الى سرور
 أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس أزاله عنها إيجاش . وقال بعض البلغاء الدنيا
 لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من قنّة ولا تخلي من محنة فاعرض عنها قبل
 ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتقل واحوالها تبديل
 ولذاتها تفتى وتبعاتها تبقى . وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا
 تتأملها تأمل العاشق الوامق بها . وقال بعض الشعراء

ألا إنما الدنيا كاحلام نائم * وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالامس لذة * فافئتها هل أنت الا كحلام
فكم غافل عنه وليس بغافل * وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام يا موسى اعرض عن الدنيا وانبذها ورائك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا اولها عناء و آخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن اقتقر فيها حزن ومن ساءها فاتته ومن قعد عنها آتته ومن نظر اليها اعمته ومن نظر بها بصرتة . وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق المحجول تخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاعنتم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضربتين ان ارضيت احداها اسخطت الاخرى . وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء الدنيا اما تقمة نازله واما نعمة زائله . وقيل في منشور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل وقال الشاعر

تمنع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه و آمر
اذا ابتقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذر من جناح لطائر
فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضى الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول واتعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول . وقال عيسى بن مريم عليه السلام لاتنازعوا اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا دينكم ابقيتم . وقال علي بن ابي طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان اعطى منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتى ويتغنى الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا يتنهي ويأصر بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بهملمهم ويبغض

الصالحين وهو منهم . وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فاكان منها من سرور فهو ربح .
وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التكبير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع
اسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعاد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب اعمالك .
وقال بعض الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية مفجعة . وقال الشاعر

خل دنياك انها * يعقب الخير شرها
هي أم تعق من * نسلها من يببرها
كل نفس فانها * تبغني ما يسرها
والمنايا تسوقها * والاماني تفرها
فاذا استحل الجني * أعقب الحلو مرها
يستوي في ضريحه * عبد ارض وحرها

فاذا رُضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خلال احدها ان تكفي
اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية ان تأمن الاغترار
بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهي بها مغرور والمغرور فيها مذعور والثالثة ان
تستريح من تعب السعي لها ووصب الكد فيها فان من احب شيئاً طلبه ومن طلب شيئاً
كد له والمكدود فيها شقى ان ظفر ومحروم ان خاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها وموبق نفسه فموتقها . وقال
عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا واتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة
واتم لاترزقون فيها الا بعمل . وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا ان لاتبقى على حاله ولا تخلو
من استتماله تصلح جانباً بافساد جانب وتسمر صاحباً بمساءة صاحب فالركون اليها خطر
والتقعة بها غرر . وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدمر حسود لا يأتي على شيء
الا غيرته ولن عاش حاجة لاتقضي ولما بلغ مزدك من الدنيا افضل ما سمعت اليه نفسه نبذها
وقال هذا سرور لولا وانه غرور نعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك وغناء لولا انه فناء
وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع
وعلاء لولا انه بلاء وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بقدر . وقال بعض الحكماء قد
ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت .
وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الازدى والقذى * ودار الفناء ودار الغيب

فلو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها الوطر
 أيا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
 اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع
 وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع احدكم الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا
 مفسدا او هرما مقيدا او الدجال فهو شر غائب ينتظر او الساعة والساعة ادهى وامر .
 وحكى ان الله تعالى اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام ان هب لي من قلبك الخشوع ومن
 بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فاني قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام اوحى
 الله الى الدنيا من خدمني فاخدمه ومن خدمك فاستخدمه . وقال بعض البلغاء زد من
 طول املك في قصر عمك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطأ
 الطريق وحرم التوفيق . وقال بعض الحكماء لا يؤمنك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك
 ولا من دولة لك من ادالة منك . وقال آخر ما مضى من الدنيا كالم يكن وما بقي منها كما قد مضى
 وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سحت نفسك عنها فقال ايقنت اني اخرج منها كارها
 فرأيت ان اخرج منها طائعا . وقيل لحرقه بنت النعمان مالك تبكين فقالت رايت لاهلي
 غضارة ولن تمتليء دار فرحا الا امتلات ترحا . وقال ابن السكيت من جرعت الدنيا حلاوتها
 بيمه اليها جرعت الآخرة مرارتها لتجافيه عنها . وقال صاحب كيلة ودمنة طالب الدنيا
 كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليك نوم والاسى لك لازم
 تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما سر بالذات في النوم حالم
 وشغلك فيما سوف تكره غبه * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا اراك الله مكروها فقال كأنك دعوت على صاحبك بالموت
 ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد ان يرى مكروها . وقال ابو العاتية
 ان الزمان ولو يلبس لاهله الخماشن
 خطواته المتحركا * ت كأهن سواكن

والحال الثانية من احوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما محتك من رغائبها وانالتك من
 غرائبها فتعلم ان العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد ان تبق عليك ما احتقت من
 اوزار وصورها اليك وخسران خروجها عنك . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

لا تزول قدما ابن آدم حتى يسئل عن ثلاث شبا به فيم ابلاه وعمره فيم افناه وماله من اين اكتسبه وفيم انفقه . وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال في المال ثلاث خصال قالوا وما هن ياروح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل ابو حازم على بشر بن مروان فقال يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تأخذة الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال فمن اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين . وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيم ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا دارمقام لاأخذنا لها انا . وقيل لبعض الزهاد ألا توصى قال بماذا اوصى والله مالنا شيء ولا لنا عند احد شيء ولا لاحد عندنا شيء انظر الى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل الفقير ملك ليس فيه محاسبة . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تزوج فقال انما تحب التكاثر في دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا فقال انا اكرم على الله من ان يجملني خادم حمار . وقيل لابي حازم رضى الله عنه ما مالك قال شيثان الرضى عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف اكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وقال بعض الحكماء رَبِّ مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه . وقال بعض الادباء الناس اشتات ولكل جمع شتات . وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهدا في الثراء ومن قوي دينه ايقن بالجزاء فلا تفرنك صحة نفسك وسلامة امسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مسخيلة . وقال بعض الشعراء

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه

وكذاك الدهر ماتمه * اقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمتحرف عنها مأفون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفي تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة في مالك ان تضعه في حقه وان تؤتبه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا . فقد روى ان رجلا قال يارسول الله اني اكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله . وقالت عائشة رضى الله عنها ذبحنا شاة فصدقنا بها فقلت يارسول الله

ما بقي الاكتفها قال كلها بقي الاكتفها . وحكى ان عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين الف درهم فقيل له انخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال انا اجعل هذا المال ذخرا لي عند الله عز وجل واجعل الله ذخرا لولدي وتصديقها وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار اكان يبقى في الاولى شيئا . وقال سليمان ابن عبد الملك لابي حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم اخبرتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر ترك زيد بن خارجة مائة الف درهم فقال لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصري رحمه الله ما نعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعه الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم ان عوفينا من شر ما اعطينا لم يضرنا فقد ما زوى عنا . وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم . وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يدقون اباؤكم يقولون اتوجهون للآخرة شيئا . وقال سعيد بن المسيب مر بي صلة بن أشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا أبا الصهباء ادع لي فقال رغبتك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفتى ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفس الا اليه ولا يعول في الدين الا عليه ولما قيل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا أعيش الا بما أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم يتنون عند الموت ما نحن فيه ولا تمنى نحن عنده ما هم فيه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما اكلت فافيت او لبست فابليت او اعطيت فامضيت . وقال خالد بن صفوان بت ليلتي اتمنى فكسبت البحر الاخضر والذهب الاحمر فاذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران . وقال مورو العجلى يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وانت تحزن ويتقص عمرتك وانت لا تحزن تطلب ما يطفيك وعندك ما يكفيك . وقال ابو حازم انما بيننا وبين الملوك يوم واحد اما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فاعسى أن يكون . وقال بعض السلف تعز عن الشيء اذا منغته لقله ما يصحيك اذا اعطيته . وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبت بها اهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر ليكن طلبك للدنيا اضطرارا وتذكرك في الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنی وقال آخر من حاسب نفسه ريح ومن غفل عنها خسر . وقال ابو العتاهية

ارى الدنيا لمن هي في يديه * عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغثت عن شيء فدعه * وخذ ما انت محتاج اليه

وحكى الاصمعي رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمه الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه
تسيل على خده فلما ابصرني قال رأيت ما كان مني قلت نعم يا امير المؤمنين فقال أما انه لو كان
لامر الدنيا ما كان هذا ثم رمى اليّ بالقرطاس فاذا فيه شعر ابى العاتية رحمه الله تعالى

هل انت معتبر بمن خربت * منه غداة قضى دساكره
وبمن اذل الدهر مصرعه * قبرت منه عساكره
وبمن خلت منه اسرته * وتعطلت منه منابره
ابن الملوك واين عزهم * صاروا مصيرا انت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدالك ان تنال من الدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمه الله عليه والله لكأني اخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك
الا يسيرا حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من احوال رياضتك لها ان تكشف لنفسك حال
أجلك وتصرفها عن غرور املك حتى لا يطيل لك الامل اجلا قصيرا ولا ينسبك موتا
ولا نشورا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان الايام
تطوى والاعمار تقفى والابدان تبلى وان الليل والنهار يترا كضمان كتر اكض البريد يقربان
كل بعيد ويخلفان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورجب في الباقيات
الصالحات . وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله
ولو رأيتم الاجل ومسيره لا بفضم الامل وغروره . وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله
عليه وسلم من اكيس الناس قال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك الاكياس
ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تتامون كذلك
تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ايها الناس
اتقوا الله الذي ان قلمم جمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم ادرككم
وان اقمتم اخذكم . وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شيء الا والموت اشد منه وليس بعد
الموت شيء الا والموت ايسر منه . وقال بعض الحكماء ان للباقي بالماضي معتبرا وللآخر
بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يفتن بالطمع . وقال بعض الصلحاء

ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فناءك الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى .
وقال بعض العلماء أى عيش يطيب وليس للموت طيب . وقال بعض البلغاء كل امرئ
يجرى من عمره الى غاية تنتهي اليها مدة اجله وتنطوي عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك
وقس يومك بامسك وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل
وتقتصر عن الزيادة في السعى والعمل . وقيل في منشور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت
له . وقال ابو العتاهية

ما للمقابر لا تحي * باذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة علي * من الجنادل والكئيب
فيهن ولدان وأط * فال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن * نفسي بفرقه تطيب
غادرته في بعضهن مجذلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما * عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أقلل من الدنيا تعيش حرا وأقلل من الذنوب بين عليك
الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السباك رحمهما الله تعالى
عظني وأوجز فقال اعلم انك اول خليفة يموت . وعزى اعرابي رجلا عن ابن صغير له فقال
الحمد لله الذي نبجنا مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض السلف
من عمل للأخرة احرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة . وقال بعض الصلحاء
استغفم نفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود ونفس
معدود وعمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء الطيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور .
وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك . وروى عن
علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
غر جهولا أمله * يموت من جا أجله * ومن دنا من حفته * لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر * قد غاب عنه اوله * والمرء لا يصحبه * في القبر الا عمله

(وقال ابو العتاهية)

لاتأمن الموت في لحظ ولا نفس * وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجري على اليبس

فاذا رضى نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احدها ان تكفي تسوية أمل يريديك وتسوية محال يؤذيك فان تسوية الامل غرار وتسوية المحال ضرار والثانية ان تستيقظ لعمل آخرتك وتغنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر امله واستقل أجله حسن عمله والثالثة ان يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق امرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك وابق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابي ذر رضى الله عنه عظمى فقال ارض بالقوت وخف من القوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ما ريت يقينا لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لمحق ولئن كنا جاحدين انا لهلكي . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه ارحل بمحمدك وان اسأت اليه ارحل بدمك وكذلك ليك . وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا في حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من اجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك اهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب . ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجمعلون قدومي على خالق أرجوه كقامي مع مخلوق أخافه . وقيل لابي بكر الصديق رضى الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو ارسلت الى الطيب فقال قد رآنى قالوا فما قال لك قال قال اني فعال لما اريد . وقيل للربيع بن خثيم وقد اعتل ندعوك بالطيب قال قد أردت ذلك فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الداء والمداوي فهلكوا جميعا . وسئل انو شروان متى يكون عيش الدنيا أذ قال اذا كان الذي ينبغي ان يعمل في حياته معمولا . وقال بعض الحكماء من ذكر المنية نسي الامنية . وقال بعض الابداء عن الموت تسل وهو كريشة تسل . وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل .

وانشد بعض اهل الادب ما ذكر انه لعلي رضى الله عنه

ولو أنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي

ولكننا اذا متنا بعثنا * ونسل بعدنا عن كل شئ

(وقال بعض الشعراء)

ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا

وراح ولا يدري علام قدومه * ألا كل ما قدمت تلقي موافرا
 وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه أن أبا الدرداء رضى الله عنه قال يا رسول الله أوصني
 فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد
 نفسك من الموتى . وكتب الربيع بن خثيم إلى أخ له قدم جهازك وأفرغ من زادك وكن وصي
 نفسك والسلام . وقال بعض السلف أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها .
 ومر محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد
 فيها . وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره
 وبخل على نفسه . وقال بعض البلغاء لا تبت عن غير وصية وان كنت من جسمك في صحة
 ومن عمرك في فسحة فان الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن . وقال بعض الشعراء

من كان يعلم ان الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه

وانه بين جنات ستهجه * يوم القيامة او نار سننجه

فكل شيء سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه اسمجه

ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر ان المتايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
 في بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانهوا الى
 معالمكم وان المؤمن بين مخافتين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه واجل قد بقى
 لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرة ومن الحياة
 قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم واتم خلقتم للآخرة فوالذي نفس محمد بيده ما بعد
 الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة او النار . وقال الحسن البصري رحمة الله
 عليه امس اجل واليوم عمل وغدا امل . فأخذ ابو العتاهية هذا المعنى فظلمه شعرا

ليس فيما مضى ولا في الذي يا * تيسك من لذة لمستحليها

انما أنت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي أنت فيها

علل النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد مالك تمشي على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال اني اعلم اني مسافر وانها
 دار بلغة وأن العصا من آلة السفر . فأخذ بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها * على ولا أني تخنيت من كبر

ولكنني أئزمت نفسي حملها * لاعلمها أني مقسم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة . وقال ذوالقرنين عليه السلام رتعا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا منها كارهين . وقال عبد الحميد المرء أسير عمر يسير . وقيل في بعض المواعظ عييا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعييا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل . وقال بعض الحكماء المسىء ميت وان كان في دار الحياة والمحسن حي وان كان في دار الاموات وكل بالاثر يومه او غده . وقال بعض السلف الله المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف واعمال تحالف . وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقال آخر اعملوا لا خرتكم في هذه الايام التي تسير كأنها تطير . وقال آخر الموت قصارك نخذ من دنياك لا خراك . وقال آخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ولقد امهل حتى كأنه قد اهمل . وقال آخر الايام صحائف أعمالكم تخلدوها أجل أفعالكم . وقيل في منشور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظت بامس . وقال محمد بن بشير رحمه الله
مضى أمسك الا دنى شهيدا معدلا * ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة * فتنّ باحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتي وانت فقيد

وروى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما رأيت مثل الجنة نام طالبها وما رأيت مثل النار نام هاربها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام ألا ان اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى أجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه سترتهم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في بحر فانه ربما ادرك الذي يطلبه منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيت طالبا يطلب الآخرة فانفسوه فيها . ودخل ابو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال يا أهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال ما لي أراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا واملوا ببيدا وجمعوا كثيرا فاصح املهم ضرورا وجمعهم ثورا ومساكنهم قبورا . وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق فعاجلهم الموت فحلفوا ما لهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغي ان ننظر للذي كرهناه منهم فنجتبه والذي غبطناهم به فنستمله . وممن بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد وسفر بعيد . وممن بعض الزهاد

برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فاعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشيء . وقال بعض الحكماء ما انصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد في الأجر والثواب . وقال آخر بطول الأمل تقسو القلوب وبإخلاص النية تقل الذنوب . وقال آخر أياك والمني فانها من بضائع النوكى وتبسط عن الآخرة والأولى . وقال آخر قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير . وقال عبدالله ابن المعتز رحمه الله

نسير الى الآجال في كل ساعة * وإيامنا تطوى وهن رواحل
ولم نر مثل الموت حقا كأنه * اذا ما تحطته الاماني باطل
وما أفتح التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب في الراس نازل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت * واكده لنفسك ايها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى * وكأن ما هو كأن قد كان
ونظر سليمان بن عبد الملك في المرأة فقال انا الملك الشاب فقال له جارية له
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب * كان في الناس غير أنك فاني

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن ابان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجذعاء فقال ايها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشئ من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوتهم اجداتهم ونأكل ترانهم كأننا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وامنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيه عن عيب غيره واففق من مال كسبه من غير معصية ورحم اهل الدين والمسكنة وخالط اهل الفقه والحكمة طوبى لمن ادب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريره طوبى لمن عمل بعلم واففق من فضل وامسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة . وحفر الربيع بن خيثم في داره قبرا فكان اذا وجد في قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فكفك ما شاء الله ثم يقول رب ارجعوني لعلني اصالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجددني فكفك كذلك ما شاء الله

وقال ابو محرز الطفاوى كفتك القبور مواعظ الامم السالفة . وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ
العظمت قال النظر الى محلة الاموات فاخذه ابو العتاهية فقال

وعظتك اجدات صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن اوجه * تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك في الحيا * ة وانت حتى لم تمت
يا شامتا بمنيتي * ان المنية لم تفت
فربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوبا قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة . وعلى آخر من آمل البقاء
وقدرأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل في منشور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه
وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة
بحاله . وقال بعض العلياء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول احد . وقال بعض البلغاء
ما نقصت ساعة من أمسيك الا ببضعة من نفسك فاخذه ابو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا * فانظر بما يتقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته * الا وشيء يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس انطق منه اليوم وهو اليوم او عظ منه
أمس فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فقال

كفى حزنا بدفك ثم اني * نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لي عظمات * وانت اليوم او عظ منك حيا

وقال بعض الحكماء لو كان للخطايا ريح لاقضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعنى
ابو العتاهية فقال

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا * بين ثوبه فضوح

وهذا جيمه . اخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفت ما تدافتم . وكتب رجل الى
أبي العتاهية فقال

يا أبا اسحق انى * وائق منك بودك
فأعني بابي ان * ت على عبي برشدك

(فاجابه بقوله)

أطع الله بجهدك * راغبا او دون جهدك
أعظم مولاك الذي تطا * لب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

ابن ذي الابن كلما زاد منه * مشرع زاد في فناء ابيه
ما بقاء الاب الملح عليه * بدبيب البلا شباب بنيه

وفي معناه ما حكى عن زر بن حبيش انه عاش مائة وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة انشد يقول

اذا الرجال ولدت اولادها * وارتعشت من كبر اجسادها
وجعلت اسقامها تعادها * تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله * فليت شعري بعد الباب ما الدار

(فاجابه بقوله)

الدار جنات عدن ان علمت بما * يرضي الاله وان خالفت فالنار
ها محلان ما للناس غيرها * فانظر لنفسك ماذا انت مختار

باب ادب الدنيا

اعلم ان الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدييره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبره وبديع ما قدره انه خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بفناه انه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقائضنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانتة صفة لازمة لطبعه وخلقته قائمة في جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى الشيء افتقار اليه والمفتقر الى الشيء عاجز به . وقال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور المعجز نعمة عليه ولطفها به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز

يمنعانه من طغيان الغنى وبني القدرة لان الطغيان مركز في طبعه اذا استغنى والبغى
مَسْتَوٍ عليه اذا قدر وقد انبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى
ثم ليكون اقوى الامور شاهدا على تقصه واوضحها دليلا على عجزه . وانشدني بعض اهل الادب
لابن الرومي رحمه الله

اعيرتني بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل
واشهد انى ناقص غير انى * اذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففى ايام هذين انت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم * لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته اسبابا ولدفع عجزه حيلة
دله عليها بالعقل وارشده اليها بالفطنة . قال الله تعالى والذي قدر فهدى . قال مجاهد
قدر احوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود فى قوله تعالى وهديناه
النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسباب ما تدعو
اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدر كيلا يعتمدوا فى الارزاق
على عقولهم وفى العجز على فطهم لتدوم له الرغبة والرغبة ويظهر منه الغنى والقدرة
وربما غرّب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما قال الشاعر

سبحان من انزل الايام منزلها * وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن اعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الالباب حائرة * وصير العاقل التحير زديقا

ولوحسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقا لا زديقا لان من علل
المصالح ماهو ظاهر ومنها ماهو غامض ومنها ماهو مغيب حكمة استأثر بها . ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل
عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك ان
يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لاغنى له عن التزود منها لآخرفته ولا له بد من
سد الحلة فيها عند حاجته وليس فى هذا القول نقص لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر
النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة اتمما تختص
بما جاوز قدر الحاجة والفضول اتمما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب . قال اهل التأويل فاذا فرغت

من أمور دنياك فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لئيبه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن نذبه الى أخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نعم المطية الدنيا فارمحلوها تبلغكم الآخرة . وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها . وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى آتت في طلب الدنيا فقيل له أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثوري رحمة الله عليه مكتوب في التوراة اذا كان في البيت برقتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة اكتساب ما يصون العرض فيها . وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق

لاتبع الدنيا وأيامها * ذما وان دارت بك الدائرة

من شرف الدنيا ومن فضلها * أن بها تستدرك الآخرة

فاذا قد لزم بما يتناه النظر في أمور الدنيا فواجب ستر احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لتعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتتنق عن اهلها شبه الحيرة وتبجلي لهم أسباب الحيرة فيقصدوا الامور من أبوابها ويعتدوا صلاح قواعدها وأسبابها . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين أولهما ما ينتظم به أمور جللتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيان لاصلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ويقدم فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها آثرا لان الانسان دنياه نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد فساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه اخص وحاله امس فصار نظره الى ما يخصه مصروفاً وفكره على ما يمسه موقوفاً واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافةهم فساد لا تتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واحتفلوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول

والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم . قال الحسن مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالغنى والفقير . وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض في الرزق غير أن الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا الا أنها اذا منحت هنتت واودعت واذا استردت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا منحت كدّت وأتعبت واذا استردت استأصلت واجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا يصلح لسائر اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر اهلها لقلّة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شيء انفع من صلاحها كما لا شيء اضر من فسادها لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر اماناتهم فلا شيء احق به نفعا كما أن مابه تضعف دياناتهم وتذهب اماناتهم فلا شيء اجدر به ضررا . وانشدت لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم * قد الحذاء على مثاله

ورجال دهرك مثل دهر * شرك في قلبه وحاله

وكذا اذا فسد الزما * نجرى الفساد على رجاله

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما يصلح الدنيا ثم تلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها . اعلم أن مابه تصلح الدنيا حتى تصير احوالها منتظمة وامورها مثمّة ستة اشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وامل فسح . فاما القاعدة الاولى فهي الدين المتبع فلائه يصرّف النفوس عن شهواتها ويمطف القلوب عن ارادتها حتى يصير قاهرا للسرار زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس في خلواتها نصوصها في ملاتها وهذه الامور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني يتقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء وانما اختلف العلماء رضى الله عنهم في العقل والشرع هل جاء مجيئا واحدا ام سبق العقل ثم تبعه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق احدهما صاحبه . وقالت طائفة اخرى سبق العقل ثم تبعه الشرع لان بكال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى أيجسب الانسان ان يترك سدى وذلك لا يوجد منه الا عند كمال

عقله ثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة تحقيق بالعقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء الادب أدبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة ما ادى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره . وقال سعيد ابن حميد ما صححة أبدا بنافعة حتى يصح الدين والحلق . واما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتألف من رهبة الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة وتمتع من خوفه النفوس العادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوي وراذع ملي . وقد أفصح المتنبى بذلك في قوله لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من سيم النفوس فان تجرد * ذا عفة فلعله لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء اما عقل زاجر أو دين حاجر او سلطان رادع او عجز صادم فاذا تأملت لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان ابلاغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بدواعي الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان اشد زجرا وأقوى ردعا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لله حراسا في السماء وحراسا في الارض حراسه في السماء الملائكة وحراسه في الارض الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الامام الجائر خير من الفتنة وكل لاخير فيه وفي بعض الشر خير . وقال ابو هريرة رضى الله عنه سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى . وقال بعض البلغاء السلطان في نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد في حكمه وان عدل لم يجسر أحد على ظلمه . وقال بعض الادباء ان اقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في احوال الدنيا وما ينتظم به امورها ثم لما في السلطان من حراسة الدين والدنيا والذب عنهما ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد او بنى فيه بعناد او سعى فيه بفساد وهذه امور ان لم تتحسم عن الدين بسلطان قوي

ورعاية وافية اسرع فيه تبديل ذوي الاهواء وتحريف ذوي الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت احكامه وطمست اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية أثر كما ان السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى اهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسدة دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه . قال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بان لا يراد التعبد بها فبان يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الانبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الانبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع من وجوب بعثة الانبياء لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين ان لا تكون هذه الامور مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبياء اليهم فاما اقامة امامين او ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما في بلدان شتى وامصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنان في بلدين او ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة اولى ولا يؤدي ذلك الى ابطال الامامة وذهب الجمهور الى ان اقامة امامين في عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا بويع اميران فاقتلوا احدهما . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا وليتم ابا بكر تجدوه قويا في دين الله عز وجل ضعيفا في بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا في دين الله عز وجل قويا في بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فين بظاهر هذا الكلام ان اقامة جميعهم في عصر واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ولنبه عليه والذي يلزم سلطان الامة من امورها سبعة اشياء احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له والثاني حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو في الدين او باغي نفس او مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف في اخذها واعطائها والخامس معاناة المظلوم والاحكام بالتسوية بين اهلها واعتماد النصفة في فصلها

والسادس إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرض لاطهارها ويتوقعون الدوائر لاعلانها . وقد قال الله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا . وفي قوله تعالى عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان أحدهما أن العذاب الذي هو من فوقهم أمراء السوء والذي من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني أن العذاب الذي هو من فوقهم الرجم والذي من تحت أرجلهم الحسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله تعالى أو يلبسكم شيعا تأويلان أحدهما أنه الأهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني أنه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أمير على عشرة الا وهو يحيي يوم القيامة مغلولة يدها الى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه او يوبقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه واذا كان ذا شر ابغضهم وابغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ان الله تعالى اذا احب عبدا حبه الله الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم ان مالك عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا موضعا لمعنى ما ذكرنا واصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه اوصيك ان تحشى الله في الناس ولا تحشى الناس في الله . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه اني اخاف الله فيما تقلدت فقال له لست اخاف عليك ان تحاف الله وانما اخاف عليك ان لا تحاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مأمون . كالذي روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لأبي مریم السلولي وكان هو الذي قتل اخاه زيدا والله اني لا احبك حتى تحب الارض الدم قال أفيمعني ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما يأسى على الحب النساء . وروى عبد الرحمن ابن محمد قال اصدق طلحة بن عبد الله ام كلثوم بنت ابي بكر مائة الف درهم وهو اول من

اصدق هذا القدر فر بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ما هذا قالوا صدق
ام كلثوم ابنة ابي بكر فقال ادخلوه بيت المال فاخبر بذلك طلحة وقيل له كفه في ذلك فقال ما انا
بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يردّه لكلامي وان كان لا يرى فيه حقا ليردّنه قال فلما اصبح
عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم . وحكى ان الرشيد حبس ابالعاهية فكتب على حائط الحبس

اما والله انّ الظلم شؤم * وما زال المسيء هو الظلوم

الى ديّان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم في المعاد اذا التقينا * غدا عند المليك من الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بشديدا ودعى بابي العاهية فاستحله ووهب له الف دينار واطلقه
واما القاعدة الثالثة فهي عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتتمر به البلاد
وتنمو به الاموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه
وقد نام متبذلا عدلت فامنت فمت وليس شيء اسرع في خراب الارض ولا افسد لضمائر
الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد
حتى يستكمل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بس الزاد الى المعاد العدوان
على العباد . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات
فالعدل في الغضب والرضى وخشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر
واما المهلكات ففتح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه . وحكى ان الاسكندر
قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطائنا الحق
من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل او الشجاعة قالوا اذا استعمل
العدل اغنى عن الشجاعة . وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف .

وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه
ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل
من احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب ان نبدأ بعدل
الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره فاما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها
عن القبائح ثم بالوقوف في احوالها على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز فيها
جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور .
وقد قال بعض الحكماء من توانى في نفسه ضاع واما عدله في غيره فقد يتقسم حال الانسان
مع غيره على ثلاثة اقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان في رعيته

والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون باربعة أشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق في الميسور فان اتباع الميسور أودم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصره وهذه امور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدييره أظهر . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه . وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم . وقال بعض الادباء ليس للجائر جار ولا تعم له دار . وقال بعض البلغاء أقرب الاشياء صرعة الظلوم وانفذ السهام دعوة المظلوم . وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم . وقال ازدشير ابن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغب الرعية عن طاعته . وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم . والقسم الثاني عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة اشياء باخلاص الطاعة وبذل النصره وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل النصره ادفع للوهن وصدق الولاء انفي لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اثناء من يتقى به كما قال البحترى

متى احوجت ذا كرم نخطى * اليك ببعض اخلاق اللثام

وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقال ابرويس اطع من فوقك يطعك من دونك . وقال بعض الحكماء الضم مسلبة النعم والبنى مجلبة النقم . وقال بعض الحكماء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحققه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعه ولزوم الشريعة . والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه ويكون بثلاثة اشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة ألف ومجانبة الادلال اعطف وكف الاذى انصف وهذه امور ان لم تخلص في الاكفاء اسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا . وقد روى عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم بشرار الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من اكل وحده ومنع رفقده وجلد عبده (وفي نسخة بدل هذا من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره) ثم قال الا انبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه . وروى ان عيسى ابن مريم عليهما السلام قام خطيبا في بني اسرائيل فقال يا بني اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فظلموها ولا تمنعوها اهلهما فظلموهم ولا تكافؤوا ظالما فيطيل فضلكم

يا بني اسرائيل الامور ثلاثة امر تين رشده فاتبعوه وامر تين غيه فاجتنبوه وامر اختلقتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل في الاحوال كلها . وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام . وقال بعض الشعراء

ما دمت حيا فدار الناس كلهم * فانما انت في دار المدارة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يري * عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات امور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل . وقد قالت الحكماء الفضائل هيئات بين خلتين ناقصتين وافعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التقم والحين (والعفة) واسطة بين الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والظرف) واسطة بين الخلاعة والعرامة (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين افراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلابة وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين القحة والحدق (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة واذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل فالاولى اجتنابه والوقوف مع الاوسط اقتداءً بالحديث . وقال بعض البلغاء البلد السوء يجمع السفلى ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشى السر ويهتك السر فجعل هذه الاشياء بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى خروجاً عن العدل الى ما ليس بعدل ولست تجد فسادا الا وسبب تيجته الخروج فيه من حال العدل الى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فإذا لا شيء انفع من العدل كما لا شيء اضر مما ليس بعدل . وأما القاعدة الرابعة فهي أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء ويأمن به الضعيف فليس لحائف راحة ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء الامن أنها عيش والعدل أقوى جيش لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن اسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم لان الامن من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل وقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون باسباب حادثة من غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن

المطلق ماعم والخوف قد يتنوع تارة ويم فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه أن يستوجب جميع الاحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فياخيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يصف حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيا والخائف على الشيء محتص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لاخوف له الا اياه فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمرريض الذي هو بمرضه متشاغل وعماسواه غافل ولعل ما صرف عنه اعظم مما ابتلى به على انها تعفو الكلوم وانما * نوكل بالادنى وان جل مايمضى

وحكى أن رجلا قال واعرابي حاضر ماأشد وجع الضرس فقال الاعرابي كل داء اشد داء وكذلك من عمه الامن كمن استولت عليه العافية فهو لايعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لايعرف المعافي قدر النعمة حتى يصاب . وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو تمام الطائي فقال

والحدائت وان أصابك بؤسها * فهو الذي أنباك كيف نعيمها

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عاقبته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا . حكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اى شيء كان خبرك بعدى قال لاتسأل عما فعله بي اخوتي سلمي عما صنعه بي ربي . وقال الشاعر

لاتنس في الصحة أيام السقم * فان عقبي تارك الحزم ندم

وأما القاعده الخامسة فهي خصب دار تتسع النفوس به في الاحوال وتشارك فيه ذو الاكثر والاقلال فيقل في الناس الحسد ويتنفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من اقوى الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري لا تستقضين الا اذا حسب ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لايرغب في مال غيره . وقال بعض السلف اتى وجدت خير الدنيا والاخرة في التقى والغنى وشر الدنيا والاخرة في الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء

ولم ار بعد الدين خيرا من الغنى * ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون اقلال الخيل واعطاؤه واكثر الجواد وسخاؤه كما قال دِعْبَل

لئن كنت لا تولى ندى دون امرأة * فلست بمول نائلا آخر الدهر
 وای انا لم يفض عند ملثمه * وأي بحيل لم ينل ساعة الوفر
 واذا كان الحصب يحدث من اسباب الصلاح ما وصفت كان الجذب يحدث من اسباب الفساد
 ما ضاها وكما ان صلاح الحصب عام فكذلك فساد الجذب عام وما عم به الصلاح ان وجد
 وما عم به الفساد ان فقد فاحرى ان يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة والحصب
 يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من
 خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها واما خصب المواد فقد يتفرع من أسباب الهبة
 وهو من نتائج العدل المقترن بها . واما القاعدة السادسة فهي امل فسج يبعث على اقتناء
 ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل في دركه بحياة اربابه ولولا ان الثاني
 يرتفق بما انشاء الاول حتى يصير به مستغنيا لا فقير اهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من
 منازل السكنى وارضى الحرث وفي ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا يخاف به فلذلك
 ما أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال الا حتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل
 بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما بقاء الاول من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثاني
 من شعبها لتكون احوالها على الاعصار ملثمه وأمورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت
 الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا
 لا يجيد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد بأسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمي بها
 نبت ولا يمكن فيها لبث . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال امل رحمة من الله
 لامتي ولولاه لما غرس غارس شجرا ولا ارضعت ام ولدا . وقال الشاعر
 وللنفوس وان كانت على وجل * من المنية آمال تقويها
 فالمرء يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

واما حال الامل في امر الآخرة فهو من اقوى الاسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها
 وقد أفصح لبيد مع أعرايته بما تبين به حال الامل في الامرين فقال
 واكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزرى بالامل
 غير ان لا تكذبها بالتقى * واجزها بالبر لله الاجيل
 وفرق ما بين الآمال والاماني ان الآمال ما تقيدت بأسباب والاماني ما تجردت عنها فهذه
 القواعد الست التي تصلح بها احوال الدنيا وتنظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها
 وبعيد ان يكون امر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لانها موضوعة على

التعبير والفناء منشأة على التصرم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال فاذا تستوى لانها مقلوبة . وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام أن خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب .

وما أعرف الايام الا ذميمة * ولا الدهر الا وهو للشارطال

وبحسب ما احتل من قواعدها يكون احتلاها

﴿ فصل ﴾ وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء هي قواعد امره ونظام حاله وهي نفس مطيعة الى رشدها متبعية عن غيرها والفة جامعة تعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها . فاما القاعدة الاولى التي هي نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها اخرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها اولى . وقال بعض الحكماء لا ينبغي للعاقل ان يطلب طاعة غيره ونفسه ممتعة عليه . وقد قال الشاعر

أتطمع ان يطيعك قلب سعدي * وتزعم ان قلبك قد عصاك

وطاعة نفسه تكون من وجهين احدهما نصح والثاني اتقياد فاما النصح فهو ان ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى النفي غيا ويستقبحه وهذا يكون ن صدق النفس اذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك قيل من تفكر ابصر فاما الاتقياد فهو ان تسرع الى الرشد اذا امرها وتتهى عن النفي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفت منازعة الشهوات . قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما . وللنفس آداب هي تمام طاعتها وكال مصلحتها وقد افردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضوع على ماقد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب . واما القاعدة الثانية وهي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تحطفته ايدي حاسديه وتحكمت فيه اهواء اعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالالفة على اعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان عسرا وسلمه خطرا . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن آلف مألوف ولاخير فيمن لا يآلف ولا يؤلف وخير الناس انفسهم للناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعصموا بجهل جميعا ولا تفرقوا وان تناهوا من وراء الله امركم ويكره لكم قيل وقال

وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول
من قل ذل . وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بددت * فالوهن والتكشير للتبدد

واذا كانت الالفة بما اثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها وأسباب
الالفة خمسة وهى الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فاما الدين وهو الاول من
أسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابير ويمثل ذلك وصى
رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه . فروى سفيان عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتأطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا
لا يحل لمسلم أن يهجر اخاه فوق ثلاث . وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه
التحذير من تذكر ررات الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
والعرب اشد تقاطعا وتعاديا وأكثر أخلاقا وتماديا حتى ان بنى الاب الواحد يتفرقون احزابا
فتبتر بينهم بالتحزب والافتراق احقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار اشد هم تقاطعا
وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا
فذهبت احنهم وانقطعت عدوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين
اعوانا متناصرين . قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته
اخوانا يعنى اعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام . وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا
الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعنى جبا وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة
فيه اذا اختلف اهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه مشققا هذا ابو عبيدة
ابن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر المشهور في الاسلام قتل اياه يوم بدر واتى
براسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على
ضلاله وانهمك في طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من ابر الابناء تغليا
لدين على النسب وطاعة الله تعالى على طاعة الاب . وفيه انزل الله لا تجدوا قوما يؤمنون بالله
واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم
وقد يختلف اهل الدين على مذاهب شتى واراى مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة
والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقد
الواحد فيه لما كان اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف فيه اقوى اسباب الفرقة واذا تكافأ

أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم أقوى والاحن فيهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسدا لكفاء وتنافس النظراء . واما النسب وهو الثاني من اسباب الالفه فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفه ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الرحم اذا تماسست تعاطفت ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتعت عن سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقها وعادها حتى بلغت بألفة الانساب تناصرها على القوي الأيد وتحكمت به بحكم المتسلط المتشطط . وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو أن لي بكم قوة أو أوي الى ركن شديد يعني عشيرة مانعة . وروي ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد يعني الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث الله تعالى من بعده نبيا الا في ثروة من قومه . وقال وهب لقد وردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد . وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون فيها . قال الرياشي المفرج الذي لا ينتمي الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفه وكف عن الفرقة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهم منهم واذ كان النسب بهذه المنزلة من الالفه فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فإذن قد لزم ان نوصف حال الانساب وما يعرض لها من الاسباب فجمة الانساب انها تنقسم ثلاثة أقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فاما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الولد مجتلة مجتلة محبنة محزنة فاخبر ان الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعيا وحدوثها حتما . وقيل ليحيى ابن زكريا عليهما السلام ما بالك تكره الولد فقال ما لي وللولد ان عاش كدني وان مات هدني وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تزوج فقال انما يحب التكاثر في دار البقاء

وأما ما كان حادثا بالاكتساب فهي المحبة التي تسمى مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات .
 وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد أنوط يعني أن حبه يلتصق بنياط القلب .
 وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمره القلب الولد فان انصرف الولد .
 عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير مع بقاء الحذر
 والاشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن علي رضي الله عنه ان الله تعالى
 رضى الآباء للابناء فحذرهم فبتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للآباء فإوصاهم بهم وان
 شر الابناء من دعاهم التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاهم البرالى الافراط والامهات اكثر
 اشفاقا وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعائين من التربية فانهم أرق قلوبا وألين نفوسا
 وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعالهن وكفاء لحقهن وان كان
 الله تعالى قد أشرك بينهما في البر وجمع بينهما في الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه
 حسنا . وقد روى ان رجلا أتى الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي أما أنا مطيعها أقمدها
 على ظهري ولا اصرف عنها وجهي وأردت اليها كسبي فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة
 واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهي تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها .
 وقال الحسن البصري حق الولد اعظم وبر الوالد أزم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قال انها كم عن عقوق الامهات وواد البنات ومنع وهات . وروى خالد بن معدان عن
 المقدم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم
 بالاقرب فالاقرب . وأما المولودون فهم الاولاد وأولاد الاولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة
 وهم محتصون مع سلامة احوالهم بمخلفين احدهما لازم والآخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة
 للآباء من تهضم او خول والانفة في الابناء في مقابلة الاشفاق في الآباء وقد لحظ أبو تمام
 العطارى هذا المعنى في شعره فقال

فأصبحت يلقاني الزمان لاجله * باعظام مولود واشفاق والد

فاما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال في الابناء في مقابلة المحبة في الآباء لان
 المحبة بالآباء أخص والادلال بالابناء أمس . وقد روى عن عمر انه قال قلت يا رسول الله
 ما بالانرق على اولادنا ولا يرقون علينا قال لاننا ولدناهم ولم يلدونا ثم الادلال في الابناء قد ينتقل
 مع الكبر الى احد أمرين اما البر والاعظام واما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا
 أو كان الأب برا عطوفا صار الادلال برا واعظاما . وقد روى الزهري عن عامر بن شراحيل أن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد ان يمشع له عند الغضب

ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا .
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار أو عدو ضار . وقد قيل في منشور الحكم العقوق ثكل من لم يشكل . وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو . وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والابناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذين يختصون به الحمية الباعثة على النصره وهى ادنى رتبة الالفه لان الالفه تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها في كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الالفه وحمية المناسبين انما تدعو الى النصره على البعداء والاجانب وهى معرضه لحسد الاداني والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرصت بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب الالفه وقد قيل لبعض قريش ايما احب اليك اخوك أو صديقك قال اخي اذا كان صديقا . وقال مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل . وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته وان أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا . وقال الكندي في بعض رسائله الاب رب والولد كمد والاخ فح والعم غم والحال وبال والاقارب عقارب . وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمي وهم يأكلونه * وما داهيات المرء الا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الارحام وأثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هي الرحم التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها . وروى عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتقت لها من اسمي اسمها فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم مناة للعدد مئزاة للمال محبة في الاهل منسأة في الاجل . وقال بعض الحكماء بلوا ارحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق . وقال بعض البلغاء صلوا ارحامكم فانها لا تبلى عليها اصولكم ولا تهضم عليها فروعكم . وقال بعض الادباء من لم يصلح لاهله

لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك . وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله
ورحمه ومن اجار جاره اعانه الله واجاره . وقال محمد بن عبدالله الازدي

وحسبك من ذل وسوء صنعة * مناواة ذى القربى وان قيل قاطع

ولكن اواسيه وانسى ذنوبه * لترجعه يوما اليّ الرواجع

ولا يستوى في الحكم عبدان واصل * وعبد لارحام القرابة قاطع

واما المصاهرة وهي الثالث من اسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا
عن رغبة واختيار وانقدا على خير واينار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المظاهرة . قال
الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة
يعنى بالمودة المحبة وبالرحمة الخنو والشفقة وهما من اوكد اسباب الالفة وفيها تأويل آخر
قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد . وقال تعالى والله جعل لكم
من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة اختلف المفسرون في الحفدة
فقال عبدالله بن مسعود هم اختان الرجل على بناته وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما
هم والد الرجل وولد ولده . وروى عنه انهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم
في الخدمة وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك نسى ونحقد أي نسرع الى العمل
بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا
ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالة بين العشيرتين .
حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية انه قال كان أبغض خلق الله عز وجل اليّ آل الزبير حتى تزوجت
منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل اليّ . وفيها يقول

أحب بنى العوام طرا لاجلها * ومن اجلها احببت اخوالها كلبا

فان تسلمى نسل وان تنصرى * يحط رجال بين اعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة
فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه
المنزلة من الالفة فقد ينبغي لعقدها احد خمسة اوجه وهي المال والجمال والدين والالفة
والتعفف . وقد روى سعيد بن ابى سعيد عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
تسكح المرأة لاربع لماها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان
عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي اليه فالمال اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك
احد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز ان يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره

من الاسباب وعمرى عما سواه من المواد فأخْلِق بالعقد ان يُعْلَل وبالالفة ان تزول لا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد ينقضى سبب الالفة به فقد قيل من ودَّك لشيء تولى مع انقضائه وان اعوذ الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه اعقب ذلك استهانة الأيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودَّك طمعا فيك ابغضك اذا ايس منك . وقال عبد الحميد من عظمك لاكثرارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة في الجمال فذلك ادوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل حسن الصورة اول السعادة . وقد روى عن النبي صلى الى عليه وسلم انه قال اعظم النساء بركة احسنهن وجهها واقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى المال استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة . وقد حكى ان رجلا شاور حكما في التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى انيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا * الا وجدت به آثار منتجع

واما لما يخافه اليب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة . وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم . وراى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال يا صياد احذر ان تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشبهى شم الرياحين فقال رضى الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها ألفة واحدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وأمن زلله . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فاطفر (لعل هذه رواية اخرى فان التى تقدمت فليك) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان احدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثانى انها كلمة تذكر للبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما اشجع قاتله الله وان كان العقد رغبة في الالفة فهذا يكون على احد وجهين اما ان يقصد به المكثرة باجتماع الفريقين والمظاهرة بتناصر الفتيين واما ان يقصد به

تألف اعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكيننا لصولتهم. وهذان الوجهان قد يكونان في الامائل واهل المنازل وداعي الوجه الاول هو الرغبة وداعي الوجه الثاني هو الرهبة وهما سببان في غير المتساكين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا أن ينضم اليها احد الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها وان كان العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبني بعقد النكاح وما سوى ذلك فاسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى انه لما نزل قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه في التراب وخلقت المرأة من الرجل فهمها في الرجل . وروى عطية بن بشر عن عكاف ابن رفاعة الهلالي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا عكاف ألك زوجة قال لا قال فانت اذاً من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان التصاري فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثاً على ترك الفساد وبعثاً على التكاثر بالاولاد . ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا أفضيتهم الى نسائكم فالكيس الكيس يعني في طلب الولد فلزم حينئذ في عقد التعفف تحكم الاختيار فيه والتماس الاذوم من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة فيه فتلاثة شروط احدها الدين المفضى الى السر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف . قال أبو هريرة رضى الله عنه لا يعزل مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقاً رضى منها خلقاً وخطب رجل من عبدالله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا ارضاها لك قال ولم وفي دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا ابالي فقال الان لا ارضاها لك وفي معنى هذا قول بعض العلماء من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثاني العقل الباعث على حسن التقدير الأمر بصواب التدبير فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان ألوف ومألوف . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالودود الودود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع والشرط الثالث الاكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تحيروا لنطفكم ولا تضعوها الا في الاكفاء . وروى ان أكرم بن صيفي قال لولده يا بني لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف . وقال ابو الاسود الدؤلى لبنيه قد احسنت اليكم صغاراً وكباراً وقبل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت الينا قبل ان تولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها

وأشده الرياشي فأول احسانى اليكم تحييري * لمأجدة الاعراق باد عفافها
وقد تنضم الى هذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس ما يلزم التحرز منه لبعده الخير عنه
وقلة الرشد فيه فان كوامن الاخلاق بادية في الصور والاشكال كالذي روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال لزيد بن حارثة أتزوجت يا زيد قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك
ولا تزوج من النساء خمساً قال وما هن يا رسول الله قال لا تزوج شهيرة ولا هبرة ولا نهبرة
ولا هبذرة ولا لفوتا فقال يا رسول الله انى لا أعرف مما قلت شيئاً قال أما الشهيرة فالزرقاء
البنية وأما الهبرة فالطويلة المهزولة وأما النهبرة فالعجوز المديرة وأما الهبذرة فالقصيرة
الدمية وأما اللفوت فذات الولد من غيرك . وقال شيخ من بني سليم لابنه يا بني اياك والرقوب
الغضوب القطوب الرقوب التي تراقبه ان يموت فتأخذ ماله . واوصى بعض الاعراب ابنه
في التزوج فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة فالحنانة التي تحن لزوج كان لها والمنانة
التي تمن على زوجها بما لها والانانة التي تبين كسلا وتمارضا . وقال أوفى بن دهم النساء
أربع فهنّ ممع لها شيئاً أجمع ومنهن ممنع تصر ولا تنفع ومنهنّ مصدع تفرق ولا تجمع
ومنهنّ غيث وقع ببلد فامرغ . وقال الشاعر

أرى صاحب النسوان يحسب أنها * سواء وبون ينهن بعيد

فهن جنات بغيء ظلالها * ومنهنّ نيران هن وقود

وانشد ابو العيناء عن ابي زيد

ان النساء كاشجار نبتن معا * منهن مر وبعض المرما كول

ان النساء ولو صورنّ من ذهب * فيهنّ من هفوات الجهل تحييل

ان النساء متى ينهن عن خلق * فانه واجب لا بد مفعول

وما وعدك من شرّ وفيه به * وما وعدك من خير فمطول

فاما النوع الآخر فانه لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال وينتقل ينتقل
الانسان والازمان فانه لا يستغنى به عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون ادوم لحال
الالفة وأمد لاسباب الوصلة فان الرأي المعلوم لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على
دخله فلا بد ان ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة والسكال واما الى النقصان والزوال .
حكى ان رجلاً قال لعلي كرم الله وجهه انى احبك واحب معاوية فقال رضى الله عنه اما الآن
فانت اعور فاما ان تبرأ واما ان تعمي فاذا كان كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على
هذا النوع فانه لا يخلو من ثلاثة احوال (احدها) ان يكون لطلب الولد والاحمد فيه التماس

الخدائمة والبكارة لانها اخض بالولادة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وأنتق ارحاما وأرضى باليسير ومعنى قوله انتق ارحاما أي أكثر اولادا . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا واكل خنا وهذه الحال هي اولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سواد ولد خير من حسناء عاقرو والعرب تقول من لا يلد لا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال انكاح البعدا الاجانب ويرون ان ذلك انجب للولد وابهى للخلقة ويحبتون انكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اغربوا لا تضوا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال يا بني السائب قد ضويتم فالتكحوا في الغرائب * وقال الشاعر

تجاوزت بنت السم وهي حبيبة * مخافة ان يضوى علي سليلي

وكانت حكما المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقاً من كان سن امه بين العشرين والثلاثين وسن ابيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرة لا ينجب وان انجب النساء الفروك لان الرجل يغلها على الشبه لزهدها في الرجال وقالوا ان الرجل اذا أكره المرأة وهي مذعورة ثم اذكرت انجبت (والحالة الثانية) ان يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مخصصا بمعانة النساء فليس بالأزم حالى الزوجات لانه قد يجوز ان يعانیه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانة وليست بقهرمانه وليس في هذا القصد تأثير في دين ولا قدح في مروءة والاحمد في مثل هذا التماس ذوات الاسنان والخنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) ان يكون المقصود به الاستمتاع وهي اذم الاحوال الثلاث واوهنها للمروءة لانه يتقاد فيه لاخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحارث بن النضر الازدي شر النكاح نكاح الغلظة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة او تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد اجدر وبالثناء احق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبدال الحرار الى الاماء كان أكمل لمروءة وأبلغ في صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن ان يرجح فيها اولى الامور وهي اخطر الاحوال بالمتكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتداء كراهية في الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات وأودتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من ان يتبدطن اللثام بهذه الحال وكان من محبوب

من قتل النبات لرقه ومحبة كان موتهن احب اليه وآثر عنده ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال اني وان سيق الى المهر الف وعبدان وذود عشر احب اصهاري الى القبر .
وقال عبدالله بن طاهر

لكل أبي بنت يراعي شؤونها * ثلاثة اصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيا وخدر يكنها * وقبر يواريا وفضلها القبر

﴿ فصل ﴾ واما المواخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفه لانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحديث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفه ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفهم ويقوي تظافرهم وتناصرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم باخوان الصفاء فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء . وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير في محبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان . وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر في طلب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وقال علي كرم الله وجهه لابنه الحسن يابني الغريب من ليس له حبيب . وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الادباء افضل الذخائر اخ وفي . وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد . وقال بعض الشعراء

هموم رجال في امور كثيرة * وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت * نجسهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك . وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خلا الا ملائته وأنشد الرياشي قول بشار
قد تخللت مسلك الروح مني * وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس قد تكون على وجهين أحدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالا لانها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تفقد لها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو أزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد اما المكتسب بالاتفاق فله اسباب ابتدئ بها ثم تنتقل في غاية احواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب . قال الشاعر

ما هوى الاله سبب * يتدي منه وينشعب

فاول اسباب الإخاء التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوي التجانس قوي الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا مالم يحدث علة اخرى يقوي بها الائتلاف وانما كان ذلك كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع اصل الاخاء وقاعدة الائتلاف . وقد روى يحيى بن سعيد عن عمر عن عائشة رضی الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقدته متاكرة . وقيل في منشور الحكم الاضداد لاتتفق والاشكال لاتفترق . وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل ولبعضهم

فلا تحقر نفسي وانت خليلها * فكل امرئ يصبوا الى من يشاكل

وقال آخر

فقلت اخي قالوا اخ من قرابة * فقلت لهم ان الشكول اقارب

نسبي في رأيي وعزمي وهمتي * وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر . وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتم عذبوا * اولاً فان جناهم مر

كم من رياض لا أنيس بها * تركت لان طريقها وعمر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى ادنى الشكال في احوال الاخاء وما قبلها اسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاوضة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع . وقد قال المأمون رحمه الله تعالى

اول العشق مزاح وولع * ثم يزداد اذا زاد الطمع

كل من يهوى وان عالت به * رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة محدودة لأنها قد تؤدي الى مازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الارواح وان تفارقت اجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندي الصديق انسان هو أنت الا انه غيرك ومثل هذا القول المروى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه حين أقطع طلحة بن عبيدالله أرضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر رضى الله عنه وقال والله ما ادري انت الحليفة ام عمر فقال بل عمر لكنه انا واما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وباعث يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة وفاقه فاما الرغبة فهي ان يظهر من الانسان فضائل تبعث على اخائه ويتوسم بحميل يدعو الى اصطفاائه وهذه الحالة اقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والتكلف للشيء مناف له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في العقل او متدينا به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من كلام الحكماء ليس في الطبع ان يكون ما ليس في الطبع ثم نقول من المتعذر ان تكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانما الاغلب ان يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة أغاب عليه مما كان مطبوعا عليه اذ خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان . وقال ابن الرومي رحمه الله

واعلم بان الناس من طينة * يصدق في الثلب لها الثالب

لولا علاج الناس اخلاقهم * اذا لفاح الحمأ اللابز

وأما الفاقة فهي أن يفقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويشق بنصرته وموالاته . وقد قالت الحكماء من لم يرغب في ثلاث بلى بست من لم يرغب في الاخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب في السلامة بلى بالشدايد والامتهان ومن لم يرغب في المعروف بلى بالندامة والحسران ولعمري ان اخوان الصدق من أنفس الذخائر وافضل التمكيد لانهم سماء النفوس واولياء النوائب . وقد قالت الحكماء رب صديق اود من شقيق وقيل لمعاوية ايما احب اليك قال صديق يحبيني الى الناس . وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا * خير من الرحم القريب الكاشع

وقال آخر يخونك ذو القربي مرارا وربما * وفي لك عند العهد من لا تناسبه
 فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر احوالهم قبل اخاتهم وكشف عن اخلاقهم قبل اصطفاهم
 لما تقدم من قول الحكماء اسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن
 على الاغترار بالتصنع فان الملق مصادم العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجيحة المتصنع
 وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولا اجل ذلك قالت
 الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال خالد
 ابن صفوان انما انفتت على اخواني لاني لم استعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق
 وقال حماد عجرد

كم من اخ لك ليس تنكره * ما دمت في دنياك في يسر
 متصنع لك في مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
 فاذا عدا والدهم ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
 فافرض باجمال مودة من * يقلي المقل ويعشق المثرى
 وعليك من حاله واحدة * في العسر اما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسماء من قارب ومنسوب اليه افاعيل من صاحب . قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه الصاحب
 مناسب . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه مامن شئ ادل على شئ ولا الدخان على النار
 من الصاحب على الصاحب . وقال بعض الحكماء اعرف اخاك باخيه قلبك . وقال بعض
 الادباء يظن بالمرء ما يظن بقريته . وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي
 اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يتحرز من دخلاء السوء ويحجاب اهل الريب ليكون موفورا للعرض
 سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره وهذا قبل التثبت والارتياح ومداومة الاختيار والابتلاء
 متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال
 لم تر ان الماء يخبث طعمه * وان كان لون الماء ابيض صافيا
 ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال اما الليت فحسن واما الساكن فردى
 فأخذ جمحظة هذا المعنى فقال

رب ما اين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب

وأشدد في بعض اهل العلم

لا تركن الى ذي منظر حسن * رب رائقة قد ساء مخبرها

ما كل أصفر دينار لصفرة * صفر العقارب أرداها وانكرها

ثم قد تقدم قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما . وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختيار أفضل من مواخاة على اغترار . وقال بعض

الادباء لاتبق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة . وقال بعض الشعراء

لا تحمدن امرأ حتى تجربه * ولا تدمنه من غير تجرب

فحمدك المرء ما لم تبلاه خطأ * وذمه بعد حمدش تكذيب

وإذا قد لزم من هذين الوجهين سب الاخوان قبل اخائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفاؤهم

فالحصا المعبرة في اخائهم بعد المجانسة التي هي اصل الاتفاق اربع خصال

(فالخصلة الاولى) عقل موفور يهدي الى مرشد الامور فان الحق لا تثبت معه مودة

ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال البذاء لؤم وصحبة

الاحق شؤم . وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الاحق لان الاحق

ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرته فضرته لها حد يقف عليه العقل

ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضرار مما هو غير محدود . وقال المنصور للسيب

ابن زهير ما مادة العقل فقال بحالسة العقلاء . وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوي

الجهل ومن المحال مجادلة ذوي المحال . وقال بعض الادباء من أشار عليك باصطناع جاهل

أو عاجز لم يخجل أن يكون صديقا جاهلا أو عدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع

منك . وقال بعض الشعراء

إذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تتقن بكل أخي اخاء

فان خيرت بينهم فالصق * بأهل العقل منهم والحياء

فان العقل ليس له اذا ما * تفاضلت الفضائل من كفاء

(والخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف

يرجى منه مودة غيره . وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأي

والادب فانه رده لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك .

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

أخلاء الرخاء هم كثير * ولكن في البلاء هم قليل
 فلا يفرك خلة من تواخي * فالك عند نأبة خليل
 وكل أخ يقول أنا وفي * ولكن ليس يفعل مايقول
 سوى جخل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول
 وقال آخر

من لم يكن في الله خلته * نخليله منه على خطر
 (والحصلة الثالثة) ان يكون محمود الاخلاق مرضى الافعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر
 ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعداء وتفسد الاخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة
 وتورث مذمة فان المتبوع تابع صاحبه . وقال عبد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر الناريج
 يحرق بعضها بعضا . وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبهم كركوب
 البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء
 صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار . وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار
 ومن شر الاختيار صحبة الاشرار . وقال بعض الشعراء

مجالسة السفه سفاه رأي * ومن عقل مجالسة الحكيم

فانك والقرين معا سواء * كما قدّ الاديم من الاديم

(والحصلة الرابعة) ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة في مواخاته فان
 ذلك اوكد لحال المواخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل
 مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال
 البحري

وطلبت منك مودة لم أعطها * ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة * فلا خير في ود يكون بشافع

وأقسم ما تركي عتابك عن قلّي * ولكن لعلمي انه غير نافع

واني اذا لم ألزم الصبر طائعا * فلا بد منه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه
 يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احداها عليه يجعل مستملا
 في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وانحاء متشعبة ولكل واحد منهم

حال يختص بها في المشاركة وثمة يسدها في الموازنة والمظاهرة وليس تنفق أحوال جميعهم على حد واحد لان التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن اسماعيل فقال

بنو آدم كالنبت * ونبت الارض ألوان

فمنهم شجر الصند * ل والكافور والبان

ومنهم شجر أفضـ * سل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تنفق أحوال جميعهم رام متعدرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء ليس بلييب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا . وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه احيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه أبدا ولعمري ان الناس على ما وصفهم لا الاخوان منهم وليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المخذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرمهم ومحززا من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعداء عند المكاشفة والمهاجرة . قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالخنظة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل في مثور الحكم لا تغترن بمقاربة العدو فانه كالماء وان أطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها . وقال يزيد بن الحكم الثقفي

تكاشرني ضحكا كانك ناصح * وعينك تبدي أن صدرك لى دوى

لسانك معسول ونفسك علقم * وشرك مبسوط وخيرك ملتوي

فليت كفافا كان خيرك كله * وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران اللذان من كان منهم كالغذاء وكالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل منهم حيث نزلت به احواله اليه واستقرت خصاله وخلالله عليه فمن قويت اسبابه قويت الثقة به وبجسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه . وقال الشاعر

ما انت بالسبب الضعيف وانما * نجح الامور بقوة الاسباب

فاليوم حاجتنا اليك وانما * يدعي الطيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحميا وتوددا وأكثر تعاوناً وتفقداً . وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان . وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لانه أخف أثقالاً وكلفاً وأقل تنازعا وخلفاً . وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوفر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر . وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غمهاؤه . وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليهما متاع وكثيرها بوار . ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه * يكون من الطعام او الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللبج الملاح بمرويات * وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن عرضك في اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من ألف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحب قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقل من اضداده من ذوي الحق والنقص لان الخيار في كل شيء هو الاقل فإذ كان قل وفور العقل والفضل . وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون فقل بهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال في ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله * فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس آلفون لشكلهم * فاكثرهم عقلا اقلهم شكلا
لان كثير العقل لست بواجد * له في طريق حين يسلكه مثلاً
وكل سفيه طائش ان فقدته * وجدت له في كل ناحية عدلاً

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم احوال من دخل في عدد الاخوان اربعة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ماله

فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور في معونته
ومعذور في استعانته فهذا اعدل الاخوان وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك
قد منع خيره وقع شره فهو لاصديق يرحى ولا عدو يخشى . وقد قال المعيرة بن شعبة
رضي الله عنه التارك للاخوان متروك واذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروكك حسنها
ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم اجدر .
وقد قال الشاعر

واسوأ ايام الفتى يوم لا يرى * له احد يزري عليه وينكر
غير ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال
المتنبي

انا لفي زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس احسان واجمال
واما من يستعين ولا يعين فهو لثيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة
فلا خيره يرحى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستقل عند اقلاله ويستقل عند
استقلاله فليس مثله في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان
لا من دوائهم ومن سمعهم لا من غذاهم . وقال بعض الحكماء شرما في الكريم أن يمنعك خيره
وخير ما في اللثيم ان يكف عنك شره . وقال ابن الرومي

عذرنا النخل في ابداءشوك * يرد به الامل عن جناه

فما للعوسج الملعون ابدى * لنا شوكا بلا ثمر نراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء
فلا يرى تقبلا في نأبة ولا يقعد عن نهضة في معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا واكرمهم
طبعاً فينبغي لمن اوجد له الزمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم
ان يثنى عليه خنصره وبعض عليه ناجذه ويكون به اشد ضنا منه بنفائس امواله وسني
ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان اعم نفعاً فهو بالادخار احق .
وقال الفرزدق

يمضى اخوك فلا تلقى له خلفا * والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر

لكل شيء عدته عوض * وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين ينكرها منه اذا رضى سائر اخلاقه ووجد أكثر شيء

لان اليسير مغفور والكمال معوز . وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع مع أن نفس الانسان التي هي أخس النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لاتعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تهيئه الى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قال ابو الدرداء رضي الله عنه معاتبه الاخ خير من فقدته ومن لك باخيك كله فاخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أخي من لك من بنى الدنيا بكل أخيك من لك
فاستبق بعضك لا يملكك كل من أعطيتكك

وقال أبو تمام الطائي ماغبن المغبون مثل عقله * من لك يوماباخيك كله
وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف . وقال بعض البلغاء لا يزهديك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب يحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذباً لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر نفسك بعد أن لاتراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب . وقد قال الشاعر
ومن ذا الذي ترضى سجاياها كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه
وقال النابغة الذبياني

ولست بمستبق أحاً لاتلته * على شعث أي الرجال المهذب

وليس يتقص هذا القول ما وصفنا من اختياره واختبار الخصال الاربع فيه لان ما أعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغي أن توحشك فترة تجدها منه ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه مالم تحقق تغيره وتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها . وقد قيل في منشور الحكم لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر بن محمد لابنه يابني من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سواً فاتخذة لنفسك خلا . وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة أخذعفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان . وقد روى عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى فاصفح الصفيح الجميل قال الرضا بغير عتاب . وقال ابن الرومي

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى * يلم بعين او يكدر مشرباً ومن
ومن قلة الانصاف أنك تبني السم مهذب في الدنيا ولست المهذباً

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الايام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه * على علاته داني النزوع
معاذ الله أن نلقى غضابا * سوى دل المطالع على المطيع

وأشدني الأزدي

لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينبو الفقى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه * حتى تفى به وطبعك أكرم
وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى على
حالة ولا يخلو من استحالة . وقد قال ابن الرومي

إذا أنت عاتبت الملول فأنما * نخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعاً فصارت تكلفا
وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا اسلم للملئين
واقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء
وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما * عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى ان يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه
لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمة بالظنون . وقال الشاعر
اذا ما حال عهد اخيك يوما * وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه * فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا * فلا تبعد عن الخلق الكريم
ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يرجع اخاء ولا وداً ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال
اشجع بن عمرو السلي

أني رأيت لها مواصلة * كالم نفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد
وهذا اذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس
الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن التاركة بعد الورطة كما قال العباس
ابن الاخنف

تداركت نفسى فعزيزتها * وبفضتها فيك آملها

وما طابت النفس عن سلوة * ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن حرمة

فانك واطراحك وصل سلى * لاحرى في مودتها نكوب

كشاقبة حللى مستعار * لاذنيها فشانهما الثقوب

فأدت حللى جارتها اليها * وقد بقيت باذنيها ندوب

واذا وصفت له أخلاق من سبره وتمهدت لديه أحوال من خبره وأقدم على اصطفاؤه أخوا
وعلى اتخاذ خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرمانه . وقال عمر بن مسعدة العبودية
عبودية الاخاء لا عبودية الرق . وقال بعض الحكماء من جادلك بمودته فقد جعلك عديل
نفسه فأول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانسياط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر
والعلانية ثم تخفيف الاتصال عنه ثم معاونتته فيما ينوبه من حادثة او يناله من نكبة فان
مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
خير أصحابك المعين لك على دهرك وشركهم من سعى لك بسوق (كذا في الاصل) يومه وقيل
يارسول الله اى الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت
ذكرك . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه من كافاك
وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول اللهم انى اعوذ بك بمن لا يلتئم خالص مودتى الا بموافقة
شهوأتى وبمن ساعدنى على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدى . وقال بعض البلغاء
عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة . وقال بعض البلغاء ماودك من أهمل ودك ولا احبك
من ابغض جبك . وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوى بنا ملاطف * ولكننا الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر
الزمان أدبر عنك فاخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شر الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا

اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عبا

ان العدو وان ابدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغى ان يتوقى الافراط في محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان تكون الحال بينهما نامية
أولى من ان تكون متناهية . وقد روى ابن سيرين عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أحب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا ابغضك تلفا . وقال ابو الاسود الدؤلى

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى * فانك راء ما علمت وسامع
وأحب اذا أحببت حبا مقاربا * فانك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض اذا أبغضت غير مباين * فانك لا تدري متى انت راجع
وقال عدى بن زيد

لاتأمنن من مبغض قرب داره * ولا من محب ان يمل فيبعدا
وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق فليس
في ذلك افراط وان تناهي ولا مجاوزة حد وان أكثر واوفى فتستوى حالتها في الغيب
والمشهد ولان يكون مغيبهما افضل عن مشدها اولى فان فضل المشهد على المغيب لؤوم
وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤها حفاظ . وقال بعض الشعراء

على لاخوانى رقيب من الصفا * تبيد الليالي وهو ليس بيد
يذكرنيهم في مغيبى ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهيد
وانى لا أستحي أخى ان ابرّه * قريبا وان اجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثرفان تقليل الزيارة داعية المهجران
وكثرتها سبب الملل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابي هريرة رضى الله عنه يا ابا هريرة
زرعبا تزدد حبا . وقال ليد

توقف عن زيارة كل يوم * اذا اكثرت ملك من تزور

وقال آخر

اقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه * لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره * بمكانه مثاقلا بمكانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه * رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة
الاكترات باصر الصديق وقد قيل علة المعادة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح
بالمشاركة ويستصلح بالمعاتبه فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق

ومهما وجد . وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهنون عليهم سخطك وقال منصور النمرى

اقلل عتاب من استربت بودّه * ليست تنال مودة

وقال بشار بن برد

اذا كنت في كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

فغش واحدا اوصل اخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان ان تغفر هفوتهم وتستتر زلتهم لان من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقتراح وصفا معجزا . وقد قالت الحكماء اى عالم لا يهفو واى صارم لا ينبو واى جواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يأمن زلته وبدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لحالد بن صفوان اى اخوانك أحب اليك فال مل غفر زللى وقطع علىى وبلغنى املى . وقال بعض الشعراء ما كدت اخص عن اخي ثقة * الاندمت عواقب الفحص

وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

احب من الاخوان كل مواتى * وكل غضيض الطرف عن عتراتى

يوافقنى في كل امر اريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى

فمن لى بهذاليت انى اصبته * فقاسمته مالى من الحسنات

تصفحت اخوانى وكان اقلهم * على كثرة الاخوان اهل ثقاتى

وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك فى ادباره متعلقا

اذا انت لم تترك اخاك وزلة * اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعى عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوي الاخوان يدم لك ودهم . ووصى بعض الادباء اخاله فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللحل واصلا وان لم تجد مواصلا

وقال رجل من اباد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة * فلست غدا عن عترتى متجاوزا

وكيف يرحيك البعيد لنفمه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا

ظلمت اخا كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال ابو مسعود كاتب الرضى كنا في مجلس الرضى فشكى رجل من اخيه فانشد الرضى
اعذر اخاك على ذنوبه * واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفيد * وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا * وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بان الحلم عن الغيظ احسن من ركوبه

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وكان
أجود قريش في زمانه ما رأيت قوما الأم من اخوانك قال له ولم ذلك قالت أراهم اذا
ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا في حال القوة بنا عليهم
ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح
فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوي
الفضل ان يتأولوا الهفوات من اخوانهم . وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكن انت محتالا لزلته عذرا

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى * ولا مانع خيراً ولا قائل هجراً

والداعي الى هذا التأويل شيان التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء .
وقال بعض الحكماء وجدت اكثر امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل . وقال اكتم بن صيفي
من شدد نفر ومن تراخى تألف والشرف في التغافل . وقال شيب بن شيبه الاريب العاقل
هو الفطن المتغافل . وقال الطائي

ليس الغبي بسيد في قومه * لكن سيد قومه المتغابي

وقال ابوا العتاهية

ان في صحة الاخاء من النا * س وفي خلة الوفاء لقله

قالبس الناس ما استطعت على النة * من والا لم تستقم لك خله

عش وحيداً ان كنت لا تقبل العذ * ر وان كنت لا تجاوز زله

من أب واحد وأم خلقنا * غير أنا في المال اولاد عله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الاعداء بما يشبههم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد
يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط
السودد فانه ما احد يعدم عدوا ولا يفقد حاسداً وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة

كما قال البحتري

ولن تستين الدهر موقع نعمة * اذا انت لم تدل عليها بحاسد
فان أغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليمهم وبادرة
سفيهم ما يصير به النعمة غراما والزعامة ملاما . وروى ابن المسيب عن ابي هريرة رضى الله عنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس .
وقال سليمان بن دواد عليهما السلام لابنه لا تستكثر ان يكون لك الف صديق فالالف قليل
ولا تستقل ان يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال
فكثر من الاخوان ما استطعت انهم * بطون اذا استجدهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا للكثير
وقيل لعبد الملك بن مروان ما أفدت في ملكك هذا قال مؤدة الرجال . وقال بعض الحكماء
من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده
ومن استفسد صديقه نقص من عدده . وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا
ما يضره من عدواته ويصطنع عاجزا جاهلا ما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح
من يعاديه بحسن صنائعه وايديه وانشد عبد الله بن الزبير ثلاثة ابيات جامعة لكل ما قالته
العرب وهي للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم ار غير ختال وقال
وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب أشد هولاً * وأصعب من معاداة الرجال
وقال القاضي التوخي

ألق العدو بوجه لا قطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأحزم الناس من يلقي اعاديه * في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق بمن وخير القول اصدقه * وكثرة المزح مفتاح العدوات
وانشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

لما عفوت ولم احقد على احد * ارحت نفسى من هم العدوات
انى احببى عدوى عند رؤيته * لادفع الشر عنى بالحيات
واظهر البشر للانسان ابفضه * كأنما قد حشى قلبى محبات
الناس داء دواء الناس قريهم * وفي اعترالهم قطع المودات

وليس وان كان بتألف الاعداء مأمورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي أن يكون لهم راعنا وبهم
 واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على محرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع
 صارت طبعا لا يستحيل وجب له لا تزول وانما يستكفي بالتألف اظهارها ويستدفع به اضرارها
 كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوه
 لا يتغير . وقال الشاعر

واذا عجزت عن العدو فداره * وامزح له ان المزاح وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها * تعطى النضاج وطبعها الاحراق

﴿ فصل ﴾ وأما البر وهو الخامس من اسباب الالفة فلا أنه يوصل الى القلوب الطافا
 ويشيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا على
 البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى
 ورضا الناس فقد تمت سعاده وعمت نعمته . وروى الاعمش عن خثيمة عن ابن مسعود قال
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من
 أساء اليها . وحكى أن الله تعالى اوحى الى داود علي نبينا وعليه السلام ذكر عبادي احساني
 اليهم ليحبوني فانهم لا يحبون الا من احسن اليهم . وأنشدني ابو الحسن الهاشمي

الناس كلهم عيا * ل الله تحت ظلاله فاحبهم طرا اليه * ه أبرهم لعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحموده لغير عوض
 مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحاها وابطاؤها قال الله تعالى
 ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . وروى محمد بن ابراهيم التيمي عن عمرو بن الزبير عن
 النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السخي قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من
 الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب
 من النار . وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه
 وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير أمساك فحذب عمامة اليه وقال يازبير ان رسول الله اليك
 والى غيرك يقول انفق انفق عليك ولا توك فأوك عليك . وروى ابو الدرداء قال قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمس الا وملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا
 وممسكا تلفا وانزل في ذلك القرآن فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى
 واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعمى . قال ابن عباس رضي الله عنهما
 يعني من اعطى فيما امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطائه فعند هذا

قال ابن عباس رضي الله عنهما لسادات الناس في الدنيا الاسخياء وفي الآخرة الاتقياء .
وقيل في منشور الحكم الجود عن موجود وقيل في المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود .
وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض . وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن اضعف
ازداد . وقال بعض الفصحاء جود الرجل يجيبه الى اضداده ويخله يبغضه الى اولاده .
وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح
ابن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه

تفط بأثواب السخاء فانسي * أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

وحدّ السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدير ذلك
مستصعب ولعل بعض من يجب ان ينسب الى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية
فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بحدود الفضائل
ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضعا ولالتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بدمهما
وجاءت السنة بالنهي عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمى كريما وكان
للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا . وقد قال الله تعالى
ولا تحسبن الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرهم سيطوقون ما يخلو به
يوم القيامة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وسمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لمن الله الشحيح ولعن الظالم .
وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة . وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل .
وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء

اذا كنت جماعا لمالك ممسكا * فانت عليه خازن وامين

تؤذيه مذموما الى غير حامد * فيا كفه عفوا وانت دفين

وتظاهر بعض ذوى التباهة بحب التناء مع امسك فيه فقال بعض الشعراء

اراك تؤمل حسن التناء * ولم يرزق الله ذاك البخيلا

وكيف يسود اخو بطنة * يمن كثيرا ويعطى قليلا

وقد بينا حب التناء وحب المال لان التناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا
كان حب التناء كاذبا . وقد قال بعض الشعراء

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك واخلق الممالك
أردت شكرا بلا بر ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوكة
ظننت عرضك لم يقرع بقارعه * وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به * فاسبقت الى شيء سوى التوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة اربعة اخلاق
ناهيك بها ذما وهي الحرص والشرة وسوء الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة
الكدح والاسراف في الطلب واما الشرة فهو استتال الكفاية والاستكثار لغير حاجة
وهذا فرق ما بين الحرص والشرة . وقد روى العلاء بن جرير عن ابيه عن سالم بن مسروق قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يقنيه .
وقال بعض الحكماء الشرة من غرائز اللؤم واما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل
فان كان الخالق كان شكا يؤول الى ضلال وان كان بالخلوق كان استخانة يصير بها محتانا
وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه في غيره
وان رأى فيها سوا اعتقده في الناس . وقد قيل في المثل كل اناء يتضح بما فيه فان قيل قد تقدم
من قول الحكماء ان الحزم سوء الظن قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم
وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها
فلا تدع لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة
والشيم اللثيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال للانصار من سيدكم قالوا الحر بن قيس على بخل فيه فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء
ادوا من البخل قالوا وكيف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان قومنازلوا بساحل
البحر فكروا لجنهم نزول الاضياف بهم فقالوا لبيد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال
الى الاضياف ببيد النساء وتعتذر النساء ببيد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال
بالرجال والنساء بالنساء وأما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر
وهو بالذم جدير . وقد قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال ما عال من اقتصد . وقد قال المؤمن رحمه الله لا خير في السرف
ولاسرف في الخير . وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه . وقال بعض
البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم أن السرف والتبذير قد فترق معناها
فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم

وذا التبذير أعظم لان المسرف يخطئ في الزيادة والمبذر يخطئ في الجهل ومن جهل
مواقع الحقوق ومقاديرها جماله واخطاها فهو كمن جهلها بفعاله فتعديها وكما انه بتبذيره
قد يضيع الشيء في غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لان المال أقل من ان يوضع في كل
موضع من حق وغير حق . وقد قال معاوية رضى الله عنه كل سرف فبازائه حق مضع .
وقال بعض الحكماء الخطأ في اعطاء مالا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد . وقال سفيان الثوري
رضي الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما
يبدغيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل . وقد حكى أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم الخليل
على نبينا وعليه السلام أتدري لما اتخذتك خليلا قال لا يارب قال لاني رأيتك تحب ان تعطى
ولا تحب ان تأخذ . وروى سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه قال أتى رجل الى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله مررتي بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال ازهد
في الدنيا بحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . وقال ايوب السخيتاني لا ينبل
الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز عنهم . وقيل لسفيان
ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يابني استقل الكثير مما
تعطي واستكثر القليل مما تأخذ فان قرّة عيون الكرام في الاعطاء وسرور اللثام في الاخذ
ولا تمد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب . وقال
بعض الحكماء السخاء سخاآن اشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك . وقال بعض البلغاء السخاء
ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا . وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد
والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين أحدهما ما ابتداء به الانسان من غير سؤال والثاني ما كان عن طلب
وسؤال فاما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء و اشرفهما عطاء . وسئل علي كرم الله وجهه عن
السخاء فقال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسألة فخياء . وقال بعض الحكماء أجل
النوال ما وصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء

وفتي خلا من ماله * ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله * وكفالك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة اسباب

فالسبب الاول أن يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين
الا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر ان تدين وفي الشكر ان تكرم .
وقال أبو العتاهية

ما للناس الا آله معتمله * للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثاني أن يرى في ماله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة عن كفايته فيرى انهاز الفرصة
بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معددا وغنا مستجيدا . وقد قال الحسن البصري رحمه الله
مأنصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من اعظم الناس في عينك
قالت من كان لي اليه حاجة . وقال الشاعر

وما ضاع مال وورث الحمد أهله * ولكن أموال البخيل تضيع

والسبب الثالث أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفظته واثارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه
الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف . وقد حكى أن رجلا سائر بعض الولاة فقال مأهزل
برذونك فقال يده مع ايدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ ما يبلغه صريح السؤال
ولذلك قال أكرم بن صيفي السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل . وحكى أن عبيد الله بن
سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبي دهرنا اسعافنا في نفوسنا * وأسعفنا فمين نحب ونكرم

فقلت لها نعماك فيهم أتمها * ودع امرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ما أحسن ماشكا امره بين اسعاف مدحه وقضى حاجته . وقال بعض الشعراء
ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها * رأى طلب المستجدين ثقيلًا

والسبب الرابع أن يكون ذلك رعاية ليد او جزاء على صنعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا اما
أنفة واما شكرا ليكون من اسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا .
قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق . وقال ابو العتاهية رحمه الله تعالى

وليست ايادي الناس عندي غنيمة * ورب يد عندي اشد من الاسر

والسبب الخامس أن يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرئاسة هو لها محب
وعلى طلبها مكب . وقد قال الشاعر

حب الرئاسة داء لادواء له * وقل ماتجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبة والاسعاف .
وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان . وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله .

وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا عناء * وكيف يسود ذو الذعة البخيل
والسبب السادس أن يدفع به سطوة اعدائه ويستكف به تقار خصائمه ليصيروا له بعد
الخصومة أعوانا وبعد العداوة اخوانا اما لصيانة عرض واما لحراسة مجد . وقد قال
ابو تمام الطائي

ولم يجمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد في كفا امرئ والدرهم
ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم في الاقوام وهي مغام

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه اتظمه مرافقه
والسبب السابع أن يرب به سالف صنعة أولاهها ويراعي به قديم نعمة أسداها كيلا ينسي
مأولاه او يضاع مأسداه فان مقطوع البرضائع ومهملة الاحسان ضال . وقد قال الشاعر
وسمى امراً بالبر ثم اطرحته * ومن أفضل الاشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الاصبهاني

بدأت بنعمي اوجبت لي حرمة * عليك فعد بالفضل فالعود أحمد
والسبب الثامن المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يرضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه
بمطلوب للذة التي هي عنده احظى الى نفسه أشهى لان النفس الى محبوبها أشوق والى
مايليه أسبق . وقد قال الشاعر

فما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى * الى حيث يهوي القلب تهوي به الرجل
وهذا وان دخل في اقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه
الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت اقسام العطاء

والسبب التاسع وليس بسبب أن يفعل ذلك لغير ما سبب وانما هي سجية قد فطر عليها وشية
قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار
ليس يعطيك للرجاء ولا له * خوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد او خارجا عنه فيذم وقال
قوم هذا هو السخى طبعاً والجواد كرماً وهو احق من كان به ممدوحاً واليه منسوبا .
وقال ابو تمام

من غير ما سبب يذني كفى سبياً * للحر أن يجتدي حراً بلا سبب
وقال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا مستحقاً فكأنني أعطيت غريباً وقال الشرف في السرف

فقيل له لا خير في السرف فقال ولا سرف في الخير . وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو
من فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار

وما الناس الا صاحبك فمنهم * سخي ومغلول اليدين من البخل

فساح يدا ما امكنك فانها * تقل وتثرى والعواذل في شغل

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان
لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى
غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الblem يمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير
المستحق وحسبك ذما بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى
ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فهي عن
بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين ذما وعلى اتفاهما لوما .
وقال الشاعر وكان المال يأتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول
فما ان تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى اما الممنوع
فلا نه قد فضل عليه من سواء واما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا
فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط التكرار وليس فيما أفضى الى واحد منهما خير يرجى
وهو جدير ان يكون شرا يتيق ولئلا هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع
ارضي منه خسران ميين فاما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال فشرطه معتبرة من وجهين
احدهما في السائل والثاني في المسؤل فاما ما كان معتبرا في السائل فثلاثة شروط

الشرط الاول ان يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج
وسقط عنه اللوم . وقد قال بعض الحكماء الضرورة توجب الصورة . وقال بعض الشعراء

ألا قبح الله الضرورة انها * تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق

ولله در الاتساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميث اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا رأي للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون وان جاز ان لا يكون
فالنفس المساحة تغلب الحاجة وتسمح في الطلب وتراعى ما استقام به الامر وان ناله ذل
ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول البحترى

وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعى الزهامة وتحمّل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر
وقد يكتسى المرء خز الثياب * ومن دونها حالة مضنيه
كما يكتسى خده حمرة * وعلته ورم في الريه
فلا يرى ان يتدنس بمطالب الشؤم ومطامع اللؤم فان البهائم الوحشية تأتي ذلك وتأنف منه
قال الشاعر

وليس الليث من جوع بفساد * على جيف تظيف بها الكلاب
فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا هل يحسن به ان يرى
لوحش البهائم عليه فضلا . وقد قال الشاعر
على كل حال يأكل المرء زاده * على البؤس والضراء والحدنان
والفضل في مثل ما قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك أعطاك فقال والله ما سألت الدنيا من يملكها
فكيف بمن لا يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال
اذا افتقروا أغضوا على الضر حسبة * وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر
فاما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلنا
تجد مثله ملحوظا أو مموّلا ملحوظا لان الحرمان قاده الى أضيق الارزاق واللؤم ساقه الى
أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا أراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل
لابي تمام الطائي

أنت بين أمتين تبرز للناس * س وكلتاها بوجه مذل
لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب أو طالبا لنوال
أي ماء لحر وجهك يبقى * بين ذل الهوى وذل السؤال
ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكتسبا بمونه ولقدر على ما يصونه .
وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذل * فليأتينك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذك الذي * لك في الكتاب مقدّم مسطور
والشرط الثاني من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه
فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة ولا في التبادي مهلة فيصير من المعذورين وداخلا في عداد
المضطرين فاما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط .

وقل الشاعر

أبي لي اغضاء الجفون على القذى * يقيني أن لا عسر إلا مفرج
 ألا ربما ضاق القضاء باهله * وأمكن من بين الاسنة مخرج
 والشرط الثالث اختيار المسؤل أن يكون مرجو الاجابة مأمول النجح اما حرمة السائل
 او كرم المسؤل فان سأل لثما لا يرعى حرمة ولا يولي مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله
 محروم . وقد قال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى اللثام حاجة . وقد قال بعض البلغاء
 أذل من اللثيم سائله واقل من البخيل نائله . وقال بعض الشعراء
 من كان يأمل أن يرى * من ساقط نيلا سنيا
 فلقد رجي أن يجتني * من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتبرة في المسؤل فتلاثة

الشرط الاول أن يكتبني بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل
 الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف . وقد قال الشاعر

أقول وستر الدجى مسبل * كما قال حين شكى الضفدع
 كلامي ان قلته ضائع * وفي الصمت حتى فاصنع
 وربما فهم المسؤل الاشارة فالجأ الى التصريح بالعبارة تمجينا للسائل فينجل ويستحي
 فكيف كما قال ابو تمام

من كان مفقود الحياء فوجهه * من غير بواب له بواب
 والشرط الثاني ان يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان
 أعطى ومعذورا ان منع . وقد قال بعض الحكماء القى صاحب الحاجة بالبشر فان عدت
 شكره لم تعدم عذره . وقال ابن لثكك ان ابا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة فلم
 يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلك ضجرة من سائل * فلخير دهرك ان ترى مسؤلا
 لا يجيبن بالرد وجه مؤمل * فبقاء عزك ان ترى مأمولا
 تلقى الكريم فستدل ببشره * وترى العبوس على اللثيم دليلا
 واعلم بانك عن قليل صائر * خبرا فكن خبرا يروق جيلا
 والشرط الثالث تصديق الامل وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانها لا تخلو من
 اربع احوال فالحال الاولى أن يكون السائل مستوحيا والمسؤل متمكنا فالاجابة ههنا

تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم
فيكون كما قال عبد الرحمن بن حسان

اني رأيت من المكارم حسبكم * أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا

فاذا تذوكرت المكارم مرة * في مجلس أنتم به ففقنوا

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا في صنيع مشكور وبرّ مذخور
وقد قيل لبخيل لم حبست مالك قال للتوائب فقيل له قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذي * قدمت فابذل طائعا مالكا

تقول أعمالي ولو فتشوا * رأيت أعمالك أعمى لكا

وقد أسقط حق نفسه ورفع اسباب شكره فصار بان لاحق له مذموما كمشكور ومأثوما
كأجور . وقال ابو العتاهية

خزن البخيل عليّ صالحه * اذ لم يتقل بره ظهري

ما فاتني خير امرئ وضعت * عني يداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التأخير مضرا عجل بذله وقطع مطله
وكانت اجابته فعلا وقوله عملا . وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه أن لا يبلي الى
الحاح عليه . وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا * وأشرف من عطاياها السؤال

اذا لم يأتك المعروف طوما * فدعه فالتززه عنه مال

وان كان في الوقت مهلة وفي التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب
بعضهم الى أن الاولى تعجيل الوعد قولاً ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل
الوعد ثم بأجل الانجاز ويكون المسؤل موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال العدة عطية . وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أعذك
اليوم واحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وأترين بثوب الوفاء ووعد يحيى بن خالد
رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وانت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر
صاحبه نجحه لم يجد سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد
ريحه ويطعمه فدع الحاجة تحتمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه . وقال بعض
البلغاء اذا أحسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمره الاحسان ولا تقل
مالا تفعل فانك لا تحلوه في ذلك من ذنب تكسبه او عجز تتزمه ومنهم من ذهب الى أن تعجيل

البذل فعلا من غير وعد اولى وثقديه من غير توقيت ولا انتظار أخرى وأتما يقدم الوعد احد رجلين اما معوز ينتظر وجده واما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأي يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقدم أمره شرقا وغربا

أمن بختم صيغتي * ما دام هذا الطين رطبا

واعلم بان جفافه * مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولان في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار وفي العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن شكره . وقال الشاعر

ان الحوائج ربما ازرى بها * عند الذي تقضى له تطويلها

فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة * فاعلم بان تمامها تحجيلها

والحال الثانية ان يكون السائل غير مستوجب والمسؤل غير متمكن ففي الرد فسخة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذر ايدفع عند اللوم فليس كل مقل يعرف

ولا معذور ينصف . وقد قال ابو العتاهية يصف الناس

يارب ان الناس لا ينصفوني * فكيف وان انصفهم ظلمي

فان كان لي شيء تصدوا لآخذه * وان جئت ابني شيأهم منعوني

وان نالهم بذلي فلا شكر عندهم * وان أنا لم أبذل لهم شتموني

وان طرقتني نكبة فكهوا بها * وان صحبتني نعمة حسدوني

سامع قلبي ان يحن اليهم * واعمض عنهم ناظري وجفوني

واقطع أيامي بيوم سهولة * أقضى بها عمري ويوم حزون

ألا ان أصفى العيش ما طاب غبه * وما نلت في لذة وسكون

والحال الثالثة ان يكون السائل مستوجبا والمسؤل غير متمكن فيأتي بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسد به خلة او يدفع به مذمة او يوضح من اعذار المعوزين وتوقع المتألمين

ما يجعله في المنع معذورا وبالتوجه مشكورا . وقد قال ابو النصر العتيبي رحمه الله تعالى

الله يعلم اني لست ذا بخل * ولست ملتصبا في البخل لي عللا

لكن طاقة مثلي غير خافية * والنمل يعذر في القدر الذي حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنعة وزوال العادة حتى صار اضني
جسدا وازيد كمدا كما قال الشاعر

وكنت كباذ السوء قص جناحه * يرى حشرات كلما طار طائر

يرى طائرات الجبوت تخفق حوله * فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحال الرابعة أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر
فان خاف بالرد قدح عرض او قبح هجاء ممض كان البذل مندوبا صيانة لاجودا . فقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماوتي به المرء عرضه فهو له صدقة وان أمن من ذلك وسلم منه
فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لثلا يقابل الرجاء بالحية والامل بالاياس ثم لما فيه
من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضي الى الشح وأنشد الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لاء * محرمة عليك فلا تحل

فما تدري اذا أعطيت مالا * أيكتر من سهاك ام يقل

اذا حضر الشتاء فانت شمس * وان حضر الصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء في غير
حق ليقوي على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمته وتعينت . وقد قال بعض الشعراء

لا نجد العطاء في غير حق * ليس في منع غير ذي الحق بخل

انما الجود ان تجود على من * هو للجود والندى منك اهل

فاما من أجب السؤل ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد
مقرونا فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الرد يستوجب
مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر ومحنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما في المطل
من تكدير الصنيع وتحقيق الشكر والعرب تقول في امثالها المطل احد المنعين واليأس
احد النجحين . وقال بشار بن برد

أطلت علينا منك يوما غمامة * أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشها

فلا غيما يجلي فيأس طامع * ولا غيها يأتي فيروي عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى عهده لم يتبع نفسه ما اعطى ويسر ان كانت يده العليا فتد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى . وقال الشاعر

فانك لا تدري اذا جاء سائل * أنت بما تعطيه أم هو أسعد

عسى سائل ذو حاجة ان منعه * من اليوم سؤل ان يكون له غد

ولكن من سروره اذ كانت الارزاق مقدره أن تكون على يده جارية ومن جهته واصلة
لا تنتقل عنه بمنع ولا تحول عنه باياس . وحكى أن رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد
فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوله الى منزلي . وقال ابن سيرين لرجل
كان يأتيه على دابة ففقد الدابة ما فعل برزونك قال اشتدت على مؤنته فبعته قال أفتراه
خلف رزقه عندك . وقال ابن الرومي رحمه الله

ان لله غير ضرعك مرعى * ترتع به وغير مائك ماء

ان لله بالبرية لطفاً * سبق الامهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى واكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذي حكاه ابو بكره
عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان اعرابيا اتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنة * اكس بنياتي وامهنة

وكن لنا من الزمان جنه * اقم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضى الله عنه فان لم أفعل يكون ماذا فقال

* اذا ابا حفص لاذهنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

يكون عن حالي لتسألنه * يوم تكون الاعطيات هنة

وموقف المسؤل ينهنه * اما الى نار واما جنه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحية ثم قال يا غلام اعطيه قميصي هذا ذلك اليوم للشعره
أما والله لأملك غيره واذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعمرى عن
امتان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل واهناً للقابل واما المعطي اذا التمس بعطائه الجزاء
وطلب به الشكر والتناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والتناء
كان صاحب سمعة ورياء وفي هذين من الذم ما ينافي السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا
مترجحا لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما في تأويل قوله تعالى
ولا تمنن تستكثر انه لا يعطي عطية يلتمس بها افضل منها . وكان الحسن البصري رضى الله عنه
يقول في تأويل ذلك لا تمنن بملك تستكثر على ربك . وقال ابو العتاهية

وليست يد اوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجو ان تعد لها شكرا

غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة * فان زاد شيأ عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتدي بالكرامة واللفظ والثلثم يجتدي بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا
ولا يجيب الا عنفا كما قد قال الشاعر

رايتك مثل الجوز يمنع ليه * صححما ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سيلا الى اعطائك فيجري عليك سفه
الطعام وامتهان اللثام وليكن جودك كرما ورغبة لالؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصحة
كما قال العباس بن الاحنف

صرت كأني ذبالة نصبت * تضيء للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قولاً وعملاً فاما القول فهو طيب
الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع
ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد
فيه كان معروفا وبرا محمودا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما في تأويل قوله تعالى والباقيات
الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا انها الكلام الطيب . وكان سعيد بن جبير يتأول انها
الصلوات الخمس . وروى سعيد عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن
تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق . وروى ان النبي صلى
الله عليه وسلم أنشد عنده قول الاعرابي هذا

وَحَيٍّ ذَوِي الْأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبِهِمْ * تَحْتِكَ الْحَسَنَى فَقَدْ يَرْقَعُ النِّعْلَ

فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما * وان حبسوا عنك الحديث فلا تسل

فان الذي يؤذيك منه سماعه * وان الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابي انك
تلقي العامة ببشر وتقريب قال دفع صنيعه بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر مبدول
وقيل في مشور الحكم من قل حياؤه قل احباؤه . وقال بعض الشعراء
بني ان البر شيء هين * وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لا يعرف مقداره * ما لم تبين للناس أفعاله

وكل من يمتعني بشره * فقل ما ينفعني ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة في النأبة وهذا يبعث عليه حب الخير
للناس وايتار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول

لانها وان كثرت فهي أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقي مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف جمود الكافر . وقال الخطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه * لا يذهب العرف بين الله والناس

وأشدد الرياشي

يد المعروف غم حيث كانت * تحملها كفور ام شكور

ففي شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فينبغي لمن يقدر على ابتداء المعروف ان يعجبه حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم انه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرته فاتت فاعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلا . وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكننت الواثق الخجل

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مخبورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح . وقيل لانوشروان ما أعظم المصائب عندكم فقال أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فواتها . وقال بعض الشعراء

إذا هبت رياحك فاغتمها * فان لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدري السكون متى يكون

وان درت نياقك فاحتلها * فما تدري الفصيل لمن يكون

وروى ان بعض وزراء بني العباس مطل راغبا اليه في عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

أما يدعوك طول الصبر متى * على استئناف منفعتي وشغلي

وعملك أن ذا السلطان غاد * على خطر من موت وعزل

وانك ان تركت قضاء حتى * الى وقت التفرغ والتخلي

ستصبح نادما اسفا معزى * على فوت الصنعة عند مثلي

وكتب بعض ذى الحرمات الى وال قد قصر في رعاية حرمة يقول
 أعلى الصراط تريد رعية حرمتي * ام في الحساب تمن بالانعام
 للنتع في الدنيا أردتك فانتبه * لحوالحي من رقدة النيوام
 وكتب ابو علي البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرت الاشغال يقول
 لناكل يوم نوبة قد ننوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
 فان تعذر بالشغل عنا فامنا * تناط بك الآمال ما اتصل الشغل
 واعلم ان المعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها
 واحفائه عن اشاعة يستدل بها . قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع
 اليك فانتشره ولقد قال دعبل الخزاعي

اذا انتقموا اعلنوا امرهم * وان انعموا انعموا باكتنم

يقوم القعود اذا اقبلوا * وتقعد هيبهم بالقيام

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره وابلغ دواعي نشره لما جبلت عليه النفوس
 من اظهار ما خفي واعلان ما كتم . وقال سهل ابن هارون

خل اذا جئت يوماً لتسأله * اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنائعه والله يظهرها * ان الجميل اذا اخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبراً وتقليله عن ان يكون مستكثرًا لئلا يصير به
 مدلا بطرا ومستطيلا أشرا . وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لا يتم المعروف
 الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هناه واذا صغرت عظمته واذا سترته
 اتمته . وقال بعض الشعراء

زادك المعروف عندي عظماً * انه عندك ميسور حقير

وتناسيت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبه الامتان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر
 واحباط الاجر . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والامتان بالمعروف فانه
 يبطل الشكر ويحرق الاجر ثم تلا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى . وسمع بن سيرين رجلا
 يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف اذا أحصى .
 وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنعة . وقال بعض الادباء كدّر معروفًا امتنان وضع
 حسبًا امتنان . وقال بعض البلغاء من من بمعروفه اسقط شكره ومن اعجب بعمله احط اجره

وقال بعض الفصحاء قوة المن من ضعف المنز . وقال بعض الشعراء
أفسدت بالمن ماسديت من حسن * ليس الكرم اذا اسدى بمنان

وقال ابو نواس

فامض لا تبئن على يدا * منك المعروف من كدره

وانشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه

لا تحملن لمن يمين من لانام عليك منه

واختر لنفسك حظها * واصبر فان الصبر جنة

من الرجال على القلوب * ب اشد من وقع الاسبنة

ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شياً وان كان قليلاً نزا اذا كان الكثير معوزاً وكنت عنه

عاجزاً فان من حقر يسيره فنع منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير افضل من تركه

فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يمنعكم من المعروف صغيره . وقال عبد الله

ابن جعفر لا تسحى من القليل فان المنع أقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك أكثر منه .

وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلاً فلن تحيط بكاه

ومتى تفعل الكثير من الخير * اذا كنت تاركا لاقله

على ان من المعروف مالا تكفه على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الاذنى

ويرتفق به التابع . وقال الشاعر

ظل الفتى ينفع من دونه * وماله في ظله حظ

واعلم انك لن تستطيع أن يسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم احسانك فاعتمد بذلك أهل

الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم نامياً وصنيعك

عندهم زاكياً . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنفع الصنعة الا عند ذى

حسب ودين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه فى اهل الحفاظ

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

ان الصنعة لا تكون صنعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا صنعت صنعة فاعمل بها * لله أو لذوى القرابة أودع

وقيل فى منشور الحكم لآخر فى معروف الى غير معروف وقد ضرب الشاعر به مثلاً فقال

كحمار السوء ان أشبعته * رح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فاخذ به بعض الشعراء فقال
 لمعرك ما المعروف في غير أهله * وفي أهله الاكبعض الودائع
 فستودع ضاع الذي كان عنده * ومستودع ما عنده غير ضائع
 وما الناس في شكر الصنعة عندهم * وفي كفرها الاكبعض المزارع
 فزرعة طابت واضعف بنتها * ومزرعة أكّدت على كل زارع
 واما من أسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف موثوقا
 وفي ملك الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من اهل المكافأة ان يكافيء عليها وان لم يكن من
 اهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره . فقد روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم انه قال من أودع معروفا فليشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره .
 وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضی الله عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وانا أتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لايجربك ضعفه * يوما فتدركه العواقب قد نما

يجزيك او يثني عليك وان من * أتى عليك بما فعلت فقد جزي

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردّي على قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبرائيل برسالة من
 ربي تعالى ايمارجل صنع الى اخيه صنعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه . وقيل
 في منشور الحكم الشكر قيد النعم . وقال عبد الحميد من لم يشكر الإنعام فاعده من الانعام
 وقيل في منشور الحكم قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء كفر النعم من أمارات البطر
 وأسباب الغير . وقال بعض الفصحاء الكريم شكور او مشكور والثلثم كفور او مكفور .
 وقال بعض البلغاء لازوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الادباء

شكر الاله بطول الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاء

وشكر النظير بحسن الجزاء * وشكرك الدون بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء

فلوكان يستغني عن الشكر ماجد * لعزة ملك او علو مكان

لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكر والي أيها الثقلان

فان من شكر معروف من احسن اليه ونشر افضال من انعم عليه فقد ادّى حق النعمة وقضى
 موجب الصنعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك تماما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولتأبئة
 الاحسان مستوجبا . حكى ان الحجاج أتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له

فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطرى بن الفجاءة فقال له عد الى قتال عدو الله فقال هيهات غلّ يدا مطلقها واسترقّ رقبة معتقها وأنشأ يقول

أأقاتل الحجاج في سلطانه * بيد نُقِرَّ بأنها مولاته

انى اذا لاخو الدناة والذي * شهدت باقبح فعله غدراة

ماذا أقول اذا وقفت ازاءه * في الصف واحتجت له فعلاة

أأقول جار علي لا اني اذا * لأحق من جارت عليه ولاة

وتحدّث الاقوام ان صنائعا * غرست لديّ فحفظت نخلاة

وقيل في منشور الحكم المعروف رق والمكافأة عتق ومن أشكر الناس الذي يقول

لأشكرنك معروفا هممت به * ان اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالشكور في وصول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابي

قد أورقت فيك آمالي بوعدك لي * وليس في ورق الآمال لي ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافأة الأمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا ان يفوت نفسه غنا ولا يجرمها ربها فهذا وجه ثان وقد يكون تارة ارتهانا للأموال وحباً للسؤل وبحسب ما سلف من الشكر يكون الذم عند الایاس . وقال بعض الادیاء من حکماء المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومي

وما الحقد الا توأم الشكر في الفقى * وبعض السجاي ينسب الى بعض

حيث ترى حقدا على ذي اساءة * فثم ترى شكرا على حسن القرص

اذا الارض أدت ربع ما أنت زارع * من البذر فيها فبهي ناهيك من ارض

وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمة فقد كفر النعمة وجمد الصنعة وان من أذم الخلائق وأسوأ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع . فقد روى ابو هريرة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس . وقال بعض الادیاء من لم يشكر لنعمة استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد . وقال بعض البلغاء من أنكر الصنعة استوجب قبح القطيعة

وانشدني بعض الادباء ما ذكر انه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه
 من جاور النعمة بالشكر لم * يخش على النعمة مغناها
 لو شكروا النعمة زادتهم * مقالة الله التي قالها
 لئن شكرتم لأزيدنكم * لكننا كفرهم غالها
 والكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من اسباب الالفة الجامعة فاما القاعدة الثالثة فهي
 المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر . قال الله تعالى وما جعلناهم
 جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة
 ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاحتلال في دنياه بقدر
 ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكمالها ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد
 مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لتغير سبب واسباب المودة مختلفة
 وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها
 توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون ويتركوا في جهة واحدة فلا
 يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وارشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكفوا ائتلافهم
 في المعاش المختلفة فيعجزوا ولا يعاونوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه
 سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور . وقد انبأ الله تعالى في كتابه العزيز اخبارا واذكارا
 فقال سبحانه وتعالى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى اختلاف المفسرون في تأويل
 ذلك فقال قتادة اعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد اعطى كل شيء صورته ثم هداه
 لمعيشته وقال ابن عباس رضى الله عنهما اعطى كل شيء زوجة ثم هداه لنكاحها . وقال تعالى
 يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعنى معاشهم متى يزرعون ومتى يفرسون وهم عن الآخرة
 هم غافلون . وقال تعالى وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين . قال عكرمة قدر
 في كل بلدة منها ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد .
 وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد قدر ارزاق اهلها سواء للسائلين الزيادة
 في ارزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من
 معاشهم دنيا يكون حكما وشرا يكون قبا ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا اسباب
 مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبا وتستولى عليهم احوالهم فيتقاطعوا .
 قال الله تعالى ولو اتبع الحق احواءهم لفسدت السموات والارض . قال المفسرون الحق

في هذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالا الهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتم السعادة وتم المصلحة ثم انه جعل قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب فاما المادة فهي حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهي شيطان نبت نام وحيوان متناسل . قال الله تعالى وانه هو أغنى واقنى قال ابو صالح أغنى خلقه بالمال واقنى جعل لهم قنية وهي اصول الاموال واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تغلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوجهي المادة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وريح تجارة وكسب صناعة . وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المامون قال سمعته يقول معاش الناس على اربعة اقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد تقررت اسباب المواد بما ذكرناه فنصنف حال كل واحد منها بقول موجز اما الاول من اسبابها وهي الزراعة فهي مادة اهل الحضرة وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها اعم نفعاً واوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال عين ساهرة لعين نائمة . وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرازة وتغرس في ارض خواراة . وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل . وقال بعض السلف خير المال عين خرازة في ارض خواراة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت . وروى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض يعني الزرع . وحكى عن المعتضد انه قال رأيت علي بن ابي طالب رضي الله عنه في المنام يناولني المسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض وقال كسرى للمؤبد ماقيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان فانها تصلح من معاش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك ولقي عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهري فقال له أدلني على مال أعالجه فأنشأ بن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها * لعلك يوما ان تجاب فترزقا

فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة * اذا ما مياه الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير ان

من فضل الزرع فلقرّب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلبثت اصله وتوالى ثمره .
واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة اهل الفلوات وسكان الحيام لانهم لما لم
تستقر بهم دار ولم تضمهم امصار افقرروا الى الاموال المنقولة معهم ومالا ينقطع نأؤه بالظعن
والرحلة فاقنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوقة برعيه ثم هو
مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الحيام اسر لقلّة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت
جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقنيات رسله الهاما من الله لخلقهم في تعديل المصالح فيهم
وارشادا لعباده في قسم المنافع بينهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال
مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مأمورة أي كثيرة النسل ومنه
تأول الحسن وقتادة قوله تعالى أمرنا مترفها اي كثرتا عددهم واما السكة المأبورة فهي النخل
المؤبرة الحمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها ريش .
وروى عن ابي ظبيان انه قال قال لي عمر ابن الخطاب رضی الله عنه ما مالك يا ابا ظبيان قال قلت
عطائي الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل ان تليك غنمة من قريش لا تعد
العطاء معهم مالا والسائبات التناج . وحكى ان امرأة اتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت
يا رسول الله اني اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلتها وانها لا تسمى فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم
ما الوانها قالت سود فقال عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الادميين
اغربوا ولا ترضوا . واما الثالث من اسبابها وهي التجارة فهي فرع مادتي الزرع والتناج
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث والباقي
في السائبات وهي نوعان ثقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واختصار وقد
رغب عنه ذوو الاقتدار وزهد فيه ذوو الاخطار والثاني ثقلب بالمال بالاسفار ونقله الى
الامصار فهذا اليق باهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غيرانه اكثر خطرا واعظم غررا .
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسافر وماله لعل تلف الا ما وقي الله يعني
على خطر وفي التوراة يا ابن آدم احدث سفرا احدث لك رزقا . واما الرابع من اسبابها وهو
الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم اقسامها ثلاثة صناعة فكر
وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات واشرفهم نفساً
متهيء لاشرفها جنساً كما ان اردلهم نفساً متهيء لارذلها جنساً لان الطبع يبعث على ما يلائمه
ويدعو الى ما يجانس . وحكى ان الاسكندر لما اراد الخروج الى اقاصي الارض قال
لارسطاطليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما صنع

في عمالي خاصة قال انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما اغناه عن كلفة التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر وهي مدبرة وارذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر وتديره فاما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدير البلاد وقد افردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جلها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها والثاني ما أدت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا باب اغنى ما فيه عن زيادة قول فيه واما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمي فالعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاطاة في تعلمه ومعانات في تصوّره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكرم بن صيفي لكل ساقطة لاقطة وكما قال المنتمس

ولا يقيم على ضم يسام به * الا الاذلان غير الحى والوئد

هذا على الحسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثي له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين أحدهما ان تكون صناعة الفكر اغلب والعمل تبعاً كالكتابة والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعاً كالبناء واعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر اغلب عليها والعمل تبعاً لها فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلمهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين مهمهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لالتفهم فسبحان من تفرد فينا بلطف حكيمته واظهر فطننا بعزائم قدرته واذ قد وضع القول في اسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور احدها ان يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير ان يتعدى الى زيادة عليها او يقتصر على نقصان منها فهذه أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدین . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله تعالى الى كلمات فدخلن في اذني ووقرن في قلبي من اعطى فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلج الله على كفاف . وروى حميد بن معاوية بن جندة قال قال يارسول الله ما يكفيني من الدنيا قال مايسد جوعتك ويستر عورتك فان كان ذلك فذاك وان كان حمار فبخ فلق من خبز او جزء من ماء وائت مسؤول عما فوق الازار . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك .

وروي زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخدام فهو ملك وهو في المعنى صحيح لانه بالزوجة والخدام مطاع في أمره وفي الدار محبوب الا عن اذنه وليس على من طلب الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له . وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فذرع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته لله . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن ان تكون بما يبيد الله اوثق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة ارجح عندك من بقائها . وحكي عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت ان تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقته نفسه الى الحرام وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس هو اتفاق من لا يوقن بالحلف وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان احسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل من قلّ توقيه كثرت مساويه . وقال بعض البلغاء خير الاموال ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام وكان الاوزاعي الفقيه كثيرا ما يتحمل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه * يوما ويبقى بعد ذلك أنامه

ليس التقي يمتق لاهله * حتى يطيب شرابه وطعامه

ويطيب ما يجني ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه

نطق النبي لنا به عن ربه * فعلى النبي صلواته وسلامه

وحكى عن ابن المعتز السلمي قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعز القناعة والاغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الأوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى والامر الثاني أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة اوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد أن يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا وقال بزرجهر ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثلها فالغني وان كان شيء

فوق الموت فالمرض وان كان شيء مثله فالفقر . وقيل في منشور الحكم القبر خير من الفقر
ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

اعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر

ومن امل يمتد في كل شارق * يرجعني منه بحظ يد صفر

اذا لم تدنسني الذنوب بعارها * فلست أبالي ماتعت من امرى

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد اعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى امرنا

بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعذار . وقد روى معمر عن ايوب عن ابي

قلاية قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يارسول الله خرج معنا

حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى ترحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى تنزل فقال

صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته و صنع طعامه قالوا كلنا يارسول الله قال كلكم

خير منه . وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعه نصيبه

من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتوقع فهذه حال من علم بحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة

وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى

فقد روى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمس الا وعلى

جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان

ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . وروى زيد بن علي بن الحسين عن ابيه عن جده رضى الله عنهم

أجمعين أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى

من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل . وروى عن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه انه قال من نبى الفقر انك لا تجد احدا يعصى الله ليفتقر فأخذه محمود

الوراق فقال يا عائب الفقير ألا تزدجر * عيب الغنى اكثر لو تعتبر

من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان صح منك النظر

انك تعصى لتسال الغنى * ولست تعصى الله كي تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك ان الفقر خير من الغنى * وان قليل المال خير من المثرى

لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته حتى لان قيادها وهان
 عنادها وعلمت ان من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن
 عبد العزيز رضى الله عنهما يا أخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان
 من قليل الدنيا لا يشبع لم يقنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف والزم نفسك العفاف
 واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول . وقال بعض الحكماء هيات منك الغنى ان لم يقنعك
 ماحويت فاما من اعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى
 اكرامها سبيل ولا للحمل عليها وجه الا بالرياضة والمروءة وان يستنزها الى اليسير الذي
 لا تنفر منه فاذا استقرت عليه انزلها الى ما هو اقل منه لتنتهى بالتدرج الى الغاية المطلوبة
 وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة . وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه سهل
 بالتمرين فهذا حكم مافي الامر الثاني من التقصير عن طلب الكفاية واما الامر الثالث فهو
 ان لا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك اربعة اسباب احدها
 منازعة الشهوات التي لاتنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال
 ما يوصله وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى ان ما يطلبه من الزيادة غير متناه
 ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه فلم يف التذاذة بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة
 كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الاتقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات
 حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهواتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف
 عنه بقناعة . وقد روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد الله به خيرا حال
 بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد به شرا وكله الى نفسه . وقد قال الشاعر

وانك ان اعطيت بطنك هم * وفرجك نالا منتهى الهم اجما

والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب بها
 في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر وبالحمد أخرى واجدر
 اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب واحسن التقدير في حالتي فأدته
 وافادته على قدر الزمان ويقدر الامكان لان المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف
 للاخوان ومن فقد من اهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرغبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة
 ولا رغبة استهانوا به . وقد روى عبد الله ابن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ان حساب اهل الدنيا هذا المال . وقال مجاهد الخير في القرآن كله المال وانه لحب الخير لشديد
 يعنى المال واحببت حب الخير عن ذكر ربي يعنى المال فكاتبوهم ان علم فيهم خيرا يعنى مالا

وقال شعيب النبي عليه السلام اني اراكم بخير يعني المال وانما سمي الله تعالى المال خيرا اذا كان في الخير مصروفا لان ما ادى الى الخير فهو في نفسه وقد اختلف اهل التأويل في قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في الدنيا وفي الآخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله في الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك .
وقال قيس بن سعد اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لاحد الا بفعل ولا بمجد الا بمال . وقد قيل لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي تذكرك من الدنيا فقال هي وان أدتني منها فقد صانتني عنها وقال بعض الحكماء من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض . وقيل في منشور الحكم من استغنى كرم على اهله ومر رجل من ارباب الاموال ببعض العلماء فمحرّك له واكرمه فقيل له بعد ذلك اكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكني رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقاء في عشر ديات فقال محمد علي دية وقال عتاب الباقي عليّ فقال محمد نعم العون اليسار على المجد وقال الاخنف بن قيس
فلو كنت متر بمال كثير لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا
وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيّب بها كل صلح . وقال ابن الجلال
رزقت مالا ولم ترزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال
اذا اردت رقي العلياء يقعدني * عما ينوه باسمى رقة الحال
وقيل في منشور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة .
وقال أوس بن حجر

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها * واحرى اذا حالت بان انحولا
فاني وجدت الناس الا اقلهم * خفاف عهود يكثرون التنقلا
بنو ام ذى المال الكثير يرونه * وان كان عبدا سيد الامر جحفلا
وهم لملق المال اولاد علة * وان كان محضاً في العشيرة محولا
وقال بشر الضرير

كني حزنا اني اروح واغتدى * ومالي من مال اصون به عرضي
واكثر ما اتى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضى

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنى في العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى * عشية يقرى أو غداة ينيل

وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على ان ما احوج من الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغنى مقدر والفقير عاجز والقدرة افضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوساطها وقد مضى شواهد كل فريق في موضعه بما اغنى عن اعادته . والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقي بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالفه انه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدمر في احالتك ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدمر حسود لا يأتي على شيء الا غيره . وقيل في منشور الحكم المال ملول . وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما ما لك لك أو للوارث أو للجاهل فلا تكن اشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده حتى صار ساعياً محروماً وجاهداً مذموماً وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضي حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعائه واجرامه . وقد حكى أن هشام بن عبد الملك لما قيل بكى ولده عليه فقال لهم جادلكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات * والا فلا مال ان أنت متا
شقيت به ثم خلفته * لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليك بوزر البكاء * وجدت عليهم بما قد جمعنا
وأرهنهم كل ما في يدك * وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولني فقال
النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير يريدك
يا عباس يا عم النبي نفس تحبها خير من امارة لا تحبها يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم
ان الامارة اولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها خزي يوم القيامة فقال يا رسول الله الامن
عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب . وقال رجل للحسن
البصري رحمه الله اني أخاف الموت وأكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللعوق
به . وقيل في منشور الحكم كثرة مال الميت تعزى ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومي
فقال وزاد

أبقيت مالك ميراثا لو ارثه * فليت شعري ما ابقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم * فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من احد * واستحكمت القول في الميراث والقال
ألهتهم عنك دنيا اقبلت لهم * وادبرت عنك والايام احوال

والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلبه استهلالا لجمعه وشغفا باحترامه فهذا أسوأ الناس
حالا فيه واشدهم حزنا له قد توجهت اليه سائر الملالوم حتى صار وبالا عليه ومذام وفي مثله
قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم
فقال النبي صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم فقالوا أي مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه انا اعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله ان اصحابك
قد شق عليهم فقالوا أي مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين احدكم
على دينه . وروى شهر بن حوشب عن ابي امامة قال مات رجل من اهل الصفة فوجد
في مزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد في مزره ديناران
فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك
أموالا حجة واحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان في هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا
ما ليس بهما اليه حاجة فصار ما احتجناهم وزرا عليهما وعقبا لهما . وقد قال الشاعر

إذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى * فانت أذاً والمقسترون سواء
على ان في الاموال يوما تباعة * على اهلها والمقسترون براء
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه
ان الذي رزق اليسار ولم يُصَب * حمدا ولا اجرا لغير موفق
والجد يدني كل شيء شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس الليب وطيب عيش الاحمق
فاذا سمعت بان محدودا حوى * عودا فأورق في يديه فمحقق
وإذا سمعت بان محدودا أتى * ماء ليشربه فنجف فصدق

اللب العقل تقول لبيب ذو لب والجد في اللغة الحظ وهو الجنة والجد ايضا العظمة ومنه قوله تعالى وانه تعالى جد ربنا والجد مصدر جد الشيء اذا قطع والجد بالكسر الانكماش في الامور أي الاجتهاد فيها وهو ايضا الحق ضد الهزل وبالهاء اذا منع الرزق ومحدود محدود لا يقال فيهما الا بما لم يسم فاعله وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالاسماك والادخار حتى انصرف عن رشده فعوى وانحرف عن سنن قصده فهو ان يستولى عليه حب المال ويُعدّ الأمل فيبعثه المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الأمل على الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر ما أعطي العبد شح هالع وجبن خالع . وقال بعض الحكماء الغني البخيل كالفقير الحيان واما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط في الشهوات لقلة محرزها وهذه اثلاث خصال هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع ان الحرص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى ادلال نفسه واسخاط خالقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحرص الجاهد والقنوع الزائد يستوفيان اكليهما غير منتقص منه شيء فعلام التهاوت في النار . وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمرؤة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرأيت ان فيه مصطنعا وقال آخر الحرص اسير مهانة لا تفك أسره . وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمطالبة فذل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك . وقال بعض الادباء رَبِّ حِظِّ أدركه غير طالبه وِدْرٍ أحرزه غير جالبه . وانشدني بعض اهل الادب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكا * ذب في غل الهوان
 ان عز الياس خير * لك من ذل الاماني
 سباح الدهر اذا عز وخذ صفو الزمان
 انما أعدم ذو الحر * ص وأثرى ذواتواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقع بها لانه اذا وصل بالحرص الى ما أمل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل رأي اضاءة الغنى لؤما والصبر عليه حزمًا وصار بما سلف من رجائه اقوى رجاءً وبسط املاً . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضاء بالقضاء والقناعة بالقسم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقصدا في الطلب فان ما رزقتموه اشد طلبا لكم منكم وما حرمتوه فان تناوله ولو حرصتم . وروى ان جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فامر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى من لم يتأدب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى ولنهيئنه حياة طيبة قال بالقناعة وقال أكرم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغي والثروة . وقال بعض السلف قد يجيب الجاهد الساعي ويظفر الوداع الهادي فاخذم البحرني فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه * في الحظ اما ناقصا او زائدا
 وعجبت للمجهود يحرم ناصبا * كلفا وللمجدود يغتم قاعدا
 ما خطب من حرمة الارادة قاعدا * خطب الذي حرمت الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره . وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة جزز الموسر . وقال بعض الادباء

اني أرى من له قنوع * يدرك ما نال او تمنى والرزق يأتي بلا عناء * وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة اوجه فالوجه الاول ان يقع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا اعلى منازل القناعة . وقال الشاعر

اذا شئت ان تحي غنيا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار ازهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته . وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدي الى العفاف . وقال بعض الادباء يارب ضيق افضل من سعة وعناء خير من دعة . وأنشدني بعض اهل الادب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

افادتنا القناعة أي عز * وأي غنى اعز من القناعة

فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعة

تحرز حين تغنى عن بخيل * وتسم في الجنان بصبر ساعه

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا اوسط حال المقنع . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه . وقال بعض الحكماء ما فوق الكفاف اسراف . وقال بعض البلغاء من رضى بالمقدور قنع بالميسور . وقال البحرى

تطلب الاكثر في الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالاكل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر

ان القناعة والعفاف * ليغنيان عن الغنى

فاذا صبرت عن المنى * فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة الى الوقوف على ما سنع فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سئمت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت . وفي مثله قال ذوالنون رحمة الله عليه من كانت قناعته سميحة طابت له كل مرقة . وقد روى الحسن بن علي عن ابيه عن جده رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك اناك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن اقتطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضى بما رزقه الله تعالى قرت عينه . وقال ابو حازم الاعرج وجدت شيئين شيئا هو لي لن اعجله قبل اسبله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيا هولغيري وذلك مما لم أنه فيما مضى ولا اناله فيما بقى يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري منى ففى ابي هذين افنى عمري واهلك نفسي . وقال ابو تمام الطائي

لا تأخذوني بالزمان وليس لي * تبعا ولست على الزمان كفيلا
 من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الاماني لم يزل مهزولا
 لو جاد سلطان القنوع وحكمه * في الخلق ما كان القليل قليلا
 الرزق لا تكمد عليه فانه * يأتي ولم تبعث اليه رسولا

وأشدنى بعض اهل الادب لابن الرومي

جری قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون

جنون منك ان تسمى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤل وافضل مأمول أن يحسن لنا التوفيق فيما منح ويصرف
 عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروت وموبات الشهوة . روى شريك بن ابي نمر
 عن ابي الجذع عن اعمامه واجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير أمتي الذين لم
 يعطوا حتى يبطروا ولم يفتروا حتى يسالوا . وقال ابو تمام الطائي

عندي من الايام مالوانه * أضحي بشارب مرقد ما غمضا

لا تطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه شعبا اذا ما غيضا

ما عوض الصبر امرء الا رأى * ما فانه دون الذي قد عوضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

علم ان النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسله لا يستغنى محمودها عن التأديب
 ولا يكتفي بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها أضدادا مقابلة يسعددها هوى مطاع وشهوة
 غالبه فان اغفل تأديبها تفويضها الى العقل او توكلها على ان تنقاد الى الاحسن بالطبع اعدمه
 التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائسين فصار من الادب عاطلا وفي صورة
 الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضع وذلك
 لا ينال بتوقف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدرية
 والمعاطات ثم يكون العقل عليه قيا وركى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب
 لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم انه قال بُعِثْتُ لَأَتَمَّ مَكَارِمِ الْإِخْلَاقِ . وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام
 من أدبك قال ما ادبني احد ولكني رايت جهل الجاهل فخابته . وقال علي بن ابي طالب رضي
 الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل ان يتصل

من الله تعالى بحاق منها . وقال ازدشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ومترين به في كل مكان وبق ذكره على ايام الزمان . وقال مهيبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الحراب الذي كلما علامتكمه كان اشد لوحشته وبالنهر اليباس الذي كلما كان اعرض واعرق كان اشد لوعورته وبالارض الحيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غيرالمنتفع به اتقافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لفاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطالع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها . وحكى الاصمعي رحمه الله تعالى ان اعرابيا قال لابنه يا بني الادب دعامة ايد الله بها الابواب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعائل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب احد المتصين . وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء ادبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله . وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكي النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل فضعك ويرجى عدلك . وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة . وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب . وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب

وما كرم المرء الا بالتقى * ولا حسب المرء الا بالنسب

وفي العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذى الحلم طيش الغضب

وانشد الاصمعي رحمه الله

وان يكن العقل مولودا فلست اري * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب

اني رايتهما كلماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب

وكل من أخطأته في موالده * غريزة العقل حاكي البهم في الحسب

والتأديب يلزم من وجهين احدهما لزم الوالد لولده في صغره والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند نشوه وكبره فاما التأديب اللازم للاب فهو ان يأخذ ولده بمبادي الآداب ليانس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمبداها في الصغر لان نشو الصغير

على الشيء يجعله مطبعا به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيد إياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه . وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال وتفرق البال . وقال بعض الشعراء

ان الفصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الحشب
قد ينفع الادب الاحداث في صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب
وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها ينبت الشجر
واما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان أدب مواضعه واصطلاح وأدب رياضة
واستصلاح فاما أدب المواضعه والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح
العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط
ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضع الخطاب واتفاقهم
على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانباً للادب
مستوحياً للذم لان فراق المألوف في العادة ومجانبة ما صار متفقاً عليه بالمواضع مفض إلى
استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزاً في العقل
ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسناً ويرون ما سواه قبيحاً فصار هذا مشاركا لما
وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفاً له من حيث انه كان جائزاً في العقل ان يوضع
على خلافه واما ادب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل ان
يكون بخلافها ولا ان تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل
مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى
ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجورها وتقواها . قال ابن عباس رضى الله عنه بين لها ما تأتي
من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه فانه اولى به ولاحق فاول مقدمات
ادب الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شبيهه
ومساوى اخلاقه لان النفوس بالشهوات امرأة وعن الرشد زاجرة . وقد قال الله تعالى
ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم اعدى اعدائك نفسك التي بين جنبيك
ثم اهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه
بعض الشعراء فقال

قلبي الى ما ضرني داع * يكثر اسقامي واوجاعي
 كيف احتراسي من عدوى اذا * كان عدوى بين اضلاعي
 فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها
 وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر
 فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه العاجز من عجز عن
 سياسة نفسه . وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فاماسؤ الظن بها فقد اختلف
 الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر
 يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه
 كان كمن عمى عن مساوئها فلم ينصف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا . وقد قال الجاحظ
 في كتاب البيان يجب ان يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فانه ان
 تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلما فادعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق في مقدار حسن
 الظن اودعها تهون الآمين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن
 ولكل وهن مقدار من الجهل . وقال الاخف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن
 هدم دينه كان لجده أهدم وذهب قوم الى ان سؤ الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في
 اجتهادها لان للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها
 محبوبة تجور ادلالا وتغر مكررا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وتوهمه عليه غرورها
 فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا . وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه
 أسخط عليه الناس وقال كشاحم

لم أرضى عن نفسي مخافة سخطها * ورضا الفتى عن نفسه اغضابها

ولو اتى عنها رضيت لقصرت * عما تزيد بمثلها آدابها

وتينت آثار ذلك فاكثرت * عذلي عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول ابي تمام الطائي

ويسى بالاحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مقتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلاله عمله لوما بل رأوا ذلك أبلغ في الفضل وأبث
 على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا
 كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد ان كان في ملكها وغلبها
 بعد ان كان في غلبها . وقد روى ابو حازم عن ابي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم الشديد من غلب نفسه . وقال عون بن عبد الله اذا عصتكَ نفسك فيما كرهت فلا تطعمها فيما أحببت ولا يغرنك ثناء من جهل امرك . وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تنأى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ في المروءة حينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجت بتقويم عوجها واصلاح فاسدها . وقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام من زيف يحدث عن اغفال او ميل يكون عن اهمال ليم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة زائع وسنذكر من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولاً تحتوي على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الادب وهي ستة فصول متفرعة

﴿ الفصل الاول ﴾ في مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصفاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالتكبر يجلب نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأديين فلذلك وجب تقديم القول فيها بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبه من لوم فقول أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوأ عن استقصاء ذمه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الا فضل حرق لم يدر صاحبه اين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما أشبه ما قال بالحق . وحكى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الحيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب اما تعرفني فقال بل اعرفك اولك نطفة مذرة وآخرك حيفة قدرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عوف هذا الكلام فظلمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذرة

وفي غد بعد حسن صورته * يصير في اللحد حيفة قدرة

وهو على تبهه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذرة

وقد كان المهلب افضل من ان يندع نفسه بهذا الجواب الغير الصواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع بن جبير بن مطعم انه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقي وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال آدررون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني اردت ان اتواضع لله

بالجلوس اليكم فهل يرجي من هذا فضل أو ينفع فيه عدل . وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل واما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العجب لياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب . وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليظني من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة ويمدمة تهدم كل فضيلة مع ما يشهه من حنق ويكسبه من حقد . حتى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل اربعة فتقربت اليه بدماهم . ولما ولي مقاتل بن مسمع سجستان اتاه الناس فأعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له اريدتهم فشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فيعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التميمي خوف أهل البصرة أمر نخطب خطبة اوجز فيها فنادى الناس من اعراض المسجد اكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال ياهانة مثلي يكون من عيد الله وابو شمال الاسدي اضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الى راحلتي لاصليت له صلاة ابدأ فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل فقال ان يمضي يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف افضى بهم العجب الى حق صاروا به نكالا في الأولين ومثلا في الآخريين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلى به من مهنة لحفض جناح نفسه واستبدل لنا من عتوه وسكونا من نفوره . وقال الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته * انظر خلاك فان التثريب تثير
لو فكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو يخمس من الاقدار مضروب
اتف يسيل واذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وما كول التراب غدا * اقصر فانك ما كول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانباً وللإعجاب مبيناً من جل في الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير . وقال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطيراً فيكون بها نابهاً . وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللکبر أسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء . وحكى ان قوما مشوا خلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال أبعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوکی الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها زلة للتابع وقتنة للتبوع . وروى قيس بن حازم ان رجلاً أتى به للنبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هوّن عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسماً لمواد الكبر وقطعاً لذرائع الإعجاب وكسراً لاشر النفس وتدليلاً لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رأيته ارفعني على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فاظلم اليوم وأي يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا امير المؤمنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال عمر رضي الله عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت أنت امير المؤمنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها وللإعجاب اسباب فمن أقوى اسبابه كثرة مدح المتقربين واطراء التملقين الذين جعلوا التفاق عادة ومكسباً والتلق خديعة وملعباً فاذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك زريعة الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلاً يركى رجلاً فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما افلح بعدها . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح . وقال ابن المقفع قابل المدح كادح نفسه . وقال بعض الحكماء من رضي ان يمدح بما ليس فيه فقد امكن الساخر منه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والتأدح فانه الذبح ان كان احدكم مادحاً اخاه لا محالة فليقل احسب ولا ازكى على الله احداً وقيل فيما انزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب . وقال بعض الشعراء

ياجا هلا غره افراط مادحه * لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
أنى وقال بلا علم احاط به * وانت اعلم بالمحصول من ريبك

وهذا أمر ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه عن ان يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح . وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا ساع نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا يتخضع بها ميمز وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الالباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته وليكن همة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا السنتهم بالثناء والمدح محرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التعلق به . وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانيين ولا متماذجين ولا متماوتين . وحكى الاصمعي ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا مدح قال اللهم انت اعلم بي من نفسى وانا اعلم بنفسى منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون . وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فادحه يهذى وان كان مفعما

وربما آل حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون ان قوله حق متبع وصدق مستمع واما لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاى ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح . وقد قال بعض الشعراء

وما شرف ان يمدح المرء نفسه * وليكنّ اعمالا تدم وتمدح

وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل اصحاب التجارة يربح

ولا كل من ترجو لغيبك حافظا * ولا كل من ضم الوديعه يصلح

وينبغي للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينيهونه عليه من مساويه التى صرفه حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا واسلم فكرا ويجعلون ما ينيهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد روى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن مؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ اهدى الينا مساوينا . وقيل لبعض الحكماء أحب أن تهدي اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما من ترى ان نوليه حمص فقال رجلا صحيفا منك صحيفا لك قال تصكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بي مع سؤ ظني بك وسؤ ظنك بي . وقيل في منشور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من أوكد أسباب الكرامة واقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض . وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصاد الشرف وقيل في منشور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولاخزين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرار مخزونها لا سيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب . وقد قال بعض الحكماء فى تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها . وقال بعض البنغاء الناس فى الولاية رجالان رجل يجمل العمل بفضله ومروءته ورجل يجمل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا

﴿ الفصل الثاني فى حسن الخلق ﴾ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام ديناً فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكمل الا بهما وقال الاخنف بن قيس الا اخبركم بأدواء الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذي . وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة . وقال بعض البنغاء الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة والسيى الخلق الناس منه فى بلاء وهو من نفسه فى عناء . وقال بعض الحكماء عاشر اهلك باحسن أخلاقك فان التواء فيهم قليل . وقال بعض الشعراء

إذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد

إذا ما المرء لم يخلق ليبياً * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقلّ معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب

ولانت له القلوب الغضاب . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار . وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المحبفين . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم الى أحسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طليق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لختبري * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر الذي هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانتباض في موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملقى ذل والتفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ودّ مبرور ولا أثر مشكور . وقد روى حكيم عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه . وروى مكحول عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لذى الوجهين ان يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيها من فحج المنظر وعجز الخبر أحب الى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين . وقال الشاعر

خل التفاق لاهله * وعليك فالتمس الطريقا

وارغب بنفسك ان ترى * الا عدوا او صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق ودّه بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتدم

يضاحكي عجبا اذا ما لقيته * ويصدقني منه اذا غبت اسهم

كذلك ذوالوجهين يرضيك شاهدا * وفي غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لاسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية التي تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلقاء تنكرا اما من لؤم طبع واما من ضيق صدر . وقد قيل

من تاه في ولايته ذل في عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية . ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة اسف او لقلّة صبر . حكى حميد الطويل ان عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال اني وجدت حلوّة الرضاع مرة الفطام . ومنها الغنى فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشي

غضبان يعلم ان المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني * فاكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الأثراء منك خلافا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج ان أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا ألقنا فكتب الي الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنت منهم رشدا فأجر عليهم ما كنت تجرى واعلم ان الفقر جند الله الأكبر يذل به كل جبار عنيد يتكبر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن آدم بثلاث ما طأطا راسه لشيء الفقر والمرض والموت . ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما أنفة من ذل الاستكانة او أسفا على فائت الغنى . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقران يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر . وقال ابو تمام الطائي

واعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت في كنهه الفكر

فيفرح بالشيء القليل بقاؤه * ويجزع مما صار وهو له ذخ

وربما تسلى من هذه الحالة بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد يعترض بها سلوة من هم او مسرة برجا . وقد قال أبو العتاهية

حرك منك اذا اغتمت * ت فأنهن مراوح

وقال آخر

اذا تمتت بت الليل معتبطا * ان المنى رأس اموال المفاليس

ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم . وقال بعض الادباء الحزن كالداء المحزون في فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة * فسا تقطع العيش الابهيم
 اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
 اذا كنت في نعمة فارعها * فان المعاصي تزيد النعم
 وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
 حلاوة دنياك مسمومة * فسا تاكل الشهد الا بسم
 فكم قدر دب في مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبق الاخلاق على اعتدال
 ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولي
 واذا الشيخ قال أف فما مل حياة وانما الضعف ملا
 واذا لم تجد من الناس كفوًا * ذات خدر ارادت الموت بعلا
 أبدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدث الهرم لتأثيره في آلة الجسد كذلك يكون تأثيره في اخلاق النفس
 فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أفعال فكذلك تعجز النفس عن أفعال ما كانت
 تصبر عليه من مخافة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه . وقال منصور النمرى

ما كنت اوفى شبابي كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
 اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم * تشجى لغصته فالعذر لا يقع
 ما كان اقصر ايام الشباب وما * ابقى حلاوة ذكراه التي تدع
 ماواجه الشيب من عين وان رمقت * الا لها نبوة عنه ومر تدع
 قدكدت تقضى على فوت الشباب اسي * لولا يعزبك ان العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص
 وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحديث نفورا عن المبعوض فيؤل الى سوء خلق يخصه دون
 غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

﴿ الفصل الثالث في الحياء ﴾ اعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت

العرب في أمثالها تخبر عن مجهوله مرآة . وكما قال عمر بن سلم الشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخبر

فسمه الخير الدعة والحياء وسمه الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا ان يكونا الى الشر سيلا . وقد روى حسان بن عطية عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ويشبه أن يكون العي في معنى الصمت والبيان في معنى التشاقد كما جاء في الحديث الآخر ان أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون المتشدقون . وروى أبو سلمة عن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايمان في الجنة والبذاء من الجفاء والحفاء في النار . وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما ان حيايت الغرس بمائه . وقال بعض البلغاء العلماء يا عجبا كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي وتبقى من طول ما لا تبقى . وقال بعض الشعراء وهو صالح بن عبد القدوس

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير في وجه إذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور بن ربيعي عن أبي منصور البدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن آدم اذا لم تستحي فاصنع ما شئت وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضع الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

إذا لم تحش عاقبة الليالي * ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير * ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير * ويبقى العود ما بقي اللحاء

واختلف اهل العلم في معنى هذا الخبر فقال أبو بكر بن محمد الشاشى في اصول الفقه معنى هذا الحديث ان من لم يستحي دعاه ترك الحياء الى ان يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحياء يردعه وسمعت من يحكى عن أبي بكر الرازى من اصحاب أبي حنيفة ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكما على افعاله وكلا القولين حسن والاوّل اشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج المدح لكن قد جاء الحديث بما يضاهاى القول الثانى وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه اذناك فأنه وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه

ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان تكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم ان الحياء في الانسان قد يكون من ثلاثة اوجه احدها حياؤه من الله تعالى والثاني حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه فاما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتنال او امره والكف عن زواجره . وروى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يا رسول الله فكيف نستحي من الله عز وجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبيلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء وهذا الحديث من ابلغ الوصايا . وقال ابو الحسن الماوردي مصنف الكتاب رأيت رسول صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحي من الله عز وجل حق الحياء ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يا رسول الله قال كنت انظر الى الصبي قارى من وجهه البشر والحياء وانا انظر اليه انيوم فلا ارى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظمت تصورتها واذهاني السرور عن حفظها ووددت اني لو حفظتها فلم يبدأ بشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبي لان ما يأتيه لطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى امته وتابع انذارها وقطع اعذارها واوصل تاديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حضا من زواجره ونصيبا من اوامره اعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق . وقد روى ان علقمة بن علانة قال يا رسول الله عظني فقال النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله تعالى استحياءك من ذوى الهية من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر يعني من الله لما فيه من مخالفة اوامره وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من اتقى الله اتقى الناس . وروى ان حزيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لاخير فيمن لا يستحي من الناس . وقال بشار بن برد

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء * ه حياء وجهه في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى * ذاكرا في غد حديث الاعادي

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب التناء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
من أتى جلباب الحياء فلا غيبة له يعني والله أعلم لقلته مروءته وظهور شهوته . وروى الحسن
عن أبي هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه
والفه وجلسه . وقال بعض الشعراء

ورب قبيحة ما حال بيني * وبين ركوبها الا الحياء

اذا رزق الفتى وجهها واقاحا * تقلب في الامور كما يشاء

وقال آخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الحلوات . وقال بعض الحكماء ليكن استحيائك
من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . وقال بعض الادباء من عمل في السر عملا يستحي
منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجيبهم وقال
اني دخلت البارحة في الاربعين وانا استحي من سفي . وقال بعض الشعراء

فسرى واعلاني وتلك خليقتي * وظلمة ليلى مثل ضوء نهاري

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فتى كمل حياء الانسان
من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير وانتفت عنه اسباب الشر وصار بالفضل
مشهورا وبالجميل مذكورا . وقال بعض الشعراء

واني لثينيني عن الجهل والحنأ * وعن شتم ذي القربى خلألق اربع

حياء واسلام وتقوى وطاعة * لربي ومثلى من يضر وينفع

وان أحل باحد وجوه الحياء لحقه من التقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكاله .
وقد قال الرياشي يقال ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون أخرى قد سخط لها * جعلتها لتي اخفيت عنوانا

اني كأني ارى من لا حياء له * ولا امانة وسط القوم عربانا

الفصل الرابع في الحلم والغضب * روى محمد بن حارث الهلالي ان جبريل نزل على النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم الاخلاق في الدنيا والاخرة خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وروى سفيان بن عيينة ان النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت
هذه الآية قال يا جبريل ما هذا قال لا ادري حتى اسأل العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد ان ربيك
يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك . وروى هشام عن الحسن

ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أيعجز احدكم أن يكون كأبي ضميم كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الحلیم الحى ويبغض الفاحش البذى وقال عليه الصلاة والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد . وقال بعض الابداء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم . وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض . وقال بعض الشعراء

أحب مكارم الاخلاق جهدى * واكره ان أعيب وان اعابا

وأصفح عن سباب الناس حملا * وشر الناس من يهوى السبابا

ومن هاب الرجال تهبوه * ومن حقرا الرجال فلن يهابا

فالعلم من اشرف الاخلاق وأحقها بذوي الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد . وقد قال على ابن ابى طالب كرم الله وجهه أول عوض الحلیم عن حمله ان الناس انصاره وحد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب واسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة احدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة . وقد قيل في منشور الحكم من أوكد الحلم رحمة الجهال . وقال ابو الدرداء رضى الله عنه لرجل أسمعه كلاما يا هذا لا تفرقن في سبنا ودع للصلح موضعا فاننا لا نكفى من عصا الله فينا باكثر من ان نطبع الله عز وجل فيه وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لي وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك واغتازت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء وقسم معاوية رضى الله عنه قطافا فاعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فخلف ان يضرب بها رأس معاوية فاناه فاخبره فقال له معاوية أوف ببنذك وليرفق الشيخ بالشيخ والثانى من اسبابه القدرة على الانتصارا وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذ قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه . وقال بعض الحكماء ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة . وقال بعض البلغاء أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المقتدر والثالث من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل المكارم وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيد الحلمه وقد قال الشاعر

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا الاقوام

ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لاصفح ذل ولكن صفح احلام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسئء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير انه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء الجند وامر مناديه فنادى ابن عمرو بن جرموز وهو الذي قتل اباة الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد في الارض فقال او يظن الجاهل اني أقيده بابي عبدالله فليظهر آمنة يأخذ عطاءه موفراً فعدّ الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره

او كما طن الذباب طردته * ان الذباب اذاً عليّ كريم

وأكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي الا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجي بك لو لمك منجى الذباب * حتمه مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك أعني فقال له وعنك أعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه * عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي

اذا نطق السفية فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت

سكت عن السفية فظن أني * عيبت عن الجواب وما عيبت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفية خير من التحلي بصورته والاعضاء عن الجاهل خير من مشاكلته . وقال بعض الادباء ما أحش حلیم ولا أوحش كريم . وقال لقيط بن زرار

وقل لبني سعد فإلى ومالككم * ترقون مني ما استطعتم وأعتق

أغرکم اني باحسن شمية * بصير وأني بالفواحش أخرج

وان تك قد فاحشتني فقهرتني * هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أهدق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا يتقصانك ويلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة أعذر في تقصى وثاني فكان هذا تفضلاً منه وتألفاً . وقد حكي عن الاحنف بن قيس انه قال ما عاداني احد قط الا اخذت في امره باحدى ثلاث خصال ان كان اعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدرى عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فاخذته الحليل فظلمه

شعرا فقال

سألزم نفسى الصّبح عن كل مذنب * وان كثرت منه الى الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذى فوقى فاعرف قدره * واتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذى دونى فاحلم دأباً * اصون به عرضى وان لام لأم
واما الذى مثلى فان زل او هفا * تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم

والسابع من اسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهكذا يكون من الحزم كما حكى ان
رجلاً قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت عشرافقال له ضرار والله لو قلت
عشراً لم تسمع واحدة . وحكى ان على بن ابي طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى
من احق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز
الصمت في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما ادركت امى فابرها ولكن لا اسب احدا فيسيها .
وقال بعض الحكماء في اعراضك صون اعراضك . وقال بعض الشعراء

وفي الحلم ردع للسفیه عن الاذى * وفي الخرق اغراء فلا تك اخرقا
فتقدم اذ لا تنفعلك ندامة * كما ندما المنقبون لما تفرقا

وقال آخر

قل ما بدالك من زور ومن كذب * حلى اصم واذنى غير صماء

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما
اوجبه الراى واقتضاه الحزم وقد قيل في منشور الحكم الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر
ارفق اذا خفت من ذى هفوة خرقا * ليس الحلیم کمسن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفه وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد
وقد قيل في منشور الحكم اكرم الشيم ارعاها للذم . وقال الشاعر

ان الوفاء على الكبريم فريضة * واللؤم مقرون بذى الاخلاف
وترى الكبريم لمن يعاشر منصفاً * وترى اللئيم بجانب الانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء وقد قيل في منشور
الحكم من ظهر غضبه قل كيده . وقال بعض الادباء غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل
في فعله . وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جواباً واوجعته عقاباً .
وقال اياس بن قتادة

تعاقب ايدينا ويحلم راينا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكريماً * أضمر له من شتمه حين يشتم
فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس اذا كان بعض
اسبابه مفضولاً ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة وإنما الاولى بالانسان أن يدعو
للحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلاً وان عرئ عن أحد هذه الاسباب كان ذلاً ولم يكن
حلماً لاننا قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسباع
ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية . وقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة
مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب .
وقال الشاعر

ليست الاحلام في حال الرضى * إنما الاحلام في حال الغضب

وقال آخر

من يدعى الحلم أعْضِبْهُ لتعرفه * لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب
وأنشد النابغة الجعدى بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمي صفوه أن يكدر

ولا خير في جهل اذا لم يكن له * حلیم اذا ما أورد الامر أصدر

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب في الاشياء المنغضبة حتى استوت حائاه
قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع
والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقي
فضائله في النفوس موضع ولا لوفور حلمه في القلوب موقع وقد قال المنصور اذا كان الحلم
مفسدة كان العفو معجزة . وقال بعض الحكماء العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من
الكریم . وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاءكم فانهم يقولونكم العار والشنار . وقال
مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم الاذلوا . وقال أبو تمام الطائي

والحرب تترك رأسها في مشهد * عدل السفیه به بالف حلیم

وليس هذا القول اغراء بتحکم الغضب والانتیاد اليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالانتیاد
للغضب من الرذائل اكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا نار به الغضب عند
هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه واطفاً نارته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره
ولم يعدم مسيئاً مكافياً كما لم يعدم محسناً مجازياً والعرب تقول دخل بيتنا ما أخرج منه

أي ان أخرج منه خير دخله خير وان أخرج منه شر دخله شر . وانشد ابن دَرِيد عن أبي حاتم
 اذا أمن الجهال جهلك مرة * فعرضك للجهال غم من الغم
 فعم عليه الحلم والجهل والقه * بمنزلة بين العداوة والسلام
 اذا أنت جازيت السفية كما جزى * فانت سفية مثله غير ذي حلم
 ولا تغضب عرض السفية وداره * بحلم فان أعى عليك فبالصرم
 فيرجوك تارات ويخشاك تارة * ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
 فان لم تجد بداً من الجهل فاستعن * عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من احكم ايات وحنديتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لايجد
 الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى اطراحه ومتاركة اما لحوف شره او للزوم امره فاما
 من أمكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالهوان به اولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على
 ما وصفت استفاد بتجريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الاتقياد له وذائله وصار
 الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لايعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو
 عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خيرة اسبابه
 ودواعيه حتى يصير بليد الرأي مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع
 مايناله من أثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير اضر عليه مما غضب له . وقد قال بعض
 الحكماء من كثر شططه كثر غلطه . وروى أن سلمان قال لعلى رضى الله عنه ماالذي يباعدنى
 عن غضب الله عز وجل قال لا تغضب . وقال بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب
 الله عز وجل اذا غضب . وقال بعض البلغاء من رد غضبه هدّ من اغضبه . وقال بعض
 الادباء ما هيج جاشك كفيظ اجاشك . وقال لبعض الحكماء عطفى قال لا تغضب فينبغي
 لذي اللب السوى والحزم القوى ان يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعي شرته
 بحزمه فيردها ليحظى باجل الحيرة ويسعد بحميد العاقبة . وقال بعض الادباء في اغضابك
 راحة اعصابك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم
 ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يحرك من داخل الجسد الى خارجه . والحزن يتحرك
 من خارج الجسد الى داخله فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكون الحزن
 وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والاسقام
 لكمونه ولذلك افضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب
 واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم اسبابا يستعان بها على الحلم منها ان يذكر الله عز وجل

فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى اديه ويأخذ بنديه فعند ذلك يزول الغضب . قال الله تعالى واذ كر ربك اذا نسيت قال عكرمة يعني اذا غضبت وقال الله تعالى واما يترغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله ومعنى قوله يترغتك اي يفضنك فاستعد بالله انه هو السميع العليم يعني انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر ان في التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذ كرني حين تغضب اذ كرك حين اغضب فلا احمك فبين احمق . وحكى ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزيره وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب انما انت بشر ارحم من في الارض يرحمك من في السماء . وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد با امير المؤمنين أسألك بالذي انت بين يديه اذل مني بين يديك وبالذي هو اقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت عني فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى . وروى ان رجلا شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى عنده مفاتيح رُب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضي الله عنه من اكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومنها ان ينتقل عن الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المسأمون اذا غضب او شتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فيجلس واذا غضب الجالس فليقم ومنها ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام وكتب ابرويز الى ابنة شيرويه ان كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وان نفاذ امرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك ان تحطى ومن لونك ان يتغير ومن جسدك ان يحف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حملا . وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الادباء اياك وعزة الغضب فانها تفضي الى ذل العذر . وقال بعض الشعراء

واذا ما اعتراك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعذار

ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي مناد يوم القيامة من له اجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله . وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في اسارى ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضى لم يدخله رضاه في باطل
 واذا غضب لم يخرج غضبه من حق واذا قدر عفا وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما
 فقال عمر اردت ان يستغفني الشيطان لعزة السلطان فانال منك اليوم ما تناله منى غدا
 انصرف رحمك الله ومنها ان يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة
 ذلك بتغير الناس عنه فيرغب في التألف وحيل الثناء * وروى ابن ابي ليلى عن عطية عن ابي
 سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد احد بعفو الا عزاً فاعفوا يعزكم الله .
 وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم .
 وقال المأمون لابراهيم بن المهدي انى شاورت في أمرك فاشاروا علىّ بقتلك الى أنى وجدت
 قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للالزام حرمتك فقال يا امير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به
 العادة في السياسة الا انك أيت ان تطلب النصر الا من حيث ما عودته من العفو فان عاقبت
 فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشأ يقول

البرّبي منك وطأ العذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
 وقام علمك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم
 لئن جحدتك معروفا مننت به * انى لى اللؤم اخطى منك بالكرم
 تعفو بعدل وتسطون ان سطوت به * فلا عدمنك من عاف ومنتقم

﴿ الفصل الخامس فى الصدق والكذب ﴾ قال الله تعالى وهو اصدق القائلين ثم نبهل
 فجعل لعنة الله على الكاذبين وقال تعالى انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بايات الله .
 وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للحسن بن على رضى الله عنهما دع ما يريبك الى
 مالا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال
 رحم الله امرأً أصلح من لسانه وأقصر من عنانه وأزعم طريق الحق مقوله ولم يعود الحطّل
 مفصله . وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أياكون المؤمن جباناً قال
 نعم قيل أياكون بخيلاً قال نعم قيل أياكون كذاباً قال لا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما
 فى قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل أيا لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى مثور
 الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الحكماء
 الحرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء الصادق مصان
 جليل والكاذب مهان ذليل . وقال بعض الادباء لا سيف كالحق ولا عون كالصدق .
 وقال بعض الشعراء

وما شئ اذا فكرت فيه * باذهب للمروءة والجمال
 من الكذب الذي لاخبر فيه * وابعده بالبهاء من الرجال
 والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبت نتائجه لانه ينتج التيممة والنعيمه
 تتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل
 من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما ان الوفاء والحلف
 يدخلان المواعيد المستقبله فالصدق هو الاخبار عن الشئ على ما هو عليه والكذب هو الاخبار
 عن الشئ بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منها دواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب
 عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد
 عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يحز أن تستفيض
 الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعي فدواعي
 الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا تلقوا خبرا وكانوا عددا ينتفي عن مثلهم
 المواطأة وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن
 ولايجوز أن يتفق العدد الكثير الذي لايمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي
 اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس في جاري العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير
 نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يحز ان يتفقوا على
 الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ما سنج به
 الحاطر من دواعيها اما دواعي الصدق فمنها العقل لانه موجب لتقج الكذب لا سيما اذا لم
 يجلب نفعاً ولم يدفع ضرراً والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسناً ويمنع من آيات ما كان
 مستقبحاً وليس ما استحس من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب في العقل
 كالذي انشدنيه الازدي لبعض الشعراء

توهمه فكري فاصح خده * وفيه مكان الوهم من فكرتي اثر

وصاغه كفي فآلم كفه * فمن لمس كفي في أنامله عقر

ومر بقلبي خاطرا فجرحته * ولم ار شيأ قط تجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطي * اليها لم تجنبت الجليلا

فقلت لها حملت فصار خطي * مساعدة لكتابه نجيلا

لانه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقطار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تجرجه

عن تليس الكذب وكذلك ما استحس في الصنعة ولم يستج في العقل وان كان الكذب مستقبها ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظه العقل بل قد جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جرنفعا او دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ومنها المروءة فلها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى من فعل ما كان مستقبها ومنها حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعتك الى الصدق فالحق اقوى معين والصدق افضل قرين . وقال بعض الشعراء

عود لسانك قول الصدق تحظ به * ان اللسان لما عودت معتاد

موكل بتقاضى ما سنت له * في الخير والشر فانظر كيف تراد

واما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى ان الكذب اسلم واغنى فيرخض لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشغافا للطمع وربما كان الكذب ابد لما يؤمل واقرب لما يخاف لان القبح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجني من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال محروا الصدق وان رايتم فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايتم ان فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لان يضعى الصدق وقلم يفعل احب الى من ان يرفعى الكذب وقلم يفعل . وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان امته . وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان فبين تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة واصل كل فساد ومنها ان يؤثر ان يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلى الكذب الذى ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة وهذا النوع اسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة . وقد قال الجاحظ لم يكذب احد قط الا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع لا تنهون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق ومنها ان يقصد بالكذب التشفى من عدوه فيسمه بقباغ يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى ان معرفة الكذب غم وان ارسالها في العدو سهم وسم وهذا اسوأ حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه ومنها ان تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه متفادة

حتى لو رام مجانبه الكذب عسر عليه لان العادة طبع نان . وقد قالت الحكماء من استحل رضاع الكذب عسر فطامه . وقيل في منشور الحكم لا يلزم الكذاب شيء الا غلب عليه واعلم ان للكذاب قبل خبرته امارات دالة عليه فنها أنك اذا لقتته الحديث تلقته ولم يكن بين ما لقتته وبين ما أورده فرق عنده ومنها أنك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولو لالك ما تحالجه الشك فيه ومنها أنك اذا ردّدت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الكذاب كالسراب ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة التوهمين لان هذه امور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من آثارها . ولذلك قالت الحكماء العينان أم من اللسان . وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا . وقال بعض الشعراء

تريك أعينهم ما في صدورهم * ان العيون يؤدي سرها النظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرفة الكذب منه ومضرة الكذب عليه . وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه

فاذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث يصدق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكذب * يصدق في شيء وان كان صادقا

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه * وتلقاه ذا حفظ اذا كان صادقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب في الحرب واصلاح ذات الين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا يجوز ان ترد باباحة الكذب لما فيه من التفسير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فوّرّي عن الاخبار بنسبه بأمر يحتمل فظن السائل أنه عني القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما أراد رسول ان صلى الله عليه وسلم انه من الماء الذي يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من اخفاء نفسه وصدق في خبره وكالذي حكى عن ابي بكر الصديق رضى الله عنه انه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون ابا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا ابا بكر من هذا فيقول هاد يهديني السبيل فيظنون انه يعني هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فيصدق في قوله

ويورى عن مراده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان في المعارض لمندوحة عن الكذب . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان في المعارض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب . وقال بعض اهل التأويل في قوله تعالى لا تؤاخذني بما نسيت انه لم ينسأولكنه معارض الكلام . وقال ابن سيرين الكلام أوسع من ان يصرح فيه بالكذب واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد عليه في الاذى والمضرة وهي الغيبة والتميمة والسعاية فاما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى ولا يعتب بعضكم بعضا أيحجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا يعني أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا يحل غيبته حيا . وروى ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما . وروت اسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل ان يحرم لحمه على النار . وقال عدى بن حاتم الغيبة رعى اللثام وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فأكهة النساء . وقال رجل لابن سيرين رحمه الله اني اغتبتك فاجعاني في حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك . وقال ابن السماك لا تمن الناس على عيبك بسؤ غيبك . وقال الشاعر

لا تلمس من مساوى الناس ما ستروا * فيهتك الله سترنا عن مساويك
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا * ولا تعب احدا منهم بما فيك

وربما عذر المعتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلمن فسقا ويستشهد بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويحجاب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترنا كان بصونه اولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعى المعتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفد ذلك الا فساد اخلاقه من غير ان يكون فيه صلاح لغيره . وقد قيل لانوشروان ما الذي لا خير فيه قال ما ضرني ولم ينفع غيري او ضر غيري ولم ينفعني فلا اعلم فيه خيرا . وقيل في مشهور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب . وقد روى العلاء ابن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هي ان تقول لآخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبتته وان كنت كاذبا فقد بهته . وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن اعلن بفسقه . ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم مستفتية

فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله ما قصرها فقال مهلا اياك والغيبة فقالت يارسول الله انما قلت ما فيها قال اجل ولولا ذلك لكان بهتانا . وسئل بعض الادباء عن صفة اللثيم فقال اللثيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخبر فمحمول على الانكار لافعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المسائر واما النيمة فهي ان تجمع الى مذمة الغيبة رداة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحايين . وروى شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ألا اخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال من شراركم المشاؤون بالنيمة المفسدون بين الاجبة الباغون العيوب . وروى محمد بن عمرو عن ابي سلمة عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغار المحرّش بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات التام وقيل التام الذى يكون مع القوم يتحدثون فيهم حديثهم والقتات هو الذى يستمع عليهم وهم لا يعلمون فيهم حديثهم والمنان هو الذى يصنع الخير ويمن به . وقيل في منشور الحكم النيمة سيف قاتل . وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش فاما السعاية فهي شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم النيمة التفرير بالنفوس والاموال والقصدح فى المنازل والاحوال . وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع الديوث هو الذى يجمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لانه يدث بينهم والقلاع هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء سمي بذلك لانه يأتي الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه وقال بعض الحكماء الساعى بين منزلتين قيمتين اما ان يكون صدق فقد خان الامانة واما ان تكون قد كذب فخالف المروءة . وقال بعض الحكماء الصدق يزين كل احد الا السعاة فان الساعى اذم وآثم ما يكون اذا صدق . وقال بعض البلغاء النيمة دناءة والسعاية رداة وهما رأس الغدر واساس الشر فنجنب سبلهما واجتنب اهلهم ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه لحن نرى قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعى فانه ان كان فى سعائه صادقا كان فى صدقه آثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة . وقال الاسكندر لرجل سعى اليه برجل آجب أن تقبل منك ماتقول فيه على أن تقبل منه مايقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر وروى ان الله تعالى اوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان فى بلدك ساعيا ولست اخبرك وهو فى ارضك فقال يارب دنى عليه حتى اخرجه ل فقال يا موسى اكره النيمة وانم

﴿ الفصل السادس في الحسد والمنافسة ﴾ اعلم أن الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد هي الحاققة حالقة الدين لاحلقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا الا أنبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم فاخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وأن التحابب ينفيه وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نأفيا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم قال مجاهد معناه ادفع بالسلام اساءة المسيء . وقال الشاعر

قد يلبث الناس حيناً ليس بينهم * ودّ فيزرعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصى الله به في السماء يعنى حسد ابليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به في الارض يعنى حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء من رضى بقضاء الله تعالى لم يسخطه احد ومن قع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الادباء ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم . فاخذ بعض الشعراء فقال

ان الحسود الظلوم في كرب * يخاله من يراه مظلوما

ذا نفس دائم على نفس * يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا أنه خلق دنيء يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرماً والسلامة منه مغماً فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكابة في عدو ولا ضرار بمحسود . وقد قال معاوية رضى الله عنه ليس في خصال الشر اعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود . وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد أنه يغم في وقت سرورك . وقيل في منشور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الاصمعي قلت لاعرابي ما أطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشريح القاضي انى لا احسدك على ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرني . وقال عبد الله ابن المعتز رحمه الله تعالى اصبر على كيد الحسو * د فان صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها * ان لم تجهد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدة الاسبى على الحيريات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الحير هي الحسد وليس الامر على ماظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الافاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والافتداء باختيار الافاضل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد . وقال الشاعر

نافس على الحيريات اهل العلا * فانما الدنيا احاديث
كل امرئ في شأنه كادح * فوارث منهم ومورث

واعلم ان دواعي الحسد ثلاثة احدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر او منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس والثاني ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واحتصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف عنه وهذا اوسطها لانه لا يحسد الا كفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا والثالث ان يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا يبدد فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعلمها واخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بورا وانتقاما وان سادف محجرا ومهانة كان كمدنا وسقاما . وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان أكثر فضله أكثر حساده وان قلّ قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما كانت نعمة الله على احد الا وجد لها حسدا فلو كان الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزا . وقد قال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لأمهمم * قبل من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بى وما بهمم * ومات اكثرنا غيظا بما يجد
وربما كان الحسد منها على فضل المحسود ونقص الحسود . كما قال ابو تمام الطائي
واذا اراد الله نشر فضيلة * طويت آناح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعمى على المحسود

فاما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا ليتفتى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فامور هي له حسم ان صادفها عزم فمنها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل في آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدرج يسهل منها ما استصعب ويوجب منها ما اتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يحلى خلقه غير انه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتحلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالحلق . قال ابو تمام الطائي

فلم اجد الاخلاق الا تحلقا * ولم اجد الافعال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستعج به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستكف من هجته مساويه فيذلل نفسه انفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها ويوجب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجلب عن دناءة الحسد . وقد قال الشاعر

ابى له نفسان نفس زكية * ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان مكانته في نفسه ابلغ ومن الحسد ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما كده واكمده ليكون اطيب نفسا واهنا عيشا . وقد قيل العجب لفضلة الحساد عن سلامة الاجساد . وقد قال الشاعر

بصير باعقاب الامور كما تما * يرى بصواب الراي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا اجدى نفعا واخلص ودًا . وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوي جوي بجوى وليس بحازم * من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن اميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم * انى اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا ان يعارضه في امره فيرد محروما مسلوبا . وقد قال ازدشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه . وقال محمود الوراق

قدر الله كأن * حين يقضى وروده

قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريد

فأرد ما يكون ان * لم يكن ما تريد

فان أظفرت السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المرشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة فصرفها عن لائمة هو أظهر حزما واقوى عزما بمن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فاتقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميمة حتى ظهر حسده واشتد كرده فقد باء باربع مدام احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرتة انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء . وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه وتفورهم منه . وقد قيل فى منثور الحكم الحسود لا يسود والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة ماثورا وبالملت مزجورا . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه والرابعة اسخاط الله تعالى فى معارضته واجتناب الاوزار فى مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا نعمة من الناس أهلا . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقال عبدالله ابن المعتز الحاسد معتاذ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلي الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وأبعد عن ملابسته وأداناه لعضل دانه واعواز دوانه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام . وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الوراق

أعطيت كل الناس من نفسى الرضا * الا الحسود فانه اعيانى

ما ان لى ذنبا اليه علمته * الا تظاهر نعمة الرحمن

وأبى فما يرضيه الا ذلتى * وذهب اموالى وقطع لسانى

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يسلم احد منهم الطيرة وسؤ الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تتحقق واذا حسدت فلا تبغ

﴿فصل﴾ واما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان احدهما ما تكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لاصوله والثاني ما تكون المواضعة في فروعه واصوله وذلك متضح في الفصول التي نذكرها اذا سبرت وهي ثمانية

﴿الفصل الاول في الكلام والصمت﴾ اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بواذره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يحترز من زلله بالامسك عنه او بالاقلال منه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغتم او سكت فسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذيا معاذ انت سالم ما سكت فاذا تكلمت فعليك او لك . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اللسان معيار اطاشه الجهل وارجمه العقل . وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعدد حيكما جاهلا كنت او علما . وقال بعض الادباء سعد من لسانه صموت وكلامه قوت . وقال بعض العلماء من اعوز ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته او محجته ولا يفكر الا في عاقبته او في آخرته . وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو الحجة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار . وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه او حكمة تنشرها او نعمة تذكرها . وقال الشاعر

رايت العز في ادب وعقل * وفي الجهل المذلة والهوان

وما حسن الرجال لهم بحسن * اذا لم يسعد الحسن البيان

كفي بالمرء عيبا ان تراه * له وجهه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد ان يستوفيهما وهي اربعة فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع يدعو اليه اما في اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثاني ان يأتي به في موضعه ويتوخى به اصابة فرصته والشرط الثالث ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة شروط متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليلا لكل شرط منها بما ينبئ عن لزومه فاما الشرط الاول وهو الداعي الى الكلام فلا ن مالا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر ومن ساع نفسه في الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مردولا ورايه معلولا كالذي حكى ابن عائشة ان شابا كان يجالس الاحنف ويظيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف نخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن اخي فقال ياعم لو ان رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شيء فقال يا ابن اخي ليتنا تركناك مستورا

ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشني

وكان ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكى عن ابي يوسف الفقيه أن رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له

أبو يوسف ألا تسأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى

نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببنتي الحطفي جد جرير

عجبت لازراء الي بنفسي * وصمت الذي قد كان بالقول أعلى

وفي الصمت ستر للهي وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلم

ومما اطرفك به عنى أنى كنت يوما فى مجلسي بالبصرة وانا مقبل على تدريس اصحابي اذ دخل

على رجل مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال لى قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت

اسأل عافاك الله وظنته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرنى عن نجم ابليس ونجم آدم ما هو

فان هذين لعظم شأنهما لا يسئل عنهما الاعلماء الذين فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله

وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقع مع ما ظهر من حاله

الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف

الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فيخبرك اقبل على وقال جزاك الله

خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد

هذين فانظر الى هؤلاء كيف ابانوا بالكلام عن جهلهم وأعرىوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن

لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا

من عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد الكلام

رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم

بكل ما عرض له . وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطايا . وقال

بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل ان يطيل

حبسك او يتلف نفسك فلا شىء اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع

الى الجواب . وقال ابو تمام الطائي

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا

جالست العلماء فانصت لهم فان فى انصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى انصاتك للعلماء زيادة فى العلم

واما الشرط الثاني فهو ان يأتي بالكلام في موضعه لان الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بانه هذيان وعجز فان قدم ما يقتضي التأخير كان عجلة وخرقا وان أخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا . وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه * وكلامها من بعدها نزر

واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية ومالم يكن من الكلام محصورا كان حصرا ان قصر وهذرا ان كثر . وروى ان اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاي واسناني قال فان الله عز وجل يكره الانبعاث في الكلام فنصر الله وجه امرئ اوجز في كلامه فاقصر على حاجته . وحكى ان بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك اذنين ولسانا واحدا ليكون ما سمعه ضعف ما تكلم به . وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثر آثامه . وقال ابن مسعود انذرکم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقصر منه على القليل واياك ما يخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن اسخط سلطانه تعرض للمنية ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحرية . وقال بعض الشعراء

وزن الكلام اذا نطقت فانما * يبدي عيوب ذوى العيوب المنطق

ومخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر اشنع وربما كان في الغالب اخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم . وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه . وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحججة والهذر يتلف المحجة . وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على اهله * اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال بعض الادباء (يارب السنة كالسيوف تقطع اعناق اصحابها وما ينقص من هيئات الرجال يزيد في بهاؤها والباها) . وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسلبا لا يتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلا ان من تكلم فأحسن

قدر على ان يسكت فيحسن وليس من سكت فاحسن قدر على ان يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا أملاه . وانشد بعضهم في خطباء اباد

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحى الملاحظ خيفة الرقاء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني اذا اقلت من الكلام اكرت من الصواب فقال يا ابي فان انا اكرت واكرت يعني كلاما وصوابا فقال يا بني ما رأيت موعوظا احق بان يكون واعظا منك . وانشدت لابي الفتح البستي

تكلم وسدد ما استطعت فانما * كلامك حي والسكوت جماد

فان لم تجد قولاً سديداً تقوله * فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الاكثر الكلام فقال أقسمون صوابا او خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير . وقال ابو عثمان الجاحظ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستتقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق ابو عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكسل الخاطر وهو صادر عن اعجاب به لولاه قصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الذلل دام العثار . وقال بعض الحكماء من اعجب بقوله اصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعه الملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ابغضكم اليّ التفهيق المكثار والملح المهذار وسأل رجل حكيماً فقال متى اتكلم قال اذا اشتيت الصمت فقال متى اصمت قال اذا اشتيت الكلام . وقال جعفر بن يحيى اذا كان الایجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا . وقيل في منشور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام . وقال بعض الادباء من اطال صمته اجتلب من الهية ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره . وقال بعض البلغاء عي تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم . وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء اطلق . وقال بعض الشعراء

ان الكلام يعد القوم جلوته * حتى يلج به عي واكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصولة فيلزم أن يكون بهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعنه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يا رسول الله قال لسانه . وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة . وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان . وقال بعض الادباء كلام المرید وافد اديه . وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء ما لم تكن له * حصة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وانما البلاغة ان تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة . وقد قيل لليوناني ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام . وقيل ذلك للرومي فقال حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل . وقيل للعربي فقال ما حسن ايجازه وقل مجازه . وقيل للبدوي فقال مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل . وقيل للضري فقال ما كثر ايجازه وتناسبت صدوراه وامجازه . وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجرأة على البشر . وسئل الحجاج بن القزبي عن الايجاز قال أن تقول فلا تبطيء وان تصيب فلا تحطيء . وقال الشاعر

خير الكلام قليل * على كثير دليل

والعبي معنى قصير * يحوبه لفظ طويل

وفي الكلام فضول * وفيه قال وقيل

واما صحة المعاني فتكون من ثلاثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لان المعاني تصير متشاكلة والثاني مقابله بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة الا احد هذين الوجهين الموافقة في الائتلاف والمضادة مع الاختلاف فاما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة اوجه احدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لا ينجح سماع

ولا يفر منه طبع والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي ولا يبنو عن فهم عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فلم أر قوما أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا والثالث ان يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة أما المطابقة فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن العتمر في وصيته في البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجبتها قلقه في مكانها نافرة عن موضعها فلا تتركها على القرار في غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنتور لم يعبك بترك ذلك أحد واذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت أقل عيبا منه وأزرا عليك من أنت فوقه واما المناسبة فهي ان يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعاني بعد تلك الألفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتباد ما سواها . وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك واما معاطاة الاعراب ومجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلى منه رتبة واشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن ان يكون في عداد البلغاء واعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم اذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى اذبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه فن آدابه ان لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت التزاهة عن الذم كرما والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب . يروى انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاثم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يارسول الله لقد علم اني خير مما وصف ولكن حسدني فذمه عمرو وقال والله يارسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى فقلت احسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة لاسيما اذا مدح تقريبا وذم تحققا . وحكى عن الاخنف بن قيس انه قال سهرت ليلتي افكر في كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجدتها . وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله عز وجل

وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فأنشأ يقول
 اذا ما وصفت امرأ لامرئ * فلا تغل في وصفه واقصد
 فانك ان تغل تغل الظن * ن فيه الى الامد الابد
 فيضال من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد
 ومن آدابه ان لا تبعه الرغبة والرغبة على الاسترسال في وعد او وعيد يحجز عنهما ولا يقدر على
 الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل فيهما عنانه ولم يستقل من القول ما يستقله
 من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا . وحكى ان سليمان بن داود عليهما السلام
 مر بمصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله
 قال انه يحطبها لنفسه ويقول لها زوجيني نفسك اسكنك اى غرف دمشق شئت وقال
 سليمان كذب المصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر ان يسكنها هناك ولكن كل
 خاطب كاذب ومن آدابه ان قال قولاً حقيقه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال
 القول اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل اجمل من ان يقول ما لم يفعل .
 وقال بعض الحكماء احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اى يكتفى بالفعل من القول .
 وقال محمود الوراق

القول ماصدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل

لا يثبت القول اذالم يكن * يقله من تحته الاصل

ومن آدابه ان يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان ترغيباً قرنه باللين
 والالطف وان كان ترهيباً خلطه بالخشونة والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته
 في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض
 المقصود لهوا . وقد قال ابو الاسود الدؤلى لابنه يابني ان كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو
 فوقك فيقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ومن آدابه ان لا يرفع بكلامه صوتاً مستكراً
 ولا يزعج له انزعاجاً مستهجناً وليكف عن حركة تكون طيشاً وعن حركة تكون عيا
 فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد حكى أن الحجاج قال لاعرابي أخطيب أنا
 قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد ومن آدابه أن يتجافى هجر القول
 ومستفح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهن بصيحه ليلبغ
 الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون . وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى واذا مروا باللغو
 مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذ

يصون عنه سمعه فلا يسمع خنى ولا يصنى الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره
وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه أحد التكبيرين
كما ان سماعه أحد الباعثين وأنشدني ابو الحسن بن الحارث الهاشمي

تحرّ من الطرق أوساطها * وعدّ عن الموضوع المشتبه
وسمعت صن عن قبيح الكلام * كصون اللسان عن التطق به
فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فاتبه

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة
مستكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيا كالذي رواه
الازدي عن الصولي لبعض المتكلمين من الشعراء

اتي شيخ كبير * كافر بالله سيرى
أنت ربي والهي * رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر اى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لانه قد غطى
نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربي يعنى ربي ولدك من
التربية والهي رازق الطفل الصغير كما انه رازق الولد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع
والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوّما ان حسن فيه
الظن او ذما ان قوى فيه الارتباب وقلمايكون ذلك الا من خليع بطر او مراتب أشرفا
الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تصلوا على النبي فخرج من هذا
النوع من التليس وفي تأويله وجهان أحدهما انه اراد النهى عن الصلاة في المكان
المرتفع المحدودب مأخوذ من النبوة والثاني انه اراد الطريق ومنه سمى رسل الله أنبياء
لانهم الطرق اليه وأما زال عنه التليس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان
من قول غيره تليسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد احواله بصرفان كلامه عن التجوز
والاسترسال في أمر او نهى الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نبي وليس يمتنع ذلك
في غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره ومن آدابه ان يجتنب امثال العامة الغوغاء
وتخصص بامثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط
الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبها وللساقط امثال فنها تمثيلهم للشيء المرئب كما قال
الضنوبري

اذا ما كنت ذا بول صحيح * ألا فاضرب به وجه الطيب

ولذلك علتان احدهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذي الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه معلول والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتخيلين بها فحسب ما هم عليه تكون امثالهم فلهايتين العلتين وقع الفرق بين امثال الخاصة وأمثال العامة وربما الف المتخصص مثلا عاميا او تشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل في ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذي حكى عن الاصمعي ان الرشيد سأله يوما عن انساب بعض العرب فقال على الخير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله جنيدك أنخطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه اعلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء من الاصمعي الذي هو واحد عصره وقريب دهره وللأمثال من الكلام موقع في الاسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لان المعاني بها لأثمة والشواهد بها واضحة والنفوس بها واثمة والقلوب بها واثمة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الامثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله ووضح بها الحجة على خلقه لانها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة ولها اربعة شروط احدها صحة التشبيه والثاني ان يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا والثالث ان يسرع وصورها للفهم ويمجمل تصورها في الوهم من غير ارتياء في استخراجها ولا كد في استنباطها والرابع ان تناسب حال السامع لتكون ابلغ تأثيرا واحسن موقعا فاذا اجتمعت في الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعاني وتدبرا للافهام

❦ الفصل الثاني في الصبر والجزع ❦ اعلم ان من حسن التوفيق وامارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند التوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين آمنوا صبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تأويلان احدهما على الجهاد والثاني على انتظار الصلوات . وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسبغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فزّل الكتاب بتأكيد الصبر فيما امر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو . وقال عبد الحميد لم اسمع اعجب من قول

عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما افضل العدة الصبر على الشدة . وقال بعض البلغاء من خير خلائك الصبر على احتلاكك . وقيل في مشور الحكم من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا . وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ . وقال بعض الشعراء وهو عبيد ابن الابرص

صَبْرَ النَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ مَلَمٍ * ان في الصبر حيلة المحتال
لاتضيقت في الامور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال
ربما يجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب القيمة الصبر صبران فاللثام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللأمور تمحلا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه واولاها الصبر على امتثال ما امر الله تعالى به والانهاء عما نهى الله عنه لان به تخلص الطاعة وبها يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ولم ير لنفسه صبيرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان من سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى يامن يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أرجو ان تلحق من الآخرة ما لا تطلبه . وقال أبو العاتية رحمه الله تعالى

أراك امرأ ترجو من الله عفوه * وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر * فيامن يداوي الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقت عند أوامره والقسم الثاني الصبر على ما تقضيه اوقاته من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد اكده الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائما والا احتملها لازما وصبر كارها انما . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر بيا سواي . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم

وانت مأجور وان جزعت جرى عليك القلم وانت مأزور . وقد ذكر ذلك ابو تمام في شعره فقال
 وقال علي في التعازي لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم
 أتصبر للبلوى عزاء وخشية * فتؤجر او تسلو سلو البهائم
 وقال شبيب بن شبة للمهدي ان احق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سيلا وانشد
 ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلي لا يصبر
 وقال آخر

تصبرت مغلوبا واني لموجع * كما صبر الظمان في البلد القفر
 وليس اصطباري عنك صبرا ستطاعة * وليكنه صبر امر من الصبر
 والقسم الثالث الصبر على مافات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من مسرة مأمولة فان
 الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد اليأس خرق . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قال من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فاؤتلك لهم الامن وهم
 مهتدون . وقال بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يحظر ببالك فلم تقله
 وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضاء عليك امرا * فليس يحله غير القضاء
 فمالك والمقام بدار ذل * ودار العز واسعة القضاء
 وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على مافات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فاخذه
 بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدي عليك الحزن
 سيات محزون على فائت * ومضمر حزنا لما لم يكن
 والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر حلوله من نكبة يخشاها
 فلا يتجمل هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وان الاغلب من الخوف مدفوع . وقد روى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج . وقال
 الحسن البصري رحمه الله لا تحجلن على يومك هم غدك فحسب كل يوم هم . وانشد الجاحظ
 لحارثة بن زيد

اذا الهم امسى وهوداء فأمضه * ولست بمضيه وانت تعادله
 ولا تنزلن امر الشديدة بامر * اذا هم امر اعوقته عواذله
 وقل للفؤاد ان تجد بك ثروة * من الروع فافرح أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فإنه ان ادهشه التوقع لها واذلهه التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه واعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انحلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعنى والله اعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور . وقال أكرم بن صيفى من صبر ظفر . وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر ازديشير الصبر مفتاح الدرك . وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى . وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا سدت مطالبيها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتجيا

لا تياسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

أخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه . وقد قال الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه الصبر مستأصل الحدنان والجزع من اعوان الزمان . وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور . وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج . وروى ابن عباس رضى الله عنهما ان سليمان بن داود عليهما السلام لما استكدت شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألسم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نينبا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألسم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الآن جاءكم الفرج فما لبث ان أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا في نبي من انبياء الله يعمل بامرهم ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من أيد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الا منقرضة

وعند بلوغ الغاية الا منحسرة . وأنشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه
 خليلي لا والله ما من ملة * تدوم على حي وان هي جلت
 فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
 فكم من كريم قد بلى بنوائب * فصايرها حتى مضت واضمحلت
 وكم غمرة هاجت بامواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
 وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رأيت صبري على الذل ذلت
 فقلت لها يانفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقهما
 وقل تأثيرها وضررها فبها اشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضى المسار وان لها آجالا
 منصرفة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لخلق فيها بقاء . وروى بن مسعود
 رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما مثلي ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى
 ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها . وسئل علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال
 تفر وتضر وتمر . وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا أقبلت أدبرت
 وقال عمرو بن عبيد الدنيا أمد والآخرة أمد . وقال أنوشروان ان أحبيت ان لا تقم فلا
 تقن ما به تهتم فاخذ بعض الشعراء فقال

الم تر أن الدهر من سوء فعله * يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
 فمن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

حكيمنا بقراط خير قضية * ووصية تنفي الهموم الركداء
 قال الهموم تكون من طبع الورى * في لبث ما في طبعه أن يتفدا
 فاذا اقتيت من الزجاجة قابلا * للكسر فانكسرت فلاتك مكمداء

وأنشدني بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات * وعوار مسترده
 شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شدة

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قيصره رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد فقيم الكد وان لم
 يكن للامر دوام فقيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك فقيم الحيلة . وقال ابن الرومي
 رأيت حياة المرء رهنا بموته * وصحته رهنا كذلك بالسقم

إذا طاب لي عيش تَنَصَّصَ طيبه * بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعى زواله * فذلك في بؤس وان كان في نعم
ومنها ان يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وأنها تنقدر باوقات لا تنصرم قبلها
ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كل يوم يمر بها يذهب منها بشرط
ويأخذ منها بنصيب حتى تبغى وهو عنها غافل . وحكى ان الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه
بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضي من نعمه يمضي من بؤسى مثله والامر قريب
والحكم لله تعالى فاخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو ان ما أتموه فيه يدوم لكم * ظننت ما أنا فيه دائماً أبداً

لكنني عالم أني وأنكم * سنستجد خلاف الحالتين غداً

وأشدت لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار * وايام ضر لا تدوم قصار

وليس بباقي بؤسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كر نهار

وأشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

ألم تر ان ربك ليس تحصى * ايايه الحديثة والقديمه

تسل عن الهموم فليس شيء * يقوم ولا همومك بالمقيمه

لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو اعظم من رزيته وأشد من
حادثته ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى في اثناء
كل محنة منحة . وقيل للشعبي في نائبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور
وقال بعض الشعراء

لا تكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه

كم نعمة لا تستقل بشكرها * لله في طي المكاره كامنه

ومنها ان يتأسى بذوي الغير ويتسلى بأولى العبر ويعلم انهم الاكثر من عددا والاسرعون مددا
فيستجد من سلوة الاسبى وحسن العزما ما يخفف شجوه ويقل هلعه . وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه ألقوا بذوى الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مرثي الشعراء قال
البحري فلا عجب للأسد ان ظفرت بها * كلاب الاعادي من فصيح واعجبني
خربة وحشي سقت حمزة الردي * وموت على من حسام بن ملجم

وقال أبو نواس

المرء بين مصائب لا تقضي * حتى يوارى جسمه في رسمه

فؤجلا يلقى الردى في أهله * وممجلا يلقى الردى في نفسه

ومنها أن يعلم ان النعم زائرة وانها لا محالة زائلة وان السرور بها اذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا أدبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل في منشور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يجب فليتوقع غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن عزائه عند نزول البلاء . وقيل للحسن البصري رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلنى توقع بلائها عن الفرح برخائها فأخذها أبو العاتية فقال

زيده الايام ان اقبلت * شدة خوف لتصاريفها

كأنها في حال اسعافها * تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم وحزن آخرون وقال البحترى

متى أرت الدنيا نباهة خامل * فلا ترتقب الا خمول نبيه

وقال المتنبى

بذا قضت الايام ما بين اهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

وانشد بعض اهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة ايكة * اذا اخضر منها جانب جف جانب

فلا تفرحن منها لشيء تقيده * سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب

وما هذه الايام الا جفائف * وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومخنه من شواهد نبله وذلك لاحدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاه في عقله . وقال أبو العاتية

ما جاوز المرء من اطرافه طرفا * الا تخوونه النقصان من طرف

وأشدني بعض اهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب
 اذا جمعت بين امرئين صناعة * فاحببت أن تدرى الذي هو احذق
 فلا تفقد منهما غير ماجرت * به لهما الارزاق حين تفرق
 فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق
 واما لان ذا الفضل محسود وبالأذى مقصود فلا يسلم في بره من معاد واشتطاط مناو . وقال
 الصنوبرى محن الفقى يخبرن عن فضل الفقى * كالنار مخبرة بفضل العنبر
 ولما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الاعلى يد جاهل وذلك لاستحكام
 العداوة بينهما بالمباينة وحدث الانتقام لاجل التقدم . وقد قال الشاعر
 فلا غرو ان يمى علمي بجاهل * فمن ذنب التين تنكسف الشمس
 ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيدة من الحنكة ببلاء دهره فيصلب
 عوده ويستقيم عموده ويكمل بادنى شدته ورخائه ويتعظ بحالتي عفوه وبلائه . حكى عن
 ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد التكة فلما مثلت
 بين يديه قال لي يا أبا العباس اسمع ما أقول

نوائب الدهر ادبتي * وانما يوعظ الاديب
 قد ذقت حلوا وذقت مرا * كذاك عيش الفقى ضروب
 لم يمض بؤس ولا نعيم * الا ولى فيهما نصيب
 كذاك من صاحب الليالى * تغذوه من درّها الخطوب

فلقت لمن هذه الابيات قال لي ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شأنه فلا يقتر
 برخاء ولا يطمع في استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة او تخلو من ثقل واستحالة فان
 من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها . وانشد بعض الادباء

اني رأيت عواقب الدنيا * فتركت ما أهوى لما خشى
 فكرت في الدنيا وعالمها * فاذا جميع أمورها تفتى
 وبلوت أكثر اهلها فاذا * كل امرئ في شأنه يسعى
 أسنى منازلها وأرفعها * في العز اقربها من المهوى
 تعفو مساويها محاسنها * لافرق بين النعي والبشرى
 ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى
 أتراك تدري حكم رأيت من الاحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الاسباب تخفت عنه أحزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء . وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا . وقال بعض الشعراء

ما يكون الامر سهلا كله * إنما الدنيا سرور وحزون

هَوْنُ الامر تَعَشُّ في راحة * قلما هَوَّنت الا سَهْوَن

تطلب الراحة في دار العنا * ضل من يطلب شيئا لا يكون

فان اغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسباب وهم الجزع مالا يطيق عليه صبرا ولا يجده عنه سلوا . وقال ابن الرومي ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامده هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى في حفته واعان على تلفه فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتأساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجده من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستفز الدموع بالتذكر . وقال الشاعر * ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا . ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به * ان الذي يكشف البلوى هو الله

اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى الله

اليأس يقطع احيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبورا جميلا انه الصبر الذي لاشكوى فيه ولا بث . روى انس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ماصبر من بث . وحكي كعب الاحبار انه مكتوب في التوراة من اصابته مصيبة فشكى الى الناس فانما يشكوره وحكي ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا في دار فقالت ما هذا فليل لها مات لهم انسان فقالت ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوبان يرغبون . وقد قيل في منشور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه . وانشد بعض اهل العلم لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق

* لا يخرج الفریق بالفریق *

وقال بعض الشعراء

لأَتَشَكُّ دَهْرَكَ مَا صَحَّحَتْ بِهِ * ان الغنى هو صحة الجسم
هَبِك الخليفة كنت منتفعا * بغضارة الدنيا مع السقم
ومنها اليأس من خير مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الياض فلا يبقى معها
صبر ولا يتسع لها صدر وقد قيل المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومي
اصبري أيها النف * س فان الصبر أحجى
ربما خاب رجاء * وأتى ما ليس يرجى

وأشدني بعض اهل العلم

أحسب ان البؤس للحر دائم * ولو دام شيء عده الناس في العجب
لقد عرفتك الحادثات ببؤسها * وقد أدبت ان كان ينفعك الادب
ولو طلب الانسان من صرف دهره * دوام الذي يخشى لآيائه ما طلب
ومنها ان يعزى بملاحظة من حيظت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة
واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خُصَّ من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا وافرد
بالحادثة بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه
النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية وساواه في الحادثة لتكافأ الامران فهان عليه الصبر
وحان منه الفرج . وانشدت لامرأة من العرب

أيها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرا * لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فاضحى * مالكا خيرا وشرا
اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر أمرا

وانشدت لبعض اهل الادب

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره * فيأسى وفي عقبه يأتي سروره
الم تر ان الليل لما تراكت * دجاء بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصعبن اليأس ان كنت عالما * لييبا فان الدهر شتى اموره

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا
أخبرني بعض اهل الادب ان ابا الجوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت
حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو له طول حبسه فرد عليه جواب رفته بهذا

صبرا ابا ايوب صبرا مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذى عقد الذى انعقدت له * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها ان تجلى ولعلها

فاجابه ابو ايوب يقول

صبرتي ووعظتي وانا لها * وستجلى بل لا اقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما حتى اطلق مكرما . وانشد ابن دريد عن ابي حاتم
اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرhib
واوطنت المكاره واطمأنت * وارست في مكاتها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهها * ولا اغنى بجيلته الاريب
اتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات اذا تساهت * فوصول بها الفرح القريب

﴿ الفصل الثالث في المشورة ﴾ اعلم ان من الحزم لكل ذى لب ان لا يبرم امرا ولا يمضى عزما
الا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان الله تعالى امر بالمشورة نبيه
صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعده به من تأييده فقال تعالى وشاورهم
في الامر . قال قتادة امره بمشاورتهم تألفا لهم وتطييبا لانفسهم . وقال الضحاك امره
بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى امره بمشاورتهم
ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا . وروى عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال المشورة حصن من الندامة وامان من الملامة . وقال علي بن ابي طالب
رضى الله عنه نعم الموازنة المشاورة وبأس الاستعداد الاستبداد . وقال عمر بن الخطاب
رضى الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيها أشكل
عليه وينزل حيث يأمره اهل الرأي ورجل حائر بامرهم لا ياتمر رشدا ولا يطيع مرشدا .
وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى
ولا يفقد معهما حزم . وقال سيف بن ذى يزن من اعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه
كان من الصواب بعيدا . وقال عبد الحميد المشاور في رأيه ناظر من ورائه . وقيل في منشور
الحكم المشاورة راحة لك وتعب على غيرك . وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية
وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الادباء ما غاب من استخار ولا ندم من استشار .

وقال بعض البلغاء من حق العاقل ان يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول

الحكماء فالراي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل . وقال بشار بن برد

اذا بلغ الرأي المشورة فاستن * برأي نصيح او نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غصاصة * فان الخوافي قوة للقوام

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احدها عقل

كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الرويه . وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن

ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتدموا .

وقال عبدالله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحاً كما تحذر عداوة العاقل

اذا كان عدواً فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل وقيل

لرجل من عبس ما اكثر صوابكم قال نحن الف رجل وينا حازم ونحن نطيعه فكأننا

الف حازم وكان يقال اياك ومشورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره او كبير

قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه . وقيل في مشور الحكم كل شيء يحتاج الى العقل

والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة . وقال بعض

الحكماء التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في زيادة . وقال بعض الحكماء من استعان بدوي

العقول فاز بدرك الماء . وقال ابو الاسود الدؤلي

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بلييب

ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب * فحقق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب

عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة . روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اراد امراً فشاور فيه امراً مسلماً وفقه الله لا يرشد

اموره . والخصلة الثالثة ان يكون ناصحاً ودوداً فان النصح والمودة يصدقان الفكرة

ويمحضان الراي . وقد قال بعض الحكماء لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللييب غير الحقود

واياك ومشورة النساء فان راين الى الافن وعزمهن الى الوهن . وقال بعض الادباء

مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء

اصف ضميراً لمن تعاشره * واسكن الى ناصح تشاوره

وارض من المرء في مودته * بما يؤدي اليك ظاهره

من يكشف الناس لا يجداحدا * تنصح منهم له سرأثره

أوشك ان لا يدوم وصل أخ * في كل زلته تسافره
والحصول الرابعة أن يكون سليم الفكر من هم قاطع ونغم شاغل فان من عارضت فكره
شوائب الهموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر . وقد قيل في منشور الحكم كل شيء يحتاج
الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرزبته
فاستشارهم فان قصروا في الرأي ضرب قهارمته وقال اباطم بارزاقهم فأخطوا في آرائهم .
وقال صالح بن عبد القدوس

ولا مشير كذى نصح ومقدرة * في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا
والحصول الخامسة ان لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان
الاغراض جاذبة والهوى صاد والرأي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد .
وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا * ويردى الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتي وهو مخطئ * ويعذل في الاحسان وهو مصيب
فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهل للمشورة ومعدنا للرأي فلا تعدل عن
استشارته اعتمادا على ما توهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى
غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو خاطر مع عدم الهوى
وارتفاع الشهوة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رأس العقل بعد الايمان
بالله التودد الى الناس وما استغنى برأيه وما هلك احد عن مشورة فاذا اراد الله بعبد
هلكة كان اول ما يهلكه رأيه . وقال علي بن ابي طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية
وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من
رأيه ما قام عليه بالغلاء وانت تأخذه مجانا . وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع اخيك
فشاوره يكمل لك الرأي . وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل .
وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد احد من الصواب مع الاستبداد . وقال الشاعر
خيلي ليس الرأي في صدر واحد * اشيرا على بالذي تريان

ولا ينبغي ان يتصور في نفسه انه ان شاور في امره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته
حتى اقتصر الى رأي غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد الرأي للبهاة به وانما يراد
للاستفاعة بنتيجته والتحرز من الخطأ عند زلله وكيف يكون عارا مادى الى صواب وصد عن
خطأ . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لتحو اعقولكم بالذاكرة واستعينوا

على أموركم بالمشاورة . وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك . وقال بعض البلغاء إذا اشكلت عليك الأمور وتغير لك الجمهور فارجع إلى رأى العقلاء وافزع إلى استشارة العلماء ولا تأتق من الاسترشاد ولا تستكف من الاستمداد فلأن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم وينبغى أن تكثر من استشارة ذوى الالباب لا سيما فى الأمر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأى أو يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الناقبة واجالة الافكار الصادقة فلا يعزب عنها ممكن ولا ينجنى عليها جائز . وقد قيل فى منشور الحكم من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الرأى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس ان الأولى اجتماعهم على الارتباء واجالة الفكر ليدكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وأتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه ردّ نوقض كالجدل الذي تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الاظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الأولى استرار كل واحد بالمشورة ليحيل كل واحد منهم فكره فى الرأى طمعا فى الخطوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوُضت وكان الاول من بدأها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني اظهر والذي أراه فى الأولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر فى الشورى فان كانت فى حال واحدة هل هي صواب ام خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لان ما تردد بين امرين فالمراد منه الاعتراض على فساده أو ظهور الحججة فى صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة اوضح وان كانت الشورى فى خطب قد استتبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية واحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالأولى فى مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد فى الجواب ثم يقع الكشف عنه اخطأ هو ام صواب فيكون الاجتهاد فى الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعاً لان الانفراد فى الاجتهاد اصح والاجتماع على المناظرة ابلغ فهكذا هذا وينبغى ان يسلم اهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشار ذلك على نفسه مع مشاركتهم فى الارتباء والاجتهاد فاذا تصفح اقاويل جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون فى الأمر مقلدا ولا فى الرأى مفوضاً فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل

صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأي واقتراح ما أغلق من الصواب
فاذا تقرر له الرأي أمضاه فلم يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد
وليس عليه ضمان النجاح لا سيما والمقادير غالبه ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه
واسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان برأى ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس في حكمها اضعف
الحيلة خير من أقوى الشدة واقل التأنى خير من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم
واذا استبد الملك برأيه عميت عليه المرشد واذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى اهلا ولا
للمشورة مستوجبا اغتمه عفوا فان الرأى كالضالة تؤخذ اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه
فيطرح فان الدرّة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى
لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وأنشد ابو العيّن عن الاصمعي

النصح ارضى ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحها ولا تلم

ان الناصح لا تخفى مناجها * على الرجال ذوى الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له رأى ان ينهى في امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهزة والثقة معجز
وقيل للملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال تأخيري عمل اليوم لغد . وقال الشاعر

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * ولاتك بالترداد للرأى مفسدا

فانى رأيت الرب في العزم هجته * وانفذ ذى الرأى العزيمة أرشدا

وينبغى لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النصح مرجو
الصواب ان يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكفى على الاستسلام ببذل النصح
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه ان ينصحه
وربما ابطره المشاوره فاعجب برأيه فأحذره في المشاورة فليس للمعجب رأى صحيح ولا روية
سليمة وربما شخ في الرأى لعداوة او حسد فورى او مكر فأحذر العدو ولا تثق بحسود
ولا عذر لمن استشاره عدو او صديق ان يكتم رأيا وقد استرشد ولا ان يخون وقد أثنى .
روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للمستشير
والمستشار مؤتمن . وقال سليمان بن دريد

وأجب اخاك اذا استشارك ناصحا * وعلى اخيك نصيحة لا تردد

ولا ينبغى ان يشير قبل ان يستشار الا فيما مس ولا ان يتبرع بالرأى الا فيما لزم فانه لا ينفك
من ان يكون رأيا متهما او مطرحا وفي اى هذين كان وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان
عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب . روى ابو بلال العجلي عن حذيفة بن اليمان

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال لقمان لابنه يا بني اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر . وقال يهس الكلابي

من الناس من ان يستشرك فيجهد * له الرأي يستششك ما لا يتابعه

فلا تمنح للرأي من ليس اهله * فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

❖ الفصل الرابع في كتمان السر ❖ اعلم أن كتمان الاسرار من اقوى اسباب النجاح وادوم

لاحوال الصلاح . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان

فان كل ذي نعمة محسود . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه سر ك اسيرك فان تكلمت

به صرت اسيره . وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضئينا

بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكثوم السر .

وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه . وقال بعض

البلغاء ما سر ك ما كتمت سر ك . وقال بعض الفصحاء ما لم تغيه الاضالع فهو مكشوف

ضائع . وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أسيد

ولا تفش سر ك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا

فاني رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون اديما صحيجا

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفي

عواقبه ساءا ولنجاح حوائجه راجيا . وقال ابو شروان من حصن سره فله بتحسينه

خصلتان الظفر بمحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقيج من اظهاره

سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الحيانة ان كان مؤتمنا أو النيمة ان كان مستودعا فاما

الضرر فربما استويا فيه او تفضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي الاسترسال ببدء

السر دلائل على ثلاثة احوال مذمومة احدها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر

ولم يقدر على صبر . وقال الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو احمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر اضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء . وقد قال بعض الحكماء ان فرد

بسر ك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغرر واستعمله من

الخطر . وقد قال بعض الحكماء سر ك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارقته واعلم ان من الاسرار

مالا يستغني فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح ميسلم فليختر العاقل لسره أمنيا

ان لم يجد الى كتمه سيلا وليتجر في اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال امينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما ضاع من سره كبيرا في جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخلى عليه فمن اجل ذلك كان امناء الاسرار اشد تعذرا واقل وجودا من امناء الاموال وكان حفظ المال ايسر من كتم الاسرار لان احراز الاموال منيعة واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب اوعية الاسرار والشفاة اقفالها والاسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات امين السر ان يكون ذا عقل صادق ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كتمت فيه فهو عنقاء مغرب . وقيل في منشور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الودعة خائن . وقيل في منشور الحكم لا تسكح خاطب سرك . وقال صالح بن عبد القدوس

لانذع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرين احدهما ان اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من ان يكون فيهم من اخل ببعضها والثاني ان كل واحد منهم يجد سيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا . وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر

فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشي

ثم من اذاعتهم لم يسلم من ادالهم واستطالهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع العبد . وقد قال بعض الحكماء من افشى سره كثر عليه المتأمرين فاذا اختار وارحو ان يوفق للاختيار واضطر الى استبداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له اداء الامانة فيه بالحفظ والتناسي له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد ثم يرى ذلك حرمة يرهاها

ولا يدل ادلال اللثام . وحكى ان رجلا اسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت
قال أحفظت قال بل نسيت . وقيل رجل كيف كتبناك للسر قال احمد الخبر واحلف
للمستخبر . وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * من الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت اول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر
وحكى ان عبدالله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودعي سرا تضمنت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبراً
ولكنى أخفيه عني كاتني * من الدهر يوماً ما احطت به خبراً
وما السر في قلبى كيمت بحفرة * لاني اري المدفون ينتظر النشراً

❖ الفصل الخامس في المزاح والضحك ❖ اعلم ان للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى
القطيعة والعقوق يصم المزاح ويؤذي الممازح فوصمة الممازح ان يذهب عنه الهيبة
والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء واما اذية الممازح فلانه معقوق بقول كريبه وفعل
بمض ان أمسك عنه احزن قلبه وان قابل عليه جانب اذبه فحق على العاقل ان يتقيه وينزه
نفسه عن وصمة مساويه . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المزاح استدراج
من الشيطان واختداع من الهوى . وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانه حقة تورث
ضغينة . وقال بعض الحكماء انما المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك وقيل انما سمي المزاح
مزاخا لانه يزيج عن الحق . وقال ابراهيم النخعي المزاح من سخف او بطر . وقيل في منشور
الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب . وقال بعض الحكماء من كثر مزاحه
زالت هيئته ومن كثر خلافه طابت غيبته . وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله .
وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال يصك احدكم صاحبه باشد من الجندل وينشقه أحرق
من الجردل ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول انما كنت امازحك . وقال بعض
الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه السابورى في قصيدته الجامعة للآداب
فقال وزاد

شر مزاح المرء لا يقال * وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح * من الفتي تدعو الى التلاحي
ان المزاح بدؤه حلاوه * لكننا آخره عداوه
يحد منه الرجل الشريف * ويجترى بسخفه السخيف

وقال ابو نوايس

خل جنبيك لرام * وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير * لك من داء الكلام
انما السالم من الجيم فاه بلبام
ربما استفتح بالمز * ح مفاليق الحمام
والمنايا آكلات * شاربات للانام

واعلم انه قما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدي حالتين لانه لهما احدهما ايناس المصاحين والتودد الى المخاطبين وهذا يكون بما انس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل وقد قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرى عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحين والحالة الثانية ان ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سأم واحداث به من هم فقد قيل لا بد للصدور ان يفت . وانشدت لابي الفتح البستي

افد طبعك المكدود بالجد راحة * يجيم وعلله بشئ من المزح
ولكن اذا اعطيه المزح فليكن * بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال انى لا مزح ولا اقول الا حقا فن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى ان عجوزا من الانصار اتته فقالت يا رسول الله ادع لى بالمغفرة فقال اما علمت ان الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اما قرأت قول الله عز وجل انا انشأناهن فجعلناهن ابكارا عربا اربابا وآتته اخرى في حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذي فى عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلي الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها ما شأنك فقالت اخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى عينيك بياضا فقال اما ترين بياض عيني اكثر من سوادها . واتى رجل على بن ابي طالب رضى الله عنه فقال انى احتلمت على امي فقال اقيموه فى الشمس واضربوا ظله الحد . وسئل الشعبي عن اكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال ذلك نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل معى قال بطعامى فقال له احسن قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس . وحكى عن ابي صالح بن حسان وكان محدثا انه قال يوما لاصحابه افقه الناس وضاح اليمن فى قوله

إذا قلت هاتي نوليي تبرمت * وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضرعت عندها * وانباتها ما رخص الله في اللمم
فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذي حكى عن ابي معاوية الضرير وكان محدثا
انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

وإذا المعدة جاشت * فارمها بالمنجنيق

بثلاث من نبيذ * ليس بالحلو الرقيق

اما ترى كيف طرق بخلاعه التهمة على نفسه بهذا المزح فيما لعله برىء منه وبعيد عنه . وقد
كان ابو هريرة رضى الله عنه مسترسلا في مزاحه . روى ابن قتيبة في المعارف ان مروان ربما
كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه بردعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق
قد جاء الامير وربما اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم
ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك
ان يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ . وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى
الله عليه وسلم أنا كل تمرا وبك رمد فقال يارسول الله انما امضغ على الناحية الاخرى وانما
استجاز صهيب ان يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لان استخباره صلى الله
عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه
والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن
جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المين عن الله عز وجل احكامه المؤدي الى خلقه
أوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان اطوع لله سبحانه وتعالى من ان
يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان
سابق الفرس وبلال سابق الحبش ومن مستحسن المزح ومستسمح الدعابة ما حكى الزبير
ابن بكار عن الكندي ان القشيري وقف على شيخ من الاعراب فقال يا اعرابي ممن انت فقال
من عقيل قال من اي عقيل قال من بنى خفاجه فقال القشيري (رأيت شيئا من بنى خفاجة)
فقال الاعرابي ماشأته قال (له اذا جن الظلام حاجة) فقال الاعرابي ماهي قال (كحاجة الديك
الى الدجاجة) فاستعبر الاعرابي ضاحكا وقال قاتلك الله ما اعرفك بسرأر القوم فانظر كيف
بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا غاية ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة
وان كان مستكره الفحوى والزاهة عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل في مازحة عدو
فيجعل له طريقا الى اعلان المساوي وهو مجد ويفسخ له في التشفي مزحا وهو محق .

وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك واما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر في الامور المهمة مذهل عن الفكر في التوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار . روى ابو ادريس الحلواني عن ابي ذر الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . وروى عن ابن عباس في قوله تعالى مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كثرة ضحكك قلت هييته . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة حج من العلم حجة . وقيل في منشور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول في الضحك كالتقول في المزاح ان تجافاه الانسان نقر عنه وأوحش منه وان ألفه كانت حاله ما وصفنا فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه التبسم دعاة وهذا أبلغ في الايناس من الضحك الذي هو قد يكون استهزاء وتعبجا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي ذكرناه

﴿ الفصل السادس في الطيرة والقال ﴾ اعلم أنه ليس شيء اضر بالرأى ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة او نعب غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد جهل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر فالعدوى ما يظنه الناس من تعدى العلل والامراض فاخبر أنها لا تمدي فقيل يا رسول الله انا نرى النقطة من الجرب في مشفر البعير فتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما اعدى الاول وأما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده من ان القليل اذا طلَّ دمه فلم يدرك بثاره صاحته هامة في القبر اسقوني . قال الزبيرقان بن بدر يعنيتها

يا عمرو ان لاتدع شمتي ومنقصتي * أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال ابراهيم بن هرمة

وكيف وقد صار واعظا وأقبرا * يصبح صداها بالعشي وهامها

تفانوا ولم يبقوا وكل قيسلة * سريع الى ورد الفناء كرامها

وأما الصفر فهو كالحية يكون في الجوف يصيب المشاة والناس وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من أين ولا تعب * ولا يعرض على شر سوفه الصفر

وروى ابوهريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ظنتم فلا تحققوا واذا
 حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا . وقال الشاعر
 طيرة الناس لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
 اي يوم تحصه بسعود * والمنيا ينزلن في كل يوم
 ليس يوم الا وفيه سعود * ونحوس تجرى لقوم وقوم
 وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا ارادت سفرا نفرت اول طائر تلقاه فان
 طار يمتة سارت وتيمت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك
 وقال اقروا الطير على وكناتهما . وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما فر
 طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر . وقال لبيد
 لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع
 واعلم انه فلما يخلو من الطيرة احد لا سيما من عارضته المقادير في ارادته وصدده القضاء عن طلبته
 فهو يرجو والياس عليه أغلب ويأمل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء
 جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته فاذا تطير احجم عن الاقدام
 ويئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا
 ينجح له سعى ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير ووافقته القضاء فهو قليل الطيرة لا قدمه
 ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصدّه خوف ولا يكفه حزن ولا يؤب الاظافرا ولا يعود
 الا منجحا لان الغنم بالاقدام والحبيسة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار
 واطراحها من امارات الاقبال فينبغي لمن مئى بها وبلى ان يصرف عن نفسه وساوس التوكى
 ودواعى الحية وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه
 ويعلم ان قضاء الله تعالى عليه غالب وان رزقه له طالب الا ان الحركة سبب فلا يثنيه عنها
 ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا ولينص في عزائمهم واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع
 فقد روى ابوهريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن
 والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد
 ان لا يبنى . وروى عنه صلى ان عليه وسلم انه قال كفارة الطير التوكل على الله تعالى .
 وقيل فى منشور الحكم الحير فى ترك الطيرة وليقل ان عارضه فى الطيرة ريب او خامره فيها وهم
 ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تطير فليقل اللهم لا يأتى بالخيرات الا أنت
 ولا يدفع السيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله . وقد روى ان رجلا جاء الى النبي صلى الله

عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثرت فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل فيها عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فهي ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به واما القال ففيه تقوية للعزم وباعت على الجد ومعونة على الظفر فقد تقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبته . وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبه فقال أخذنا فألك من فيك فينبني لمن تقابل ان يتأول القال باحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سيلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق . روى ان يوسف عليه السلام شكى الى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت رب السجن أحب الىّ ولو قلت العافية أحب الىّ لعوفيت . وحي ان المؤمل بن اميل الشاعر لما قال يوم الحرة
شف المؤمل يوم الحرة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمى فأناه آت في منامه فقال له هذا ما طلبت . وحي ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك تقابل يوما في المحصف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فزق المحصف وانشأ يقول
أتوعد كل جبار عنيد * فما انا ذاك جبار عنيد
اذاما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث الا اياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فعوذ بالله من
البنى ومصارعه والشیطان ومكأده وهو حسبنا وعليه توكلنا

﴿ الفصل السابع في المروءة ﴾ اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التي تكون على افضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو بمن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته . وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة ان يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يستترق ولا يمين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم . وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل بالعقل يأمرك بالانفع والمروءة تأمرك بالاجل ولن تجد الاخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هي المروءة

لأما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس
أن تركب الافضل من خلائقها والاجل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد ان تسلم
الا لمن استكمل شرف الاخلاق طبعاً واستغنى عن تهذيبها تكلفاً وطبعاً . وقال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض * يجتث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعاً وفي المعوز ان يكون مستكملاً لكان في المستحسن من عادات دهره
والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالمعانة
ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على افضل أحوالها هي المروءة
وإذا كانت كذلك فليس يتقادها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد
وهانت عليه الملاذ حذراً من الذم ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم . وقال ابو تمام الطائي

والحمد شهد لا يرى مشاره * يجنيه الا من نقيع الخنظل

غل لحامله ويحسبه الذي * لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبى ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يقفر والاقدام قتال

وله أيضاً

وإذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيثان أحدها علو الهمة والثاني شرف النفس أما علو الهمة
فإلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة من خمول الضعة واستنكارا لمهانة النقص
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالي الامور واشرافها ويكره دنيتها
وسفسافها . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لا تصغرن هممكم فاني لم أر
اقعد عن المكرمات من صغر الهمم . وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد . وقال بعض البلغاء
علو الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان أمراً ظفر به اعظمهما مروءة .
وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جسيماً . وأما شرف النفس
فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل
وهي به عارفة ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة لأنها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة
فتصير منه أنف ولضده الملائم آثر وقد قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وإذا شرفت
النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فإذا مازجها صادف طبعاً ملائمة فمضى
واستقر فاما من منى بعلو الهمم وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لامر أعوزته آتته

وأفسدته جهالته فصار كضرب يروم تعلم الكتابة واخرس يريد الخطبة فلا يزيد الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره .
وقيل لبعض الحكماء من اسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته وقصرت آتته وقلت مقدرته . وقال افنون التغلبي

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا

لمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء تجنبو المنى فانها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم .
وقيل في منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمة حظا نال به املا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالتغلب اذ ليس في الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هي كالسحاب الذي يسك عن منابت الاشجار الى مغايص البحار وينزل حيث صادف من خيث وطيب فان صادف ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا خيثة ضر كذلك الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف نفسا دنية ضر وكان تقمة طامة . وحكى ان موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى اليه قد ملكت اسفلها على اعلاها فقال يارب كنت احب لهم عذابا عاجلا فأوحى الله تعالى اليه أو ليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا مجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاقل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل تضعيف قوته بكسله وجده بفشله .
وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب أمه . وقال بعض الحكماء نكح العجز التواني نخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل نخرج منهما الحرمان . وقال بعض الشعراء
اذا انت لم تعرف لنفسك حقها * هوانا بها كانت على الناس أهونا
ففسك أكرمها وان ضاق مسكن * عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكفي بمنزل ذلة * يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب مالا يستحقه ومتخطيا الى التماس مالا يستوجه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مسهلة

وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحزين بن المنذر الرقاشي
 إن المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فاضاعها
 أمرته نفس بالدناءة والحقا * ونهته عن سبل العلا فاطاعها
 فاذا اصاب من المكارم خلة * يبني الكرم بها المكارم باعها

واعلم ان حقوق المروءة أكثر من ان تحصى وأخفى من ان تظهر لان منها ما يقوم في الوهم حسا
 ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك اعوز
 استيفاء شروطها الا جملا يتبه الفاضل عليها بيقظته ويستدل العاقل عليها بفطرتة وان
 كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر في هذا الفصل الاشهر
 من قواعدها واصولها والاطهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم
 قسمين احدهما شروط المروءة في نفسه والثاني شروطها في غيره فاما شروطها في نفسه بعد
 التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة امور وهي العفة والزاهة والصيانة
 فاما العفة فنوعان احدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم
 فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط
 الفرج عن الحرام فلا أنه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرفة فاضحة وهتك داحضة
 ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذنبه ولقلقه وبقبته فقد وقى يريد بذنبه
 الفرج وبلقلقه اللسان وبقبته البطن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب
 العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن . وحكى ان معاوية رضى الله عنه سأل عمر عن
 المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال هي العفة عما حرم الله تعالى
 والخرفة فيما احل الله تعالى وسأل يزيد فقال هي الصبر على البلوي والشكر على النعمى
 والعفو عند القدرة فقال معاوية انت منى حقا . وقال انوشروان لابنه هرمن من الكامل
 المروءة فقال من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه . وقال بعض الحكماء من احب
 المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها . وقد انشدني بعض اهل الادب
 للحسن بن علي رضى الله عنهما

الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار

* والله من هذا وهذا جاري *

والداعي الى ذلك شيان احدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة . وقد روى عن النبي
 عليه السلام انه قال لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه يا علي لاتبع النظرة النظرة فان اولى لك

والثانية عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان احدهما لا تتبع نظر عينك نظر قلبك والثاني لا تتبع الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها عمدا . وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه العيون مصايد الشيطان . وقال بعض الحكماء من ارسل طرفه استدعى حتفه . وقال بعض الشعراء

وكنتم متى ارسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما اتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله انت قادر * عليه ولا عن بعضه انت صابر

واما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح ومسوّلة الفضائح وليس عطب الا وهي له سبب وعليه الب ولذلك قال النبي عليه السلام اربع من كنّ فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتمى وحين يقضب وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة امور احدها غض الطرف عن اثارها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك . روى سعيد بن سنان عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تقبلوا الىّ بست اتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هي يا رسول الله قال اذا حدثت احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخون غضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيئا الا واغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوننا على طاعته وحاجزا عن مخالفته . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما امر الله تعالى بشيء الا واعان عليه ولا نهى عن شيء الا واغنى عنه والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى في اوامره واقاؤه في زواجره والزامها ما لزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازى المحسن ويكافى المسيء وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله . روى ابن مسعود ان آخر ما نزل من القرآن واقفوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون و آخر ما نزل من التوراة اذا لم تستحي فاصنع ما شئت و آخر ما نزل من الانجيل شر الناس من لا يبالي ان يراه الناس مسيئا و آخر ما نزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة فاذا اشعرها ما وصفت اتقادت الى الكف واذغنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط واما كف اللسان عن الاعراض فلا نه ملاذ السفهاء وانتقام اهل القوغاء وهو مستسهل الكلف اذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره

وتحبط بمضارّه وظن انه لتجافي الناس عنه حتى يتقى ورتبة ترتقى فهلك واهلك فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان دماءكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايفار الصدور وابداء الشرور واطهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يتبقى مع هذه الامور وزن لموموق ولا مروءة للمخووظ ثم هو بها موتور موزور ولاجلها ممجور مزجور . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقاء لسانه . وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيان الكذب وخس القول والثاني ما يتجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشياء الغيبة والنيمة والسعاية والسب بقذف او شتم وربما كان السب انكاهها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصدر عن سفاو بذاء يحدث عن لؤم . وقد روى ابو سلمة عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم . وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر اسلم وهو بذوى المروءة اجمل فهذا شرط واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسرار بخيانة فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة او جلاء فاما الفتنة في الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس عن البادى بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيء الا باهله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها . وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد للظالمين . وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة اقرب شئ اجلا واسواء شئ عملا . وقال بعض الشعراء

وكنتم كعنز السوء قامت لحنفها * الى مديّة تحت الثرى تستثيرها

واما الجلاء فقد يكون من قوّة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكّنها شيئا حتى اذا افنت ما وجدت اضمحلت وخذت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبي عليه السلام اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحما من أمّتي تعيشوا في اكنافهم والصاد عن ذلك ان يرى آثار الله تعالى في الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اصح ولم ينو ظلم احد

غفر الله له ما اجترم . وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه . وقيل في منشور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم . وقال بعض البلغاء من جار حكمه اهلكه ظله . وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سيلى بظالم

واما الاستسرار بالحيانة فضعة لانه بذل الحيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين . وقد قيل في منشور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربيعي قرأت في بعض الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة نخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبني على الناس ولو لم يكن من ذم الحيانة الا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبي امانته وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من اربح بضائع جاهه واقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ادّ الامانة الى من ائتمنتك ولا تخن من خانتك . وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقتطار يؤدّه اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دعت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل يعنون ان اموال العرب حلال لهم لانهم من غير اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبيده من العفة غمورا فينتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس اقيح ولمعة الرياء افضح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزال أمتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما . وقال بعض الحكماء من التمس اربعا بأربع التمس ما لا يكون من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون والداعي الى الحيانة شيثان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه اقسام العفة واما النزاهة فنوعان احدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لؤم وهما ادفع شيء للروءة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طمع . وقال بعض الشعراء لا تخضعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون
 والباعث على ذلك شيان الشره وقلة الانفة فلا يقع بما اوتي وان كان كثيرا لاجل شرهه
 ولا يستكف مما منع وان كان حقيرا لقلة انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى
 المال اعظم خطرا فيرى بذل اهون الامرين لاجلها مغنا وليس لمن كان المال عنده اجل
 ونفسه عليه اقل اصفاء لتأنيب ولا قبول لتأديب . وزوى ان رجلا قال يا رسول الله اوصني
 قال عليك باليأس مما في ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة
 فصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه . وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه * سبته المني واستعبده المطامع

وحسم هذه المطامع شيان اليأس والقناعة . وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي
 صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفث في روعي ان نفسا لا تموت حتى تستوي
 رزقها فاتقوا الله واجلوا في الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على ان تطلبوه بمعاصي الله تعالى
 فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط . واما مواقف الريبة فهي التردد بين
 منزلتي حمد وذم والوقوف بين حائتي سلامة وسقم فتوجه اليه لائمة المتوهمين ويناله
 ذلة المرابين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افضع وان لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله
 عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال ان لا تعمل في السر
 عملا تستحي منه في العلانية وقال حسان بن ابي سنان ما وجدت شيئا هو اهون من الورع
 قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشيء تركته والداعي الى هذه الحال شيان الاسترسال وحسن
 الظن والمانع منهما شيان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت
 التهمة بطول الخبرة . وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام انه رآه بعض الحواريين
 وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال يا روح الله ماتضع هنا فقال الطيب انما يداوي
 المرضى ولكن لا ينبغي ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه اغلب والى
 الحوف من تصديق التهم اقرب فكل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه
 وسلم وهو ابعد خلق الله من الريب واصونهم من التهم وقف مع زوجته صافية ذات ليلة على
 باب مسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رآياه اسرعا فقال لهما على
 رسلكما انها صفة بنت حبي فقالا سبحان الله او فيك شك يا رسول الله فقال له ان الشيطان
 يجري من احدمك مجرى لحمه ودمه نخشيت ان يقذف في قليبك كما سؤا فكيف من تخالجت فيه
 الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى من في مواقف الريب من قادم محقق ولائم مصدق

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل
الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر
لختار لم يخلج في نزاهته شك ولم يقدر في عرضه افض . وقد قال الشاعر
أصونك ان ادل عليك ظنا * لان الظن مفتاح اليقين
وقال سهل بن هرون مؤنة المتوقف ايسر من تكلف المعتسف . وقال بعض الحكماء من حسن
ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع . وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر الصولي
رحمه الله قوله

احسنت ظني باهل دهري * فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الا من الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعي النزاهة واما الصيانة وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان
أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المن من
الناس والاسترسال في الاستعانة وأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى
الناس كل مهتضم وذليل مستنقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده ليقم اود نفسه
ويدفع ضرورة وقته وقد قالت العرب في امثالها كلب جوال خير من اسد رابض وما
يستمده نوعان لازم وندب فاما اللازم فما اقام بالكفاية وافضي الى سد الخلة وعليه
في طلبه ثلاثة شروط أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقي المحظورة فان المواد المحرمة
مستحبة الاصول ممحوقة المحصول ان صرفها في بر لم يؤجر وان صرفها في مدح لم يشكر
ثم هؤلاء لاوزارها محتقب وعليها معاقب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رجل
كسب مالا من غير حله فان انفقه لم يقبل منه وان أمسكه فهو زاده الى النار . وقال بعض
الحكماء شر المال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت أجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من
أصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسنتهم من سيئاتهم . وقال على
ابن الجهم سر من عاش ماله فاذا حا * سبه الله سره الاعدام .

والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غص ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد
لصيانة الاعراض لا لابتذالها وامن النفوس لا لاذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف
رضي الله عنه يا حبذا المال أصون به عرضي وأرضى به ربي . وقال أبو بشر الضرير
كفي حزنا أني اروح وأغتدى * ومالي من مال أصون به عرضي
واكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه فقال
معناه من احسن الوجوه التي تحمل والثالث ان يتأتى في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه
خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير أجدى نفعاً واحسن
موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض اذا روى يسيره زكا
وان اعمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن علي رضي الله عنه الكمال في ثلاثة العفة في الدين
والصبر على النوائب وحسن التدبير في المعيشة . وقيل لبعض الحكماء فلان غنى فقال
لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمد من قدر الكفاية
فقد ادى حق المروءة في نفسه . وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة .
وقال بعض الحكماء لابنه يابني لا تكن على احدكلا فانك تزداد ذلا واضرب في الارض عودا
وبدا ولا تأسف مال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لو صب ولا نصب فهذا حال اللازم
وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الابية يرون ما وصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل
اليه ارنالانه في الارث في جدوى غيره وبالكسب مجدالى غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر
وقال كشاجم

لا استلذ العيش لم ادأب له * طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
وارى حراما أن يؤاتيني الغنى * حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك من اخيك موفرا * فالليث ليس يسيع الا ما افترس

واما التذب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه
فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة
الاكفاء فحسبه ما كفاء فليس في الزيادة الا شره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي . وقال علي بن ابي
طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل . وقال عبدالله بن مسعود المستغني عن الدنيا
بالدنيا كمنطىء النار بالتبن . وقال بعض الحكماء اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا
لتجافها عن الكرام فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه اريحية الكرم وآثر ان يكون
رأسا ومقدما وان يرى في النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلا
ونائله فائضا . فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال طعام ما كول ونائل مبذول
وبشر مقبول . وقد قال الاحنف بن قيس

فلو مد سروى بمال كثير * لجذت وكنت له باذلا

فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا
 وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلا أن المنه استرقاق الاحرار تحدث ذلة
 في الممنون عليه سطوة في المنان به والاسترسال في الاستعانة تثقل ومن ثقل على الناس
 هان ولا قدر عندهم لمهان . وقال رجل لعمر رضى الله عنه خدمك بنوك فقال اغناني الله
 عنهم . وقال على بن ابي طالب رضى الله عنه لابنه الحسن في وصيته له يا بني ان استطعت أن
 لا يكون بينك وبين الله ذونمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من
 الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدهاقين
 مال المروءة فيكم قال اجتنب الريب فانه لا ينبل مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروءته
 وقيامه بمجواته وحوأج أهله فانه لا ينبل من احتاج الى أهله ولا من احتاج أهله الى غيره .
 وانشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاءه * وأخو الحوائج وجهه مملول

واخوك من وقرت ما في كيسه * فاذا عبثت به فانت ثقيل

وان كان الناس لمة لا يستغنون عن التعاون ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين
 تعاون ائلاف يتكافؤن فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين
 مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع باكرته فليس من هذا بد ولا لاحد عنه غنى
 وانما الذي يتصون عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن ان يستعينوا لئلا يكون
 عليهم يد ويسارعون ان يعينوا لان يكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة
 بجاه او بمال فقد اوهى مروءته واستبدل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب الم او حادث
 هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من نواق نوابه فلا لوم على
 مضطر فان اغتته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرض للمال ويعدل
 الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم انجح وهم عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فهم
 لا يجدون لهم مساويا وليصبرن على ابطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الاعن الملح الصبور
 ولذلك قيل قدم لحاجتك بعض لحاجتك . وقال ابو سارة سحيم بن الاعرف

تعد قرابة وتعدصهرا * ويسعد بالقرابة من زعها

وما زرتك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجها

وأيا ما فعلت فان نفسى * تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوابه كان له مع الضرورة فسحة

لكن ان وجدته قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به في المروآت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما اعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم من أعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في ارضه . وقال البحترى

ان لم يكن كنز فعل عطية * يبلغ بها باغي الرضا بعض الرضا
او لم يكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافصال . وقد روى عن علي بن ابي طالب رضى الله عنه انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما في خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان أعوزه ذلك الا استسماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لمقل . وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه ووجالته والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة امور هي جهد المضطر احدها ان يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من التجميل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجميل . وانشد بعض اهل الادب لعلى بن الجهم

هي النفس ما حملتها تحمل * وللدهر ايام تجبور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * واحسن اخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن الحر نعمة * ولكن عارا ان يزول التجميل

والثاني ان يقتصر في السؤال على ما دعتة اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر في ضرورته . وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفه المنع والثالث ان يعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق . فقد قال النمر بن توبل

لا تغضبني على امرئ في ماله * وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سؤال من كان للمسألة اهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصاها وهي ثلاث احدها كرم الطبع فان الكرم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المحذول من كانت له الى اللئيم حاجة والثانية سلامة الصدر

فان العدوالب على نكبتك وحرب في نابئتك وقد قيل من اوغرت صدره استدعيت شره
فان رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فأعظم بها محنة ان يصير عدوك لك راحما . وقد
قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسيه له راحينا

والثالث ظهور المكنة فان من سأل ما لا يمكن فقد احال وكان كستنض المسجون ومستسعف
المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا . وقد قال علي كرم الله وجهه من لا يعرف لا
حتى لا يقال له لا فهو احمق ووصى عبدالله بن الاهتم ابنه فقال يا بني لا تطلب الحوائج من غير
اهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا
بالحرمان . وقال الشاعر

ولا تسألن امرأ حاجة * يحاول من ربه مثلها

فترك ما كنت حملته * ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه واما شروط المروءة في غيره فثلاثة الموازنة والياسرة
والافضال أما الموازنة فتوعان أحدهما الاسعاف بالجاء والثاني الاسعاف في التواب
فاما الاسعاف بالجاء فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ أمرا وهو ارخص المكارم ثمنا
وألطف الصنائع موقعا وربما كان اعظم من المال تقعا وهو الظل الذي يلجأ اليه المضطرون
والحمى الذي يأوى اليه الخائفون فان اوطأه اتسع بكثرة الانصار والشيع وان قبضه انقطع
بنفور العاشية والتبع فهو بالبذل نيمى ويزيد وبالكف يتقص ويبد فلا عذر لمن منح جأها
ان يخل به فيكون أسوأ حالا من البخل بماله الذي قد يعده لنوابه ويستبقه لذته ويكثره
لذريته وبضد ذلك من يخل بجأه لانه قد اضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنمية
مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندماء على فائت واسفا على ضائع ومقتا يستحکم في النفوس
وذما قد ينتشر في الناس . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله
وأحب خلق الله تعالى اليه احسنهم صنيعا الى عياله . وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند
امكانه يبق لك حمد عند زواله واحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان
رخائك عدة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال
بعض الادباء بذل الجأ احد الحبايين . وقال ابن الاعرابي العرب تقول من امل شيئا هابه ومن
جهل شيئا عابه وبذل الجأ قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل
الجأ لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جأه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه

فكان بالذم أحق . وانشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومي رحمه الله
لا يبذل العرف حين يبذله * كمشتري الحمد او كمتاضه
بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من اسعد بجابه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر احدها
ان يستسهل المعونة مسرورا ولا يستقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولا حسانه
متسخطا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه
عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال والثاني بجانب
الاستطالة وترك الامتان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واجباط
الشكر . وقد قيل للحكيم اليوناني من أضيقت الناس طريقا واقلمهم صديقا قال من عاشر
الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريبا بذنب
ولا توبخا على هفوه فلا يفي مضمض التوبخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم . وقال النابغة الجعدي

ألم تعلم ان الملامة نفعها * قليل اذا ما الشيء ولى فادبرا

واما الاسعاف في النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب
راكضة فلا يعذر فيها الاعليم ولا يستنقذه منها الا سليم . وقد قال عدى بن حاتم
كفى زاجرا للراء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتفتدى

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع
سيلا اليه ووجد قدرة عليه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه
وشر من الشر فاعله . وقيل لبعض الحكماء هل شيء خير من الذهب والفضة قال معطيها
والاسعاف في النوائب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما احتص بثلاثة أصناف وهم
الاهل والاخوان والحيران اما الاهل فلماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من
احتاج اهله الى غيره . وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال المنى ثم لم ينل * قريبا ولا ذا حاجة لزهد

وان امرأ عادي الرجال على الغنى * ولم يسأل الله الغنى لحسود

واما الاخوان فلمستحکم الود ومتأكد العهد . سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال
صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى في كل مكان . وقال بعض حكماء الفرس
صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند الغيب .

ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما ف قيل هما صديقان فقال ما بال أحدهما فقير والآخر غني وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره قال علي كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر على الاذى . وقال بعض الحكماء من أجار جاره اعانه الله واجاره . وقال بعض البلغاء من احسن الى جاره فقد دل على حسن تجاره . وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحتر من اذانه * وما خير جار لا يزال مؤاذيا

فيجب في حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل أقالهم واسعافهم في نوابئهم ولا فسيحة لذى مروءة مع ظهور المكنة أن يكلمهم الى غيره او يلجئهم الى سؤاله ولكن سائل كرم نفسه عنهم فانهم عيال كرمه وأضيف مروءته فكما انه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيفه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه و اضافته مروءته . وقال بعض الشعراء

حق على السيد المرجو نائله * والمستجار به في العرب والعجم

ان لا ينيل الاقاصى صوب راحته * حتى يخص به الاذن من الخدم

ان الفرات اذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتد في الامم

واما التبرع فممن عدا هؤلاء الثلاثة من البعءاء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفاتض المروءة فهض في حوادثهم وتكفل بنوابئهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرئاسة . وقيل لبعض الحكماء أي شيء من افعال الناس يشبه افعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم ما لم يلجا اليه مضطر لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع معتذر فهذا حكم الموازنة واما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريئا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بعفته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا . وقد قالت الحكماء لاصديق لمن اراد صديقا لا عيب فيه . وقيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لاموت له واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما احب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا والمتقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه في القضاء ومياسرة اخوانه في الصفح والاغضاء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى امرني بمدارة الناس كما امرني باداء الفرائض . وقال بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا في كرم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة اللال . وقال ابن الرومي

فعدرك مبسوط لذنب مقدّم * وودّك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني اقتها * لدى مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما * خليلا اذا ما القلب لم يتقلب
واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفوات
نوعان صغار وكبار فالصغار مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع اطوارهم
المختلفة واخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا .
وقد قال بعض العلماء من هجر اخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده في غير اوانه .
وقال ابو العتاهية

وشر الأخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم

يريك النصيحة عند اللقاء * ويريك في السر بري القلم

وأما الكبار فوعان أن يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالخرج فيها مرفوع والعتب
عنها موضوع لان هفوة الخاطر هدر ولومه هذر . وقال بعض الحكماء لاتقطع اخاك الا بعد
عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال الاخنف بن قيس حق الصديق أن تختل له ثلاثا ظلم
الغصب وظلم الدالة وظلم الهفوة . وحكى ابن عون ان غلاما هاشميا عربد على قوم فأراد
عمه ان يسيء به فقال يا عم انى قد اسأت وليس معى عقلى فلا تسيء بي ومعك عقلك .
وقال ابو نواس

لم أؤاخذك اذا جنيت لاني * وائق منك بالاخاء الصحيح

فجميل العدو غير جميل * وقبح الصديق غير قبح

فان تشبه خطؤه بالمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ملوما ولذلك قيل
التثبت نصف العفو . وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له .
وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض * فان الغث يحمله السمين

ولا تحبل بظنك قبل خبر * فعند الخبر تقطع الظنون

ترى بين الرجال العين فضلا * وفيما اضمر والفضل المين

كلون الماء مشتبهها وليست * تخبر عن مذاقه العيون

والثاني ان يعتمد ما اجترم من كباره ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما أتاه من اربع
أحوال فالحال الاولى أن يكون موتورا قد قابل على وترته وكافأ على مساءته فالملائمة على

من وتره عأدة والى البادئ بها راجعة لان المكافئ أعذر وان كان الصفيح اجمل ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمشاركة فانها تميمت الغيرة ونحيي الغرة . وقال بعض
الحكماء من فعل ما شاء لقي ما لم يشأ . وقال بعض الادباء من نالته اساءتك همه مساءتك .
وقال بعض البلغاء من اولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . وقال صالح بن عبد القدوس
اذا وترت امراً فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة * اذا رأى منك يوماً فرصة وثبا
والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنباً لانه قد رأى عقبي اساءته فان واصل
الشر واصلته المكافأة وقد قيل باعتبارك الشر يعتدلك وبحسن النصفة يكون المواصلون .
وقال بعض الحكماء من كنت سبباً لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دأه
وقد قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تُعْرِضْ عن الجهل والحنأ * اصبت حليماً أو اصابك جاهل
والحال الثانية أن يكون عدواً قد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه واستخسنت ضراؤه
فهو يتربص بدوائر السوء انتهاز فرصه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنائبة
ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذراً اسلم والكف عنه متاركة أغم فانه لا يسلم
من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره . وقد قالت الحكماء لا تعرضن لعدوك في دولته
فاذا زالت كفيت شره . وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان
صادقاً فليوقد نارين ولينظر هل تطفى احدها الاخرى وانما يطفى الخير الشر كما يطفى
الماء النار . وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصراً أن ترى عدوك يعصى الله فيك . وقال
بعض الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادي . وقال البحري

واقسم لا أجزيك بالشر مثله * كفى بالذي جازيتني لك جازيا
والحال الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد
وبعته خيبة الاصل على آيات الفساد فهو لا يستقيج الشر ولا يكف عن المكروه فهذه
الحالة اطم لان الاضرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانتباض ولا خلاص
منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح الغنم وكانار المتأججة في يابس
الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك . روى مكحول عن ابي امامة رضى الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة ذات جنى ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات
شوك ان ناقدهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله

وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فافتك . وقال عبدالله بن العباس العاقل
الكريم صديق كل احد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال شر
ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره . وقال بعض البلغاء
أعداؤك داؤك وفي البعد عنهم شفاؤك . وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافله عن اللئيم
ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه
قلما اجتمعت هاتان النعمتان . وقال عبد المسيح بن نفيثة

الخير والشر مقرونان في قرن * فالخير مستبوع والشر محذور

والحال الرابعة ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا او احاقد استجد جفوة وتنكرا
فايدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعداء فهذا قد
يعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عولجت اقلعت
وان أهملت أسقمت ثم ألتفت ولذلك قالت الحكماء دواء المودة كثرة التعاهد . وقال كشاجم
أقل ذا الود عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيمة

ولا تسرع بمعبية اليه * فقد يهفو وينته سليه

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا نفروا أصلح واطراحهم اذا فسدوا أولى كاعضاء
الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا خلق كان
اطراحه بالجديد له اجمل . وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك
فيمن يرغب فيك صغر همة . وقد قال بزرجهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان
قبل معرفته . وقال نصر بن احمد الخبزاري

صل من دنى وتناس من بعدا * لا تكرهن على الهوا احدا

قد اكثرت حواء اذ ولدت * فاذا جنى ولد نخذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه وضائق خلائقه ولم يكن فيه
فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح
سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل اخذ ولا الى العفو اخذ وقد علم ان
نفسه قد تظنى عليه فتريده وان جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وها أخص به
وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بادواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من
نفسه لنفسه هذا عين المحل ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل بقى فردا وانقلب الصديق
فصار عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي

صلى الله عليه وسلم أوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وان أعفو عن ظلمي
واعطى من حرمني وأصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا ونظري عبرة .
وقال لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ ألف صديق
والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير . وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول
في العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فمكسك بايهما شئت . وانشد ثعلب
إذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك في ادباره متعلقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة * إذا زلها او شكمتا ان تفرقا
فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفيح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء
فيعالجه فان لم يعرف الداء لم يقف على الدواء . كما قد قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد

وإذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من ان يكون ملل او زلل فان كان ملل فوودات
الملل ظل الغمام وحلم النيام . وقد قيل في منشور الحكم لا تأمن للمول وان تحلى بالصلة
وعلاجه ان يترك على ملله فيمل الجفاء كما مل الاخوان وان كان لزلل لو حطت اسبابه فان كان
لها مدخل في التأويل وشبهة تؤول الى جميل حمله على أجل تأويله وصرفه الى احسن جهة
كالذي حكى عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له ففرج عليه أحدهما وطواه الآخر
فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضلته وطوانا ذلك بتقته بنا . وانشد بعض اهل
الادب لمحمد بن داود الاصفهاني

وتزعم للواشين أني فاسد * عليك واني لست فيما عهدتي

وما فسدت لي يعلم الله نية * عليك ولكن خنتني فآهمتني

غدرت بمهدى عامدا واخفتني * نخفت ولو آمنتني لامنتني

وان لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالتدم توبة
والخجل انابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل
التحريف او خجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان اكثرها
مفاجر . وقال علي رضي الله عنه كفي بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل
اعتذر اليه لا يدعونك امر قد تخلصت منه الى الدخول في امر لعلك لا تخلص منه . وقال
بعض الحكماء شفيح المذنب اقراره وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء من لم يقبل
التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساءته . وقال بعض الحكماء

الكريم أوسع المغفرة اذا ضاقت بالمدنّب المعذرة . وقال بعض الشعراء
 العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس في غير ما يرضيك لي أرب
 وقد أسأت فبالنعمى التي سلفت * الا مننت بعفو ماله سبب
 وان عجل العذر قبل توبته وقدم اتصل قبل انابته فالعذر توبة والتصل انابة فلا يكشف عن
 باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لئيم الظفرسيء المكافأة وقد قيل من غلبته الحدة
 فلا تغتر بمودته . وقال بعض الحكماء شافع المذنّب خضوعه الى عذره وقال بعض الشعراء
 اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان برّ عندك فيما قال أو نجرا
 فقد اطاعك من يرضيك ظاهره * وقد اجلك من يعصيك مسترا
 وان ترك نفسه في زلله ولم يتدارك بعذره وتصله ولا يحاه بتوبته وانابته راعيت حاله في المتاركة
 فستجده لا ينفك فيهما من امور ثلاثة احدها ان يكون قد كف عن سيء عمله واقلع عن سالف
 زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع احد العذرين فكن انت المعتذر عنه بفمك
 والمتصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحسن على المسيء امير والثاني
 ان يكون قد وقف على ما اسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض احد البرأين
 وكفه عن الزيادة احدى الحسينين وقد استبق بالوقوف عن المتجاوز احد شطريه فعول به
 على صلاح شطره الآخر واياك وارجاه فان الارجاه يفسد شطر صلاحه والثلافي يصلح
 شطر فساده فان من سقم من جسمه مالم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عاجله سرت الصحة
 الى سقمه والثالث ان يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال
 فان امكن استدراكه وتأتي استصلاحه وذلك باستزاله عنه ان علا وبارغابه ان دنا
 وبعثابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء الكى ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لأئمة عليه
 والمقيم على شقاغه باغ مصروع . وقد قيل من سل سيف البغي اغمده في راسه فهذا شرط
 وما المسامحة في الحقوق فلان الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن اراد كل حقه من
 النفوس المستعصبة بشخ او طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالتحاشنة
 والمشاحة لما استقر في الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها
 كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان اليق لامور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة
 والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له
 موداتهم . وقال بعض الادباء اذا اخذت عفو القلوب زكا ربك وان استقصيت اكديت
 والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة

مأمون الغيبة بعيدا من المكر والحديعة . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أجملوا في طلب الدنيا فان كلا مَيَّسِرَ لما كَتَبَ له منها . وقال صلى الله عليه وسلم الا أدلكم على شيء يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف . وحكى ابن عون ان عمر ابن عبيد الله اشترى للحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من يرى ان المساهلة في العقود عجز وان الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس في الحقير وان جاد بالجيل الكثير كالذى حكى عن عبدالله بن جعفر وقد ما كس في درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له في ذلك فقال ذلك مالى اجود به وهذا ععلى بخلت به وهذا انما ينسأغ من اهل المروءة في دفع ما يجادعهم به الاذنياء ويفانهم به الاشياء وهكذا كانت حال عبدالله بن جعفر فاما مماسكة الاستنزال والاستسماح فكلا لانه مناف للكرم ومباين للمروءة راما الحقوق فتنوع المسامحة فيها نوعين احدهما في الاحوال والثاني في الاموال فاما المسامحة في الاحوال فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقدم فان مشآحة النفوس فيها اعظم والعداء عليها اكثر فان سأمح فيها ولم ينافس كان مع اخذه بافضل الاخلاق واستعماله لاحسن الآداب اوقع في النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو ازيد في رتبته وابلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لآخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الآداب انكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو اخفض للمرتبة وامنع من التقدم . حكى ان فتى من بنى هاشم تحطى رقاب الناس عند ابن ابي داود فقال يا بني ان الآداب ميراث الاشراف ولست ارى عندك من سلفك ارثا واما المسامحة في الاموال فتنوع ثلاثة انواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انكار لعسرة وهي مع اختلاف اسبابها تفضل ما تور وتالف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تجويه يده رينفذ فيه تصرفه كان أولى ان يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفرآقه وقد تصل المسامحة في الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وازكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدي لان السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجتري على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار اسير حقتك ورهين دينك يجرد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن التناء وجزيل الاجر . وقال محمود الوراق رحمه الله

المراء بعد الموت احدوثة * يفنى ويبقى منه آثاره

فاحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة (واما الافضال) فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان أحدهما ما أسداه جودا في شكور والثاني ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشباع والاتباع ومن قلت صنائعه في الشاكرين واعرض عن تألف السافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم . وقال عمر بن عبد العزيز ما طأوعني الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا . وقال بعض الحكماء اقل ما يجب للنعم بحق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته . وأنشدت لبعض الاعراب
 من جمع المال ولم يجده به * وترك المال لعام جد به
 * هان على الناس هوان كلبه *

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال
 ما نال محمدا الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضل
 لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آله المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواسة المساعف وليسعد بها اسعاد المتألف قال المتنبي
 * فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لا يراها وان اجهداها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدي ان رد صوتا لم يجده نفعا كما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه * يدهن من قارورة فارغة

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما أفتق وأما افضال الاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللؤم على البذى بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء واعرض عن استدفاع اهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفية واستدفع البذى صان عرضه وحى نعمته . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة . وقالت عائشة رضی الله عنها ذبوا باموالكم عن احسابكم وامتدح رجل الزهري فاعطاه قيصه فقال له رجل أتعطى

على كلام الشيطان فقال من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من أراد بر الوالدين فليعط الشعراء وهذا صحيح لان الشعر سائر يستر به ما ضمن من مدح او هجاء ومن أجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بئس ويهجو بك مجانا ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان أحدهما ان يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى اجتذابه بسبه والى ماله بتلبه والثاني ان يتطلب له في الجملة وجهها ويجعله في الافضال عليه سببا لانه لا يرى انه على السفه واستدامة البذاء واعلم أنك ما حيت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم ان بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صدق ولا يحامي عنك شقيق فكن احسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا وأجرك عند الله مذكورا .

فقد روى زياد بن الجراح عن عمر بن ميمون انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفرأغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بمحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

❖ الفصل الثامن في آداب مثورة ❖ اعلم ان الآداب مع اختلافها بتقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الاخير ان يتعاني حفظ الشادر وجمع المفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان أسف بشئ فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوائله ومقدماته ويثبت على اصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هي أوضح مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعاينه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الاول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله ان يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرا من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخطأ مغذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لم احب الإخلال به

فن ذلك حال الانسان في ما كمله ومشربه فان الداعي الى ذلك شيثان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعات بالمعجز والضعف أكثر ثوابا واعظم اجرا اذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وآتيان القرب ومن اخسر نفسه ريحا موفورا أو احرمها اجرا مذخورا كان زهده في الخير اقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه وسمعته واما الشهوة فتتويع نوعين شهوة في الاكثار والزيادة وشهوة في تناول الالوان الملذذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية نهم معر وشره مضر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والبطنه فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال على رضى الله عنه ان كنت يطنا فعد نفسك زمنا . وقال بعض البلغاء اقلل طعاسما تحمد مناما . وقال بعض الادباء الرعب لؤم والنهم شؤم . وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقال بعض الشعراء

فكم من لقمة منعت أخاها * بلذة ساعة أكلات دهر

وكم من طالب يسعى لامر * وفيه هلاكه لو كان يدري

وقال آخر

كم دخلت اكلة حشا شره * فاخرجت روحه من الجسد

لا بارك الله في الطعام اذا * كان هلاك النفوس في المعد

ورب اكلة هاضت آكلا واحرمته ما كل . روى ابو يزيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يخلق وعاء مليء شر من بطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح واما النوع الثاني وهو شهوة الاشياء الملذذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس فيها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها اخرى ليزدل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر يطنى وأشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تمدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان اسير

شهوات لا تنقضى وعبد هو لا ينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل . وانشدت لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فانت بالنفس لابلجسم انسان

وللحذر من هذه الحال ما حكى ان ابا حزم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتبهها فيقول موعذك الجنة وقال آخر تمكن النفس من لذاتها أولى واعطاؤها ما اشتبهت من المباحات أخرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادرارك لذاتها فتحصر عنها ذلة المقهورة وبلادة المجهور ولا تقصر عن درك ولا تعصى في نهضة ولا تكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الامرين اولى لان في اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمري اشبه المذاهب بالسلام لان التوسط في الامور احمد واذا قد مضى الكلام في المأكول والمشروب فينبغي ان يتبع بذكر الملبوس . اعلم ان الحاجة وان كانت في المأكول والمشروب أدعى فهي الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقه لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فمعنى قوله انزلنا عليكم لباسا اي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سوآتكم اي يستر عوراتكم وسميت العورة سواة لانه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه اربعة تأويلات احدها انه المال وهو قول مجاهد والثاني انه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات أحدها ان لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدى والثاني انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث انه السميت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عمرو ابن الزبير والخامس انه الحياء وهذا قول معبد الهني والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تأويلان احدهما ان ذلك زاجع الى جميع ما تقدم من قوله قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير اي ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني ان ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدى فلما وصف الله تعالى حال اللباس

وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة اشياء أحدها دفع الأذى والثاني ستر العورة والثالث الجمال والزينة فاما دفع الأذى به فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم فاخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كَن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعنى بقوله سراويل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسراويل تقيكم بأسكم الدروع التي تقي البأس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال اكنانا ولم يذكر السهل فمن ذلك جوابان احدهما ان القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيها هو مختص بهم وهذا قول عطاء والجواب الثاني انه اكتفاء بذكر أحدها عن ذكر الآخر اذ كان معلوما ان السراويل التي تقي الحر ايضا تقي البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى ان آدم وحواء لما أكلتا من الشجرة التي نهاها عنها بدت لهما سواهما وطفقا يَحْصِفَان عليهما من ورق الجنة تنبيها لعقولهما في ستر ما رآه مستقبحا من سواهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبدلها ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه وانما احتصت العورة بحكم شرعي فوجب ان يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا وقد كانت قريش واكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ في القربة وانما القرب ما استحسنت في العقل حتى انزل الله تعالى يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعني بقوله خذوا زينتكم الثياب التي تستر عورتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك وفي قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان أحدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول السدي والثاني لا تأكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها وجب بالشرع دون العقل وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز

والتقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين أحدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه وقيمه فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا مألوفا وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الاجناس فان للاجناد زيا مألوفا وللتجار زيا مألوفا وكذلك لمن سواهما من الاجناس المختلفة عادات في اللباس وانما اختلفت عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل احد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحقا ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح واما جنس الملبوس وقيمه فمعتبر من وجهين احدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر في الزى قدرا وللمعسر دونه والثاني بالمنزلة والحال فان لذي المنزلة الرفيعة في الزى قدرا وللمتخفص عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الى زى الدنيء كان مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدنيء الى زى الرفيع كان جهلا وتخلفا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة . وقال بعض الحكماء البس من الثياب ما لا يزيدريك فيه العظماء ولا يعيبوه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء

انّ العيون رمتك اذا فاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس

اما الطعام فكل لنفسك ما تشاء * واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

واعلم ان المروءة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري عن تمييز ان ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفي عليه انه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان اقبح لذكره وابعث على ذمه فكان كما قال المتنبي

لا تعجبين مضيا حسن بزته * وهل يروق دفيئا جودة الكفن

وحكى المبرد ان رجلا من قریش كان اذا اتسع لبس ارتّ ثيابه واذا ضاق لبس احسنها فقليل له في ذلك فقال اذا اتسعت ترينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة . وقد اتى ابن الرومي بابلاغ من

هذا المعنى في شعره فقال

وما الحللى الا زينة لنقيصة * شتم من حسن اذا الحسن قصرنا

فاما اذا كان الجمال موفرا * لحسبك لم يحجج الى أن يزورا
ولذلك قالت الحكماء ليست العزة في حسن البزة . وقال بعض الشعراء
وترى سفيه القوم يدنس عرضه * سفها ويمسح نعله وشراكه
واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده انفس وهو
على مراعاته أحرص . وقد قيل في منشور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك .
وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية أراك لا تبالي ما لبست فقال ألبس ثوبا أتى به نفسي
أحب الي من ثوب أقيه بنفسى فكما انه لا يكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد
الاطراح لها فقد حكى عن ابن عائشة أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فظفر اليه رث
الهيئة فقال ما مالك قال من كل المال قد اتاني الله فقال ان الله تعالى يحب اذا انعم على امرئ
نعمة ان ينظر الى أثرها عليه وقد قيل المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة وهكذا القول في
علمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيميا ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم
وظهر فسادهم فصاروا سبيل مقتته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الاخلاق
ويأخذهم باحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

سهل الفناء اذا مررت بيا به * طلق اليمين مؤدب الخدام

وليكن في تفقد احوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون مبتذله . فقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال ادهنوا يذهب البؤس عنكم وألبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى
ماليكم فانه اكتب لعدوك وليتوسط فيهم ما بين حالي اللين والحشونة فانه ان لان هان عليهم
وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم . حكى ان الموبذ سمع نضح الخدام في مجلس انوشروان
فقال أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال انوشروان انما بهم بهابنا أعداؤنا . وقال ابوتام الطائي

حشم الصديق عيوبهم بجاثة * لصديقه عن صدقه ونفاقه

فليظرن المرء من علمانه * فهم خلافة على اخلاقه

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياها كلت وحالة تصريف ان ارحتها فيها
تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاله حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقضته فان لهما
قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة احدهما وتغير زمانهما فقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نومة الصبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منسأة
للحاجة . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهي الصبحة
ونوم خلق وهي القائلة ونوم حق وهو العشي وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران

عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشى حمق . وقيل في منشور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا أعطي النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلاهما وسلم بالرياضة من بلادها وفسادها . وحكى ان عبد الملك بن عمر بن عيد العزيز دخل على أبيه فوجده نائماً فقال يا أبت أنام والناس بالباب فقال يا بني نفسى مطيتى وأكره ان أتمبها فتقوم بى وينبئى ان يقسم حالة تصرفه ويوقفته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان يتجاوز الى ما ليس بهمهم هل يكون الا

كساركة ييضعها بالعراء * وملبسة بيض اخرى جناحا

ثم عليه ان يتصفح في ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل اخر للخاطر واجمع للفكر فان كان محموداً أمضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموماً استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب فيها الغرض المقصود بها او يكون قد اخطأ فيها فوضعها في غير موضعها او يكون قصر فيها فقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت حدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة ويتنبه به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذا يجب ان يتصفح احوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره او اعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها . وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال قال السعيد من وعظ بغيره . وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشدنى بعض اهل العلم لطاهر بن الحسن

اذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات * اذا جثها حاجب يحجبك

فاما ما يروونه من اعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه أغلب من الاياس منه وحدث العاقبة فيه سلكه من اسهل مطالبه والطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس أغلب عليه من الرجاء مع شدة التفرير ودناءة الامر المطلوب فيحذر ان يكون له متمرضاً فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

إذا هممت بأمر ففكر في عاقبته فإن رشدًا فامضه وإن كان غيًا فانتبه عنه . وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز . وقال بعض الشعراء

فاياك والأمر الذي ان توسعت * موارد ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر عاذر

وليعلم ان لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من اوقات دهره عملا فان تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطي افعال الفكاهة والبطر استصغره من هو اصغر وحقره من هو اقل وأحقر . وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم * تحرا على راسه العصافير

فكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا على زمانك سليا لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحنتا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالجزلة عنهم فيقتوك ولا تجاهرهم بالخالفه لهم فيعادوك فانه لا عيش للمقووة ولا راحة لمعادي .
وانشد بعض اهل الادب لبعضهم

إذا اجتمع الناس في واحد * وخالفهم في الرضا واحد

فقد دل اجماعهم دونه * على عقله انه فاسد

واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تدهنها باخفاء عيبك واطهار عذرك فيصير عدوك احظى منك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي اخص بك لاغرأئك لها باعذارك ومساءتك فحسبك سوا رجل ينفع عدوه ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعالك . وقال بعض البلغاء من اصلح نفسه ارغم انق اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه امانيه . وقال بعض الادباء من عرف معايبه فلا يلم من عابه وانشدني ابو ثابت النخوي لبعض الشعراء

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من اخيه لأبصرا

ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب ايها الانسان نفسك بافكار عيوبك وانفعها كنفك لعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ اعاننا الله واياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكفى



بمحمد من بين الرشد من النعم * ولم يفرط في الكتاب من شيء
تم طبع كتاب أدب الدنيا والدين للعلامة أبي الحسن على الماوردي البصري بهجة المحققين
وهو الكتاب الجامع لفرائد الآداب الغني بشهرته عن المدح والاطناب الجدير بنشر عرفه على
عموم البرية لتخلق بما فيه من الاخلاق المرضية على ذمة ملتزمه حضرة امين افندي هنديه
بمطبعته الكائنة في غيظ النوبى بدرج الجينية (بمصر) في ظل من ازدهت به المعارف ورفل في
ظلال رياضها كل لبيب عارف حامى حمى الديار المصرية ونجبة سلالة العائلة المحمدية

الذي ليس له في معاليه مدانى ﴿ خديونا المعظم عباس باشا حلمى الثانى ﴾

لا زالت ألوية المعارف بحسن التفاهة منشورة ومساغيه الخيرية في

رفع منار العوارف مشكورة ما لاح بدر التمام وفاح

مسك الحنّام وذلك في شهر جمادى الثانى

سنة الف وثلثمائة وخمسة عشر

هجرية على صاحبها افضل

الصلاة وأذكى

التحية

ALBANY
UNIVERSITY
LIBRARY

مطبعة هندية

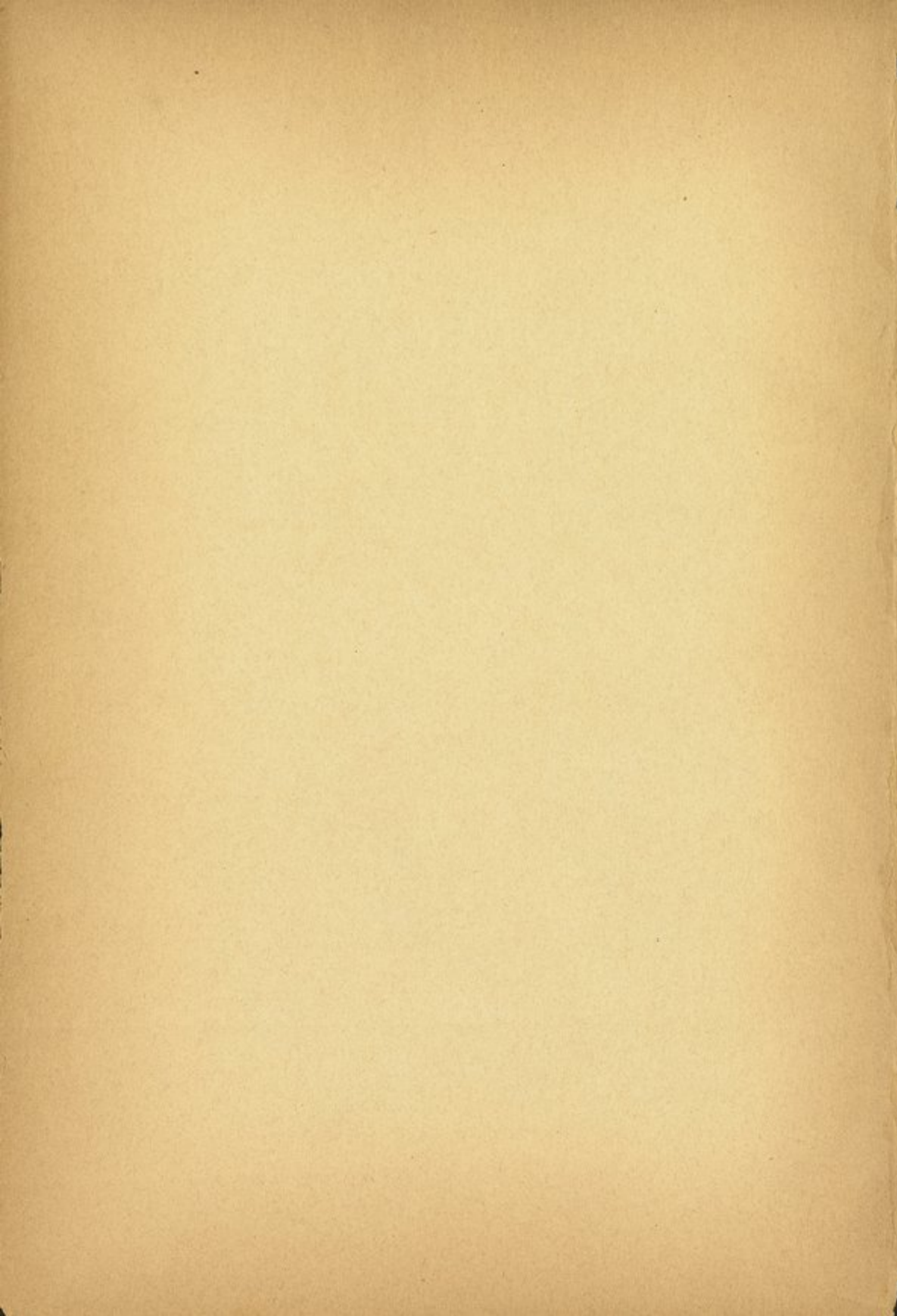
(في غيط النوبي بحارة درب الجنينة بمصر)

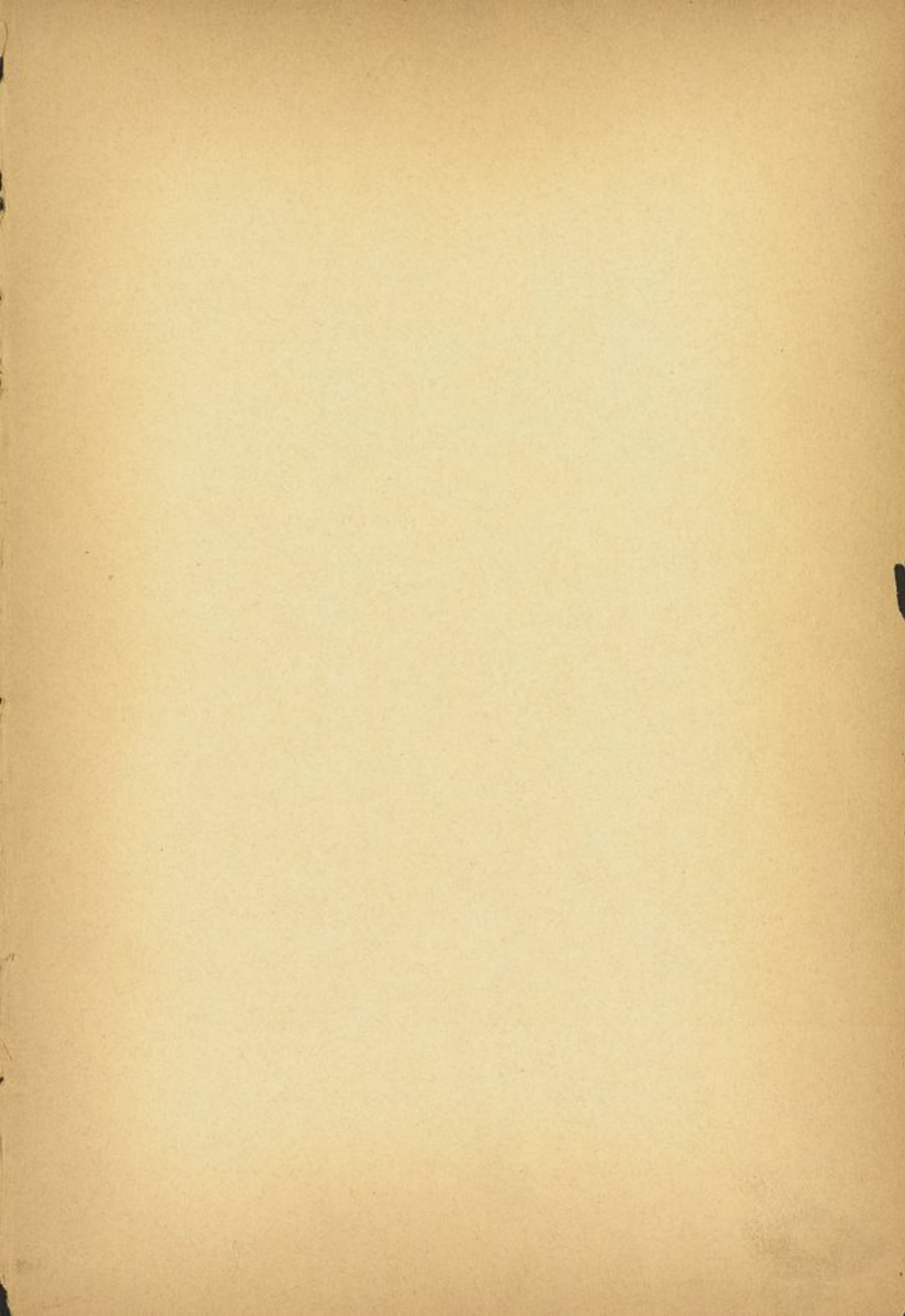
قد افتتحنا بحول الله تعالى مطبعة كبيرة تشتمل على ادوات كاملة ومعدات تامة لطبع جرنالات يومية واسبوعية وكتب وكراريس وشيركولاري واعلانات وكوترانات وكميالات ودفاتر بقسائم واستمارات بمجداول ونمر لوازم الدوائر الميرية والادارات الافرنجية وجوابات وظروف وغلافات ووصولات واوراق زيارة وغيرها يطبع كل ذلك بالعربي والفرنساوي والتركي والانكليزي والاطلياني بحروف لطيفة متنوعة واشكال ظريفة متعددة من مصنوع الاستانة العلية وسورية اما الاسعار فهي معتدلة للغاية بحيث انها تنقص ٢٠ في المائة عن سائر المطابع فمن اراد نشر ايضا بخدمته فليخبرنا

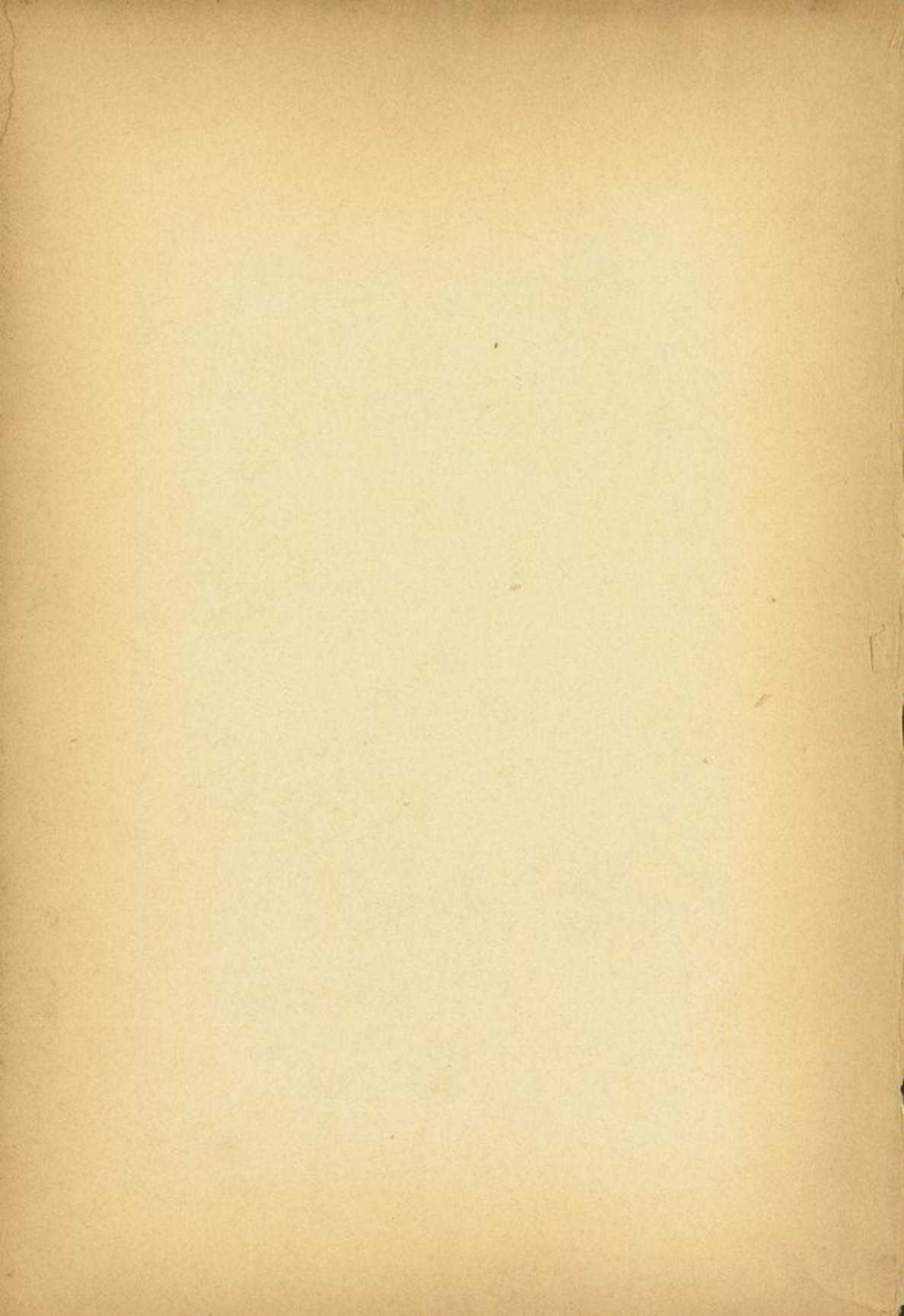
أمين ونقيب هندية اخوان

اعلان

نعلم للجمهور انه قد ظهرت نتيجتنا (الرزنامه) الجديدة عن سنة ١٨٩٨ افرنجية المقبلة المشهورة باربعة اسن تعلق بالحيطان وقد اضفنا عليها هذه السنة التاريخ القبطي فصارت تحتوي على التواريخ الاربع وهي الافرنجي والعربي والقبطي والرومي وعدا ذلك فان اسماء الايام والشهور محرزة بالافرنجي والعربي بحيث ان الذي لا يعرف اللغة الافرنجية يمكنه ان يعرف التاريخ الافرنجي ايضا وانا نبيعها بسعر الواحدة غرشان وللخارج بقرشين ونصف سباع







893.7 M44 P3

Mawardi

893.7M44 P3

APR 30 1949

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU07815077

THE
TAMBAK
—
DAB
—
DUNYA

893.7M44 — P3

